محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١٢)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢



١ سورة الفاتحة مكية

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾
الحمد لله رب العالمين ﴿٢﴾ الرحمن الرحيم ﴿٣﴾
مالك يوم الدين ﴿٤﴾ إياك نعبد وإياك
نستعين ﴿٥﴾ اهدنا الصراط المستقيم ﴿٦﴾
صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين ﴿٧﴾

وهي سبع آيات

ط حلبي | بصرت ٧٩٢٣٦

تصدير

اللهم إنا نستعينك، ونستهديك، ونستغفرك، ونتوب إليك، ونعوذ بك من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، بك الحول والطول، ومنك العون والهداية، لك الحمد والثناء، وإليك الدعاء والنداء، وأنت على كل شيء قدير . . .

وبعد . . فهذا هو الجزء الثانى عشر من هذا التفسير الجديد لكتاب الله الذى يخرج فى ظلمات العصر المادى، وبين سحب الضلالات الكثيفة المحيطة بالناس من كل جانب؛ وخلال دعوات ينفخ فيها الشيطان، ليصل دويها إلى كل أذن، وليردد نداءها كل لسان، وليؤمن بها كل عقل وقلب . . وهى دعوات جاحدة مارقة ما أنزل الله بها من سلطان، يدعو بعضها إلى الإباحية والوجودية والمادية، وينادى بعضها الآخر بالإلحاد فى دين الله . والكفر بشرائع السماء، والخروج على رسالات الأنبياء، ويتمادى بعض هؤلاء الدعاة، فينكرون وجود الله، ويشككون فى القيم الإنسانية العليا، ويحاربون الإيمان بالدين وبالنواميس الإلهية العظيمة، ويفتخرون بما يدعون إليه فى الوقت الذى صمت فيه لسان الحق، وسكت فيه دعاة الخير والهدى، ونام الحراس على تراثنا الروحى، وعلى التعاليم السماوية الهادية المنقذة للبشر والحياة .

فى وسط هذه التيارات المتدافعة المضطربة المتناقضة، يخرج هذا التفسير صوت هداية للناس، ولسان حق يدعو إلى مايدعو الإسلام وكتابه الكريم.

وتفسير تعاليم السماء، المنزلة على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الحكيم، وتقريب أصولها، وشرح أهدافها، وتوضيح مراميها، وتقريب معانيها؛ كل ذلك جهد مبذول، أقدمه بين يدى هذا التفسير، داعياً الله عز وجل أن يهدى به الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم وما توفيق إلا بالله ؟

ميزات هذا التفسير

لهذا التفسير ميزات كثيرة يكفى هنا أن أشير إلى بعضها :

١ ـ فأولى ميزاته أنه يربط الفكرة بالفكرة ، والمعنى بالمعنى ، والغرض بالغرض ، ، والموضوع بالموضوع ، دون تجزىء لمعانى القرآن الكريم ، أو تفكيك لوحدته ... نحن لا نتناول فيه تفسير كتاب الله آية فآية ، وإنما نتناوله موضوعا فموضوعا ، مع تحديد لأغراض القرآن الكريم ، وإظهار لوحدة السور القرآنية ، ولأفكارها ومعانيها المتصلة المتلاحمة . .

٢ ـ وثانى ميزاته أن أسلوبه عصرى يستطيع كل إنسان من كل طبقة أن يفهمه ، وأن يلم بمعانى القرآن الكريم، دون غموض أو تعقيد أو التواء . ومن ثم فقد حذفنا من هذا التفسير كل الاصطلاحات ليكون أقرب إلى الفهم ، وأسهل على القارىء ...

٣ ـ وثالث ميزاته أنه كتب ليكون مجاريا للثقافات الحديثة ومتمشيا مع مناهجها ، دون بعد عنها ، أو مخاصمة لها ، ومن ثم فقد عرضنا لكثير من الأفكار التاريخية والاجتماعية والفكرية والروحية أثناء عرضنا لهذا التفسير ، نشرح بها كتاب الله ، ونؤيد بها معجزته الجليلة الباهرة ..

٤ ـ ورابع ميزاته أنه موسوعة إسلامية كبرى تحتوى على كثير من الثقافات الإسلامية القديمة والحديثة ، وتحتوى على شرح جديد لكتاب الله ، وتنتظم كثيرا من وجوه الدفاع عن دين الله وكتابه الحكيم .

٥ ـ وخامس ميزاته أنه كتب وفق منهج علمى مرسوم ، يبدو فى أجزاء هذا التفسير واضحا جليا ، ويستطيع القارىء أن يتبينه بسهولة ، كما يستطيع أن يكشف عن أصول هذا المنهج الذى سرنا عليه دون عناء أو صعوبة .

٦ ـ وسادس ميزاته عرضه لجميع الآراء والمذاهب والأفكار ومناقشتها والموازنة بينها ، فى كل موضوع ، وكل مناسبة .

٧ — وسابع ميزاته تحقيقه للمعجزات الإلهية التى ظهرت على أيدى الرسل والنبيين تحقيقا علميا واضحا قريبا إلى العقل والمنطق ، وإلى الذوق والقلب أيضا .

٨ — وثامن ميزات هذا التفسير ما احتوى عليه من دراسات لسور القرآن الكريم ، وبيان لمراميها ، وتحديد لأفكارها ومعانيها وموضوعاتها . . إلى ما احتوى عليه من تبيين للأصول العامة التى اشتمل عليها كل ربع من سور القرآن الحكيم . .

٩ — وتاسع ميزاته العناية بالتحقيق التاريخى وبالنقد العلمى ـ فى هذا التفسير ـ عناية كبيرة . .

١٠ — وعاشر ميزاته ما اشتمل عليه من دراسات جديدة عن القرآن الكريم ومعجزته الخالدة ، مما صدر به الجزء الأول من تفسيرنا ومما جاء فى أثناء باقى أجزائه .

١١ — والحادى عشر من ميزات هذا التفسير ، إلمامه بكل ما كتب المفسرون القدامى والمعاصرون ، وبكل ما دونوه فى تفاسيرهم . .

١٢ — والثانى عشر من ميزات هذا التفسير ، هو ما انفردنا به نحن انفرادا واضحا من تقسيم جديد لآيات القرآن الكريم ، بحسب المعانى والأفكار والموضوعات والأغراض التى اشتملت عليها . .

إلى غير ذلك من ميزات هذا التفسير ، مما لم نذكره ، ومما ندعه إلى رأى القارىء المنصف الكريم .

(١١)

ســــورة هود

تمهيد

(١)

سورة هود مكية[1] ، وقد نزلت بعد سورة يونس ، ونزلت يونس بعد الإسراء ، فتكون سورة هود قد نزلت بعد الإسراء أيضاً . . وعدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة آية ، وهى كسورة يونس تماما ، فى تمجيد القرآن الكريم ، وتقرير صدق محمد فيما بلغ به عن ربه ، وقص قصص الأنبياء للعظة والعبرة ، والدعوة إلى توحيد الله وعبادته ، وإلى الإيمان بالبعث ، وبيان مظاهر قدرته فى السماء والأرض ، مما سنعرض له بتفصيل . .

(٢)

والسورة مسماة باسم نبى الله هود عليه السلام ، الذى بعثه الله إلى عاد ، وقد ذكرت قصته فى الآيات ٥٠ — ٦٠ ، وتتضمن السورة إنذاراً شديداً للكافرين حتى قال صلى الله عليه وسلم - كما روى عن أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أبو بكر قال له : يا رسول الله ، عجل إليك المشيب - قال صلى الله عليه وسلم : شيبتنى هود وأخواتها : الحاقة ، والواقعة ، وعم يتساءلون ، وهل أتاك حديث الغاشية .

ومن العجب أن تكون أهداف هود وأهداف يونس واحدة ، فبينهما شبه كبير من هذا الجانب ، كما أن أول هود مرتبط بآخر يونس ارتباطا روحيا ومعنويا شديدا .

---

(١) اللهم إلا الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة هود عليه السلام

١ - الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

٢ - أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .

٣ - وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ .

٤ - إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

٥ - أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

هذه الآيات الكريمة ليست ربعا قائما بذاته ، بل هى تتمة الربع السابق من سورة يونس ، ولأن حديثنا هنا عن سورة هود مستقلة ، فقد جعلنا هذه الآيات ربعا مستقلا ، وقلنا إنها الربع الأول من سورة هود ، وقد اشتملت على تعظيم شأن القرآن الكريم وتمجيده ، وعلى تلخيص ما يدعو اليه القرآن ومحمد ودين الإسلام ، من ترك عبادة غير الله ، ونبذ الشرك والوثنية ، ومن الإيمان بالتوحيد الخالص ، والرجوع إلى الله وحده . . فإن العابدين الموحدين لهم النعيم فى الدنيا ، ولهم الجزاء الأوفى والفضل العظيم فى الآخرة ، أما الذين يصرون على الشرك فلهم عذاب السعير ، يوم الجزاء والحساب ، إن

مصيرهم إلى الله ، ومعادهم اليه ، وهو القادر على إعادتهم كما قدر على خلقهم ، وما بال المشركين يظنون بالله الظنون ، ويقولون لأنفسهم : كيف يقدر على البعث والحساب ، بل كيف يعلم مانقول فى خلواتنا وما يتردد فى ضمائرنا ، ونسوا أن الله يعلم مايسرون ما يعلنون ، وهو عليم بذات الصدور . . يقول الله عز وجل : « الر » هى من مطالع السور التى تحدثنا عنها وعن دلالتها فيما سبق « كتاب أحكمت آياته » صفة لكتاب ، وفسر الإحكام فيه بوجوه :

الأول : أنه أحكمت آياته أى نظمت نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم الرصف ، لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى ، ولا يستطيع أحد نقص شىء منه ، ولا الطعن فى شىء من بلاغته أو فصاحته .

الثانى : أن الإحكام عبارة عما منع الفساد من الشىء ، فقوله : أحكمت آياته ـ أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به ، كما قاله ابن عباس .

الثالث : أنها أحكمت بالحجج والدلائل ، وجعلت حكما منقولة ، من حكم بالضم إذا صار حكيما ، لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية . . « ثم فصلت » صفة أخرى لكتاب أى بينت بالأحكام والقصص والمواعظ والأخبار : نجما نجما ، وفصلا فصلا ، وقال الحسن : أحكمت بالأمر والنهى ، ثم فصلت بالوعظ والوعيد ، ومعنى « ثم » فى قوله تعالى « ثم فصلت » ليس للتراخى فى الوقت لكن فى الحال ، كما تقول : هى محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل « من لدن حكيم خبير » أى الله تعالى ، صفة أخرى للكتاب والتقدير : الر كتاب من حكيم خبير ، أو خبر بعد خبر ، والتقدير : الر من لدن حكيم خبير ، أو صلة لأحكمت ، وفصلت ـ أى أحكمت ـ من لدن حكيم خبير ، وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه السورة وبين آخر ما قبلها مناسبة لطيفة ، كأنه تعالى يقول : أحكمت آياته من لدن حكيم ، وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور . . « أن لا تعبدوا إلا الله » يحتمل وجوها :

الأول : التقدير : كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لأجل أن لا تعبدوا إلا الله .

الثانى : أن تكون مفسرة ، لأن فى تفصيل الآيات معنى القول الذى تضمنه قوله تعالى «أن لاتعبدوا» .

الثالث : أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبى صلى الله عليه وسلم إغراء منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم «إننى لكم منه» أى من الله «نذير» بالعقاب على الشرك «وبشير» بالثواب على التوحيد ، كأنه قال : تركوا عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها إننى لكم منه نذير وبشير ، وهذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة بعضها على بعض :

الأول : أنه تعالى أمر أن لا نعبد إلا الله لأن ما سواه محدث مخلوق مربوب ، وإنما حصل بتكوين الله وإيجاده ، والعبادة عبارة عن إظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل ، وذلك لايليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن ، فثبت أن عبادة غير الله تعالى كفر وشرك .

المرتبة الثانية : قوله تعالى : «وأن استغفروا ربكم» .

المرتبة الثالثة : قوله تعالى «ثم توبوا إليه» . واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه :

الأول : أن معنى قوله تعالى : «وأن استغفروا ربكم» أى اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشىء الذى يطلب به ذلك وهو التوبة ، فقال : «ثم توبوا إليه» لأن الداعى إلى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة ، فالاستغفار مطلوب بالذات ، والتوبة مطلوبة لكونها من أمهات الاستغفار ، وماكان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة .

الثانى : «وأن استغفروا» من الشرك والمعاصى «ثم توبوا» أى ارجعوا إليه بالطاعة .

الثالث : الاستغفار طلب من الله تعالى لإزالة مالا ينبغى ، والتوبة سعى من الإنسان فى إزالة ما لا ينبغى ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشىء إلا من الله ، فإنه هو الذى يقدر على تحصيله ، ثم ذكر التوبة ، لأنه عمل يأتى به الإنسان ويتوصل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى يتقدم الاستعانة بسعى النفس .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاث ، ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار المطلوبة ، ومن المعلوم أن المطالب محصورة فى نوعين ، لأنه إنما يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة ، أما المنافع الدنيوية فهى المراد من قوله تعالى : « يمتعكم متاعا حسنا » أى بطيب عيش وسعة رزق « إلى أجل مسمى » وهو الموت ، قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا : خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، وقال تعالى: «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة» ، وهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية ، ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعة الراحة فى الدنيا ، فكيف الجمع بينهما ؟ والجواب أن المشتغل بعبادة الله تعالى ومحبته مشتغل بحب شىء يمتنع تغييره وزواله وفناؤه ، فكلما كان إمعانه فى ذلك الطريق أكثر كان انقطاعه عن الخلق أتم ، وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل ؛ لأنه أمن من تغير مطلوبه وأمن زوال محبوبه ، وأما من كان مشتغلا بحب غير الله تعالى كان أبدا فى الألم والخوف من فوات المحبوب وزواله ، وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ، ولذلك قال تعالى فى صفة المشتغلين فى خدمته : « فلنحيينه حياة طيبة » ، وقيل : المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستئصال ، كما استأصل أهل القرى الذين كفروا ، وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى : « إلى أجل مسمى » ، فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ، وأما المنافع الأخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى : « ويؤت »

فى الآخرة «كل ذى فضل » أى فى العمل « فضله » أى جزاءه ، ومراتب السعادة فى الآخرة مختلفة لأنها مقدورة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا ، فالإعراض عن غير الحق والإقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية ، قال تعالى : « ويؤت كل ذى فضل فضله » . وقال أبو العباس : من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت درجاته فى الآخرة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت سيئاته وحسناته كان من أهل الأعراف ثم يدخلون الجنة ، وقال ابن مسعود : من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات.. « وإن تولوا » فيه حذف إحدى التاءين ، أى وإن تعرضوا عما جئتكم به من الهدى « فإنى » أى فقل لهم إنى « أخاف عليكم عذاب يوم كبير » هو يوم القيامة ، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل، وقيل: يوم الشدائد ، وقيل : ابتلوا بالقحط حتى كادوا يهلكون « إلى الله مرجعكم » أى رجوعكم فى ذلك اليوم ، فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسىء على إساءته « وهو على كل شىء قدير » أى قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب ، وفى ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد ، والملك القاهر العالى إذا رأى عاجزاً مشرفاً على الهلاك فإنه يخلصه من الهلاك ، ومنه المثل المشهور : ملكت فاسجح ، أى فاعف ، « ألا إنهم يثنون صدورهم » اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية : فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : نزلت فى الأخنس بن شريق ـ وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره ، فمعنى قوله تعالى « يثنون صدورهم » يخفون مافى صدورهم من الشحناء والعداوة ، وقال عبد الله بن شداد : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة : كانوا يحنون ظهورهم كى لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره ، وقيل : كان الرجل

من الكفار يدخل بيته ، ويرخى ستره ، ويتغشى بثوبه ويقول : هل يعلم الله ما فى قلبى ؟ وقال السدى : « يثنون صدورهم » أى يعرضون بقلوبهم ، من قولهم : ثنيت عنانى . . . « ليستخفوا منه » أى من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه ، وقيل : من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل : إنها نزلت فى طائفة من المشركين قالوا : إن أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم ؟ « ألا حين يستغشون ثيابهم » أى يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم « يعلم » تعالى « ما يسرون » فى قلوبهم « وما يعلنون » بأفواههم ، أى إنه لا تفاوت فى علمه تعالى بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الإخفاء . « إنه » تعالى « عليم بذات الصدور » أى بالقلوب وأحوالها .

الربع الثانى من سورة هود

٦ — وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .

٧ — وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

٨ — وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

٩ — وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ

كَفُورٌ .

١٠ — وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ .

١١ — إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

١٢ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

هذه الآيات السبع هي مطلع الربع الثاني من سورة هود ، بناء على التجوز الذي تجوزناه في عد الآيات الخمس السابقة ربعا مستقلا ، وهي في الحقيقة تكملة لآخر سورة يونس . . وفي هذه الآيات السبع تمجيد لله عز وجل ما بعده من تمجيد ، وبيان لعظمة قدرته ، وسعة ملكه ، ولقدرته التامة الكاملة على البعث الذي يستهزىء به المشركون والكافرون . . وفي هذه الآيات بيان لحلم الله العظيم على هؤلاء المشركين ، وكيف يقابلون النعمة بالكفر ، والخير بالشر ، والحسنة بالسيئة ، أما المؤمنون الصابرون الطائعون فلهم ثواب الله ومغفرته ورزقه الكريم . . وفي آخر هذه الآيات يصف الله عز وجل عنت المشركين ، واقتراحاتهم الكثيرة على الرسول ، وطلبهم الآيات منه ، ويخفف الله عن رسوله ما يلقاه في سبيل ذلك من الهم والحزن وضيق الصدر ، ويقول له : لا تبتئس ، فإنما أنت نذير لقومك ، والله هو الذي يتولى أمرهم ، وهو على كل شيء وكيل . قال تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ، فذكر تعالى أن رزق كل إنسان أو حيوان إنما يصل إليه من

الله تعالى ، والدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض ، وأقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة ، وهى الأجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال ، والله تعالى عالم بكيفية طباعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها ومساكنها وما يوافقها ويخالفها ، فالإله المدبر لأطباق السموات والأرض ولطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما بأحوالها ، وكلمة « على » تدل على الوجوب فكأن إيصال الرزق إلى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والإحسان ، وحملا على التوكل فيه ، وفى هذه الآية دليل على أن الرزق قد يكون حراما ، لأنه ثبت أن إيصال الرزق إلى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد ، فالله تعالى لا يخل به ، ثم نرى أن إنسانا لا يأكل من الحلال طول عمره ، فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه ، فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال، فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقا . ويعلم « تعالى « مستقرها » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : هو المكان الذى تأوى إليه وتستقر فيه ليلا ونهاراً « ومستودعها » هو الذى تدفن فيه إذا ماتت ، وقال ابن مسعود : المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء ، وقيل : الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى فى صفة الجنة والنار « حسنت مستقرا ومقاما » ولا مانع أن يفسر ذلك بهذا كله « كل » أى كل واحدة من الدواب ورزقها ومستودعها « فى كتاب » أى ذكرها مثبت فى اللوح المحفوظ « مبين » أى بين كما قال تعالى « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ؛ ولما أثبت تعالى بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » المراد من العرش هنا كما نرجح : الأرض التى يتجلى عليها أمر الله « ليبلوكم » متعلق بخلق، أى خلقها وما فيها من منافع ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم ، أيكم أحسن عملا ، وهذا لقيام الحجة عليهم، وقد مر أمثال ذلك ، ولما بين تعالى أنه إنما خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم ، وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر ، لأن الابتلاء والامتحان يوجب

تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب ، وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة ؛ خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال تعـالى : « ولئن قلت » يا محمد لهؤلاء الـكفار من قومك « إنكم مبعوثون من الموت » أى للحساب والجزاء « ليقولن الذين كفروا إن هذا » أى القرآن أو البعث أو الذى تقوله « إلا سحر مبين » أى بين « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى » مجىء « أمة » أى جماعة من الأوقات « معدودة » أى قليلة « ليقولن » أى استهزاء « ما يحبسه » أى ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى « ألا يوم يأتيهم » كيوم بدر « ليس مصروفا عنهم » أى مدفوعا العذاب « وحاق » أى نزل « بهم » من العذاب « ما كانوا به يستهزئون » أى الذى كانوا يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء ، وقال تعالى : « وحاق » على لفظ الماضى مع أن ذلك لم يقع ، والجواب أنه وضع الماضى موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة فى التأكيد والتهديد ، ولما ذكر تعالى أن عذاب الـكفار وإن تأخر إلا أنه لابد وأن يحيق بهم ، ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى : « ولئن أذقنا » أى أعطينا « الإنسان » أى الـكافر « منا رحمة » أى نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذاتها « ثم نزعناها » أى سلبنا تلك النعمة « منه إنه ليؤوس » أى قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به « كفور » أى جحود لنعمتنا عليه ، وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة من جود الله تعـالى وفضله وإحسانه ، فانه لا يحصل له اليأس بل يقول : لعله تعالى يردها على بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت « ولئن أذقناه » أى الكافر « نعماء بعد ضراء مسته » كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم . والنعمة تصدر من الله تعالى تفضلا منه لخبر : ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى .. قيل ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا . . أما الضر فصادر من العبد كسبا ، قال تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، ولا ينافى ذلك قوله تعالى : « قل كل من عند الله » فإن الـكل منه إيجاداً ، غير أن الحسنة إحسان وامتحان والسيئة مجازاة وانتقام ، لخبر : ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشـوكة

يشاكها وحتى انقطاع شعث نعله إلا بذنب ، وما يعفو عنه الله أكثر « ليقولن » أى الذى أصابه الصحة والغنى « ذهب السيئات » أى المصائب « عنى أنه لفرح » أى فرح بطر « فخور » على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه ، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر ، فبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال الدنيا غير باقية ، بل هى أبداً فى التغير والزوال والتحول والانتقال، فإن الإنسان إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة ومن اللذات إلى الآفات كالقسم الأول ، وإما أن يكون بالعكس من ذلك، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب كالقسم الثانى .

ولما بين تعالى أن الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين ، وعند الفوز بالنعمة لا يكون من الشاكرين ، بين حال المتقين بقوله تعالى « إلا » أى لكن « الذين صبروا » على الضراء « وعملوا الصالحات » فى النعماء ، فإنهم إن أصابتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين : أحدهما زوال العقاب والخلاص منه ، وهو المراد من قوله تعالى « لهم مغفرة » والثانى الفوز بالثواب ودخول الجنة ، وهو المراد من قوله تعالى « وأجر كبير » . « فلعلك » يا محمد « تارك بعض ما يوحى إليك » فلا تبلغهم إياه لتهاونهم به ، فإنهم كانوا يستهزئون بالقرآن ويضحكون منه « وضائق به صدرك » أى بتلاوته عليهم لأجل « أن يقولوا لولا » أى هلا « أنزل عليه كنز » ينفقه فى الاستمتاع كالملوك « أو جاء معه ملك » يصدقه كما اقترحنا ، وروى عن ابن عباس أن رؤساء مكة قالوا : يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك، فقال: لا أقدر على ذلك، فنزل « إنما أنت نذير » فلا عليك إلا البلاغ لا الإتيان بما اقترحوه « والله على كل شىء وكيل » وهو عالم بحالهم وبأعمالهم وأفعالهم ومجازيهم بها .

١٣ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ

وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

١٤ — فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ .

١٥ — مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ .

١٦ — أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٧ — أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

١٨ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ .

١٩ — ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ .

٢٠ — أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ .

٢١ — أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

٢٢ — لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ .

٢٣ — إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة تحد بالقرآن الكريم سبق مثله فى سورة يونس ، كما سبق نظير له فى سورة البقرة ، وفى هذا التحدى تكذيب للمشركين فى افتراءاتهم على الرسول وعلى القرآن الكريم ، وقد سجل الله عز وجل عليهم فى الآية الثانية عجزهم أمام هذا التحدى القوى ، وفى الآيتين الثالثة والرابعة يذكر الله عز وجل أن المشركين همهم الدنيا ، يعملون لها ، وليس لهم حظ إلا الدنيا ، أما الآخرة فلهم فيها النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون. وفى الآية الخامسة يؤكد الله عز وجل سوء ما صنع المشركون وأنهم كذبوا برسالة محمد الظاهرة الواضحة التى أيدتها التوراة ، كما بشر بها الإنجيل . والكافرون برسالة محمد وبالقرآن موعدهم النار ، لأنهم شكوا فيما لا يصح الشك فيه ولا الريبة منه ، إنه الحق والصدق ، وإن القرآن لهو كتاب الله العلى العظيم ، وفى الآية السادسة يؤكد الله عز وجل أنه لو كان محمد قد افترى القرآن لكان له أشد ألوان العذاب ، فليس هناك أظلم للحق ولا للإنسانية ولا للنفس من الذين يفترون على الله الكذب ، بل إنه ليشار إليهم يوم القيامة ويقال لهم : ألا لعنة الله على الظالمين . . وفى الآيات الباقية يذكر الله عز وجل المشركين وشركهم ، ويصفهم بأنهم خسروا أنفسهم فى الدنيا ، وهم فى الآخرة أشد خسرانا ، أما المؤمنون الطائعون الصالحون فهم أصحاب الجنة ، وهم فيها خالدون ؛ ويصفهم الله عز وجل بصفاتهم ، كما يصف المشركين بصفاتهم أيضا .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة :

«أم» أى بل «يقولون» أى كفار مكة «افتراه» أى اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله، قال الله تعالى: «قل» لهم يا محمد «فأتوا بعشر سور مثله» فى البيان وحسن النظم «مفتريات» قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة، وهى: سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة ويونس وهود، وقيل: التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى بسورة واحدة، والتحدى بسورة واحدة وقع فى سورة البقرة وفى سورة يونس، لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس كما قاله الرازى، وأنكر المبرد هذا وقال: بل سورة يونس أولا، وقال: معنى قوله تعالى فى سورة يونس: فأتوا بسورة مثله، أى مثله فى الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا، فقال فى سورة هود: وإن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله فى الإخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد.. والصحيح عدم التعيين، فى السور المتحدى بها وعدم تعيين التحدى بسورة.. «وادعوا» أى وقل لهم يا محمد: ادعوا للمعاونة على ذلك «من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين» فى أنه مفترى «فإن لم يستجيبوا لكم» أى بإتيان ما دعوتموهم إليه «لكم» أى للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، لأنه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم، وقال تعالى: فى موضع آخر: «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم»، والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم «فاعلموا أنما أنزل» ملتبسا «بعلم الله» أى بما لا يعلمه إلا الله تعالى من نظم يعجز الخلق وإخبار بالغيوب لا سبيل لهم إليه ولا يقدر على ذلك سواه «وأن» مخففة من الثقيلة أى وأنه «لا إله إلا هو» وحده وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم «فهل أنتم مسلمون» أى ثابتون على الإسلام راسخون مخلصون فيه إن تحقق عندكم إعجازه مطلقا، وقيل: الخطاب للمشركين والضمير فى «لم يستجيبوا لمن استطعتم»، أى فإنه لم يستجب لكم من تدعوه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم

أقصر من أن تبلغه ، فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن مادعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها » أى بعلمه الذى يعمل من أعمال البر « نوف إليهم أعمالهم » التى عملوها من خير كصدقة وصلة رحم « فيها » أى الدنيا « وهم فيها لا يبخسون » أى توصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهى مايرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد ونحو ذلك «أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط » أى بطل « ما صنعوا » أى عملوا « فيها » أى الآخرة فلا ثواب له « وبطل ما كانوا يعملون» لأنه لغير الله تعالى، واختلف فى سبب نزولها ، فقال مجاهد : نزلت فى أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا يارسول الله : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء ، والرياء هو أن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح ؛ فهذا هو العمل الذى لغير الله ، وقال أكثر المفسرين : إنها نزلت فى الكافر ، وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة ، وإرادته الآخرة غالبة ، فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة ، وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها بالرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا ، وقيل: نزلت فى المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبى صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير الله يؤمنون بالآخرة وثوابها ، وقيل : فى اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس . . ولما ذكر تعالى الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه » قيل هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والبينة هى القرآن « ويتلوه » أى يتبعه « شاهد » يصدقه . « منه » أى من الله وهو جبريل عليه السلام « ومن قبله » أى القرآن « كتاب موسى » وهو التوراة شاهد له أيضاً « إماما ورحمة » أى على المنزل عليهم ، والجواب محذوف لظهوره ، والتقدير : أفمن كان على بينة من ربه كمن

يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة إلا النار ، ليس مثله ، بل بينهم تفاوت وتباين بين ؛ وقيل : هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، والمراد بالبينة هو البيان والبرهان ، والمراد بالشاهد القرآن ؛ ومنه أى من الله ، ومن قبله كتاب موسى أى فى دلالته على هذا المطلوب لا فى الوجود ، قال الرازى : وهذا القول هو الأظهر لقوله تعالى : « أولئك يؤمنون به » وهذه صفة جمع لا يجوز رجوعه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه ، وربما يكون هذا أولى كما جرى عليه بعض المفسرين ، والإشارة إلى من كان على بينة والضمير فى (به) للقرآن ، وإذا كان هذا الفريق ليس له فى الآخرة إلا النار فهذا الفريق ليس له فى الآخرة إلا الجنة « ومن يكفر به » أى بالنبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن « من الأحزاب » أى أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس « فالنار موعده » يعنى فى الآخرة ، روى سعيد بن جبير عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا كان من أهل النار ، قال أبو موسى : فقلت فى نفسى : إن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن ، فوجدت الله تعالى يقول : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » قال بعض العلماء : ولما دلت الآية على أن من كفر به فالنار موعده ، دلت أيضاً على أن من لا يكفر به كانت الجنة موعده ، قال الله تعالى : « فلا تك فى مرية » أى شك « منه » أى القرآن أو الموعد « أنه الحق من ربك » الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » أى لا يصدقون بما أوحينا إليك من القرآن أو من وعيد الكفار بالنار ، ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم :

الصفة الأولى : كونهم مفترين على الله تعالى كما قال تعالى « ومن » أى لا أحد « أظلم ممن افترى على الله كذبا » بنسبة الشريك والولد إليه ، أو بأن أسند إليه ما لم ينزله ، أو ينفى عنه ما أنزله .

الصفة الثانية : أنهم يعرضون على الله تعالى فى موقف الذل والهوان ، كما قال تعالى : « أولئك يعرضون على ربهم » أى يوم القيامة ، وهم وإن كانوا لايختصون بهذا العرض لأن العرض عام فى كل العباد كما قال تعالى « وعرضوا على ربك صفا » إلا أنهم يعرضون ليفتضحوا بشهادة الأشهاد عليهم ، كما قال تعالى « ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » فيحصل لهم من الخزى والنكال مالامزيد عليه ، وهذه هى الصفة الثالثة . واختلف فى هؤلاء الأشهاد فقال مجاهد : هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا ، وقال مقاتل : هم الناس ، كما يقال : على رؤوس الأشهاد ، أى على رؤوس الناس . وقال قوم : هم الأنبياء ، كما قال الله تعالى : فلنسألن الذين ، أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ، والفائدة فى اعتبار قول الأشهاد المبالغة فى إظهار الفضيحة فإن قيل : العرض على الله تعالى يقتضى أن يكون الله تعالى فى حيز ، وهو منزه عن ذلك ، أجيب بأنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال ، ويكون ذلك عرضاً على من يوبخ بأمر الله تعالى من الأنبياء والمؤمنين ، والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب ، أو جمع شهيد كشريف وأشراف ، قال أبو على الفارسى : وكان هذا أرجح ، لأن ما جاء فى ذلك فى التنزيل جاء على فعيل ، كقوله تعالى : وجئنا بك شهيدا . . وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يدنى المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول : أى عبدى ، تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول نعم : حتى إذا أقر بذنوبه قال تعالى : سترتها عليك فى الدنيا وقد سترتها عليك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافق فتقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . . ولما أخبر الله تعالى عن حالهم فى عقاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال بقوله تعالى : « ألا لعنة الله على الظالمين » فبين الله تعالى أنهم فى الحال ملعونون من عند الله ، وهذه هى الصفة الرابعة . . ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى : « الذين يصدون عن سبيل الله » أى دينه . . ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى : « ويبغونها » أى يطلبون السبيل إليها « عوجا » أى معوجة أى كأنهم ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال ، فقد أضافوا اليه المنع من

الدين الحق وإلحاق الشبهات وتعويج الدلالات المستقيمة، لأنه لا يقال في العامي: إنه يبغي عوجا، وإنما يقال ذلك في من يعرف كيف الاستقامة وكيف يكون العوج بسبب إلقاء الشبهات وتقرير الضلالات .. ثم وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى «وهم» أي والحال أنهم «بالآخرة هم كافرون» وتكرير لفظ (هم) لتأكيد كفرهم وتماديهم فيه .. الصفة الثامنة: كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله تعالى كما قال تعالى «أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض» أي ما كانوا معجزين الله تعالى في الدنيا أن يعاقبهم أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه، فإن هرب العبد من عذاب الله تعالى محال؛ لأنه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف .. والصفة التاسعة أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى: «وما كان لهم من دون الله» أي غيره «من أولياء» أي أنصار يمنعونهم من عذابه. والصفة العاشرة مضاعفة العذاب لهم كما قال تعالى «يضاعف لهم العذاب» أي بسبب إضلالهم غيرهم، وقيل: لأنهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور .. الصفة الحادية عشرة قوله تعالى «ما كانوا يستطيعون السمع» قال قتادة: صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به «وما كانوا يبصرون» خيراً فيأخذون به، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعة الله في الدنيا بقوله تعالى «ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون» .. الصفه الثانية عشرة قوله تعالى «أولئك الذين خسروا أنفسهم» فإنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم، وذلك أعظم وجوه الخسران .. الصفة الثالثة عشرة: قوله تعالى «وضل» أي غاب «عنهم ما كانوا يفترون» على الله تعالى، من دعوى الشريك وأن الآلهة تشفع لهم .. الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى: «لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون» أي لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم، قال الفراء: (لا جرم) بمنزلة قولنا «لا بد ولا محالة» ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى «حقا». وقال الزجاج: كلمة «لا» نفي لما ظنوا أنه ينفعهم و«جرم» معناه كسب ذلك

الفعل، ومعناه لاينفعهم ذلك وهو كسب ذلك الفعل ، لأن لهم الخسران فى الدنيا والآخرة ، قال الزهرى : وهذا من أحسن ماقيل فى هذا الباب ، وقال سيبويه « لا » رد على أهل الكفر كما مر ، و « جرم » معناه أحق ، والمعنى: إنه حق، كفرهم ووقوع العذاب والخسران بهم ، ولما ذكر تعالى عقوبة الكافرين وخسرانهم أتبع ذلك بذكر أحوال المؤمنين فى الدنيا وربحهم فى الآخرة بقوله تعالى: « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم » أى اطمأنوا اليه وخشعوا إليه ؛ إذ الإخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بالألف واللام ، فإذا قلت (أخبت له) فمعناه خشع وخضع له ، فقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » إشارة إلى جميع عمل الجوارح ، وقوله تعالى « وأخبتوا » إشارة إلى أعمال القلوب وهى الخشوع والخضوع لله تعالى ، وأن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع فى الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهى الخشوع والخضوع « أولئك » أى الذين هذه صفتهم « أصحاب الجنة هم فيها خالدون » فأخبر الله تعالى عن حالهم فى الآخرة بأنهم من أهل الجنة التى لا انقطاع لنعيمها ولا زوال .

هذا هو الربع الثانى من سورة هود ، وقد تضمن هذا الربع ما تضمن من أصول :

١ - وفى مقدمة ما تضمنه هذا الجزء إثبات فضل الله عز وجل على البشر كافة ، بتقرير أنه وهبهم الرزق ، وأعانهم على شئون الحياة . . وإثبات علمه الواسع ، وقدرته الباهرة .

٢ - النعى على المشركين الذين لاشك أنهم عرفوا قدرة الله القادرة ، ثم أنكروا البعث وهزئوا به ، وقالوا : « إن هذا إلا سحر مبين » ويتهكم الله عز وجل بالمشركين فيقول : إنهم كانوا يستعجلون العذاب فى الدنيا ، فليذوقوا العذاب فى الآخرة يوم يأتيهم لا يصرف عنهم ، وأحاط بهم، ونزل بهم، ما كانوا به يستهزئون .

٣ — بيان طبيعة الإنسان والنفس الإنسانية التى تفزع لذهاب النعم، وتكفر إن نزلت بالإنسان حسنة مكان السيئة، وبيان أنه لا يخرج على هذه الطبيعة إلا المؤمنون حقا الذين جاهدوا أنفسهم وجاهدوا شهواتهم وأهواءهم وصبروا وعملوا الصالحات، ممن كتب الله لهم المغفرة والرحمة والخير والأجر الكبير.

٤ — تحدى العرب والمشركين بالقرآن الكريم، لا به كله، بل ببعضه وأن يأتوا بعشر سور مثله، عما يزعمون أن محمدا افتراه واختلقه، محمد بشر، وهم بشر مثله، وإذا كان محمد قادرا على اختلاق القرآن فهم بشر مثله، وهم باجتماعهم أقدر على ما لا يقدر عليه محمد وحده، وإذا كانوا عاجزين عن قبول هذا التحدى ثبت أن القرآن كتاب الله، وأنه منزل على محمد عليه الصلاة والسلام برسالة من السماء، ووجب إسلامهم بهذه الرسالة الجليلة. إن الذين لا يؤمنون بها، ويريدون الحياة الدنيا وزينتها وباطلها وحده، لهم فى الدنيا ما يريدون، أما الآخرة فليس لهم فيها إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وبطل ما كانوا يعملون، إن الكافرين برسالة محمد وبالقرآن شأنهم عجيب غريب، إنهم يكفرون برسالة الله، وبمحمد وهو على بينة من الله، ومعجزات الله معه، ومن قبله كتاب موسى، ومن يكفر به فالنار موعده، لأنه الحق من الله، وأكثر الناس لا يؤمنون. أما المؤمنون فهم الذين كانوا مع الحق، وكانوا من خدام هذه الرسالة العالية، وأولئك هم أصحاب الجنة، وهم فيها خالدون.. إن محمدا لو افترى على الله شيئا لكان كاذبا، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب، وقد وصف الله عز وجل هؤلاء الكاذبين بصفات كثيرة، تبين ضلالهم وإضلالهم واستحقاقهم للعذاب الذى يصب على رؤوسهم يوم القيامة، ولا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا وأنابوا إلى الله فأولئك أصحاب الجنة وهم فيها خالدون... وخلاصة ذلك كله هى الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم لينجو المؤمن به من عذاب الدنيا والآخرة.

الربع الثالث من سورة هود

٢٤ — مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

هذه الآية الكريمة صورة حقيقية واضحة للكافرين والمؤمنين ، للكافرين برسالة محمد وبالقرآن الكريم وللمؤمنين بها ، وقد مثل الله عز وجل للكافرين بها بالأعمى والأصم ، والمؤمنين بها بالبصير والسميع .. وما أروعه من مثل ، وما أعجبه من تصوير ، وما أبدعه من وصف .. المؤمن كالإنسان الذى يرى ويسمع والكافر كالأعمى والأصم ؛ الأول إنسان له منزلته فى الحياة الإنسانية ، والثانى إنسان فقد متعة الحياة وبهجتها وفقد القدرة على العمل فيها ، الأول إنسان يسعى إلى هدف ورسالة ، والثانى لا هدف ولا رسالة له .

ولما ذكر الله تعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه وذلك أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ـ ذكر فى هذه الآية مثالا مطابقا بقوله تعالى «مثل» أى صفة «الفريقين» أى الكفار والمؤمنين «كالأعمى والأصم» هذا مثل الكافر شبه بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتعاميه عن استماع كلام الله تعالى ، أو شبه بالأعمى لفقده أسباب النظر إلى الأشياء واستخراج الدليل منها على قدرة الله ووجوده ، وشبه بالأصم لأنه فقد قوة السمع التى توصل إليه الخير دائما «والبصير والسميع» هذا مثل المؤمن ، شبه بالبصير والسميع لأن أمره بالضد من الكافر ، فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين ، «هل يستويان» أى هل يستوى الفريقان «مثلا» أى تشبيها ، أى لا يستويان «أفلا تذكرون» أى تتعظون بضرب الأمثال والتأمل فيها .. وقد جرت عادة الله بأنه إذا أورد على الكفار أنواع الدلائل أتبعها بالقصص ليكون ذكرها مؤكداً لتلك الدلائل ، وفى هذه السورة ذكر لقصص كثيرة من قصص العصاة ، والقصة الأولى منها هى قصة نوح عليه السلام .

٢٥ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

٢٦ — أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

٢٧ — فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ .

٢٨ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ؟ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ؟

٢٩ — وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ، وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ ، وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

٣٠ — وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟

٣١ — وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ، ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٣٢ — قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

٣٣ — قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

٣٤ — وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

٣٥ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ .

٣٦ — وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

٣٧ — وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ .

٣٨ — وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ .

٣٩ — فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

٤٠ — حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ، وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ .

هذه الآيات الكريمة الست عشرة تصور قصة نوح عليه السلام مع قومه، دعوته إياهم إلى الإيمان برسالته، وسخريتهم منه لأنه بشر مثلهم، ولأن أتباعه من فقراء الناس، وتماديهم فى العناد والمقاومة والكفر، وطلبهم من نوح أن ينزل بهم العذاب الذى يعدهم به إن كان من الصادقين، وتعليم الله إياه صناعة السفن، وصناعته لسفينة يركبها وينجو بها من الطوفان هو ومن آمن به؛ وسخرية قومه منه وهو يصنع السفينة، فلما أتم صنعها، وبدأ الطوفان بدايته الأولى بأن فارت عين من عيون الماء من جوف الأرض أو من جوف تنور، ليكون فورانها آية أخرى لنوح، ودليلا على أن الله قادر أن يفجر الماء من بين اللهب، حمل نوح من كل زوجين فى الأرض اثنين، ليتوالدوا ولتنمو الحياة مرة أخرى، وحمل معه المؤمنين من أهله وقومه، وما آمن معه بالله إلا قليل.

وفى الكتاب المقدس ذكر لقصة نوح، الشر كثر فى الأرض، الله أنذر بمحو الإنسان من على ظهرها، نوح كان رجلا صالحا، وسار نوح مع الله، وولد ثلاثة بنين: ساما وحاما ويافث، وفسدت الأرض أمام الله، وامتلأت ظلما، ورأى الله الأرض فإذا هى قد فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض، وصنع نوح الفلك، ودخل الفلك هو وامرأته وبنوه ونساء بنيه معه، ومعه من كل حى ذى جسد اثنان: ذكر وأنثى[1] وكان الطوفان ونوح عمره ستمائة سنة، فانفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة. تكاثرت المياه، ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض، وسار على وجه المياه وكثرت المياه، فغطت جميع الجبال الشامخة، وهلك الناس إلا نوحا ومن معه فى السفينة، وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوما[2]، ثم هدأت

(١) الإصحاح السادس من سفر التكوين.
(٢) الإصحاح السابع من سفر التكوين.

المياه ؛ وانسدت ينابيع الغمر ، وطاقات السماء ، بعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه ، واستقر الفلك على جبال أراراط[١] . وفى السنة الواحدة والستمائة من عمر نوح جفت المياه ، وخرج نوح هو ومن معه من الفلك[٢] وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم : أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض . وابتدأ نوح يكون فلاحا ، وغرس كرما ، وعاش نوح بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين عاما ، فكانت كل أيامه تسعمائة وخمسين عاما ومات[٣] .. هذه هى قصة نوح كما وردت فى الكتاب المقدس ، ولم يرد فيه بعض التفاصيل التى وردت فى القرآن الكريم . . قال الله عز وجل : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه أنى لكم » قرىء بفتح الهمزة أى بأنى ، وبكسرها على إرادة القول « نذير مبين » أى بين النذارة « أن لا تعبدوا إلا الله » بدل من (إنى لكم) أو مفعول (مبين) « إنى أخاف عليكم » أى إن عبدتم غيره « عذاب يوم أليم » أى مؤلم موجع فى الدنيا والآخرة ، قال ابن عباس : بعث نوح بعد أربعين سنة ، ولبث يدعو قومه تسعمائة سنة وخمسين سنة ، وقال مقاتل : بعث وهو ابن مائة سنة ، وقيل : وهو ابن خمسين سنة ، وقيل : وهو ابن مائتين وخمسين سنة ، ومكث يدعو قومه ثلاثمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة . . وحكى تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى ، وأنهم طعنوا فى نبوته بأنواع من الشبهات « فقال الملأ الذين كفروا من قومه » وهم الأشراف « ما نراك إلا بشرا مثلنا » هذه هى الشبهة الأولى أى إنك بشر مثلنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة ، وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم ، لأن الله تعالى إذا اصطفى عبداً من عباده وأكرمه بنبوته ورسالته وجب على من أرسله إليهم اتباعه .... الشبهة الثانية ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا »

---

(١) هى جبال (أرارات) فى أرمينيا ، ومنذ حين قرأنا أن بعثة أمريكية ذهبت لكشف سفينة نوح على هذا الجبل .

(٢) الإصحاح الثامن من سفر التكوين — ص ١٤ الكتاب المقدس .

(٣) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

أى أسافلنا من الفقراء وعامة الناس ، وهو جمع أرذل بفتح الهمزة أو جمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها ، ثم قالوا : ولو كنت صادقا لاتبعك الأكابر من الناس والأشراف منهم ، وإنما قالوا ذلك جهلا منهم أيضاً ؛ لأن الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية « بادى الرأى » أى اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ، ولو تفكروا ما اتبعوك ، ونصبه على الظرف أى وقت حدوث أول رأيهم .. الشبهة الثالثة ما ذكرها الله تعالى عنهم فى قوله تعالى : « وما نرى لكم علينا » أى لك ولمن اتبعك علينا « من فضل بل نظنكم كاذبين » فأنتم دوننا فى المال والشرف والجاه ، فكيف تستحقون الاتباع منا ؟ وهذا أيضا جهل منهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرئاسة ، وأدرجوا قومه معه فى الخطاب وقيل : خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، وقيل : كذبوه فى دعوى النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين ، ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام « قال » لهم « يا قوم أرأيتم » أى أخبرونى « إن كنت على بينة » أى نبوة ورسالة « من ربى وآتانى رحمة » أى نبوة ورسالة « من عنده » أى من فضله وإحسانه « فعميت » أى خفيت وألبست « عليكم » أتى بالضمير للواحد ، إما لأن البينة فى نفسها هى الرحمة وإما لأن كل واحدة منها مقصودة « أنلزمكموها » أى أنكرهكم على قبولها « وأنتم لها كارهون » لا تختارونها ولا تتأملون فيها ، أى لا نقدر على ذلك « ويا قوم لا أسألكم عليه » أى على تبليغ الرسالة وهو وإن لم يذكر معلوم مما ذكر « مالا » أى جعلا تعطونى إياه « إن » أى ما « أجرى إلا على الله » أى ما ثواب تبليغى فإن المأمول منه « وما أنا بطارد الذين آمنوا » طلبوا من نوح عليه الصلاة والسلام أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون فى زعمهم فقال: ما يجوز لى ذلك « إنهم ملاقوا ربهم » أى بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم من ظلمهم وطردهم ، أو أنهم ملاقوه ويفوزون بقربه فكيف يكون لى طردهم « ولكنى أراكم قوما تجهلون » أى إن هؤلاء المؤمنين خير منكم

أو عاقبة أمرهم خير من عاقبة أمركم ، « ويا قوم من ينصرنى ، أى يمنعنى « من الله » أى عقابه « إن طردتهم » عنى وهم مؤمنون مخلصون « أفلا » فهلا « تذكرون » أى تتعظون « ولا أقول لكم عندى خزائن الله » أى خزائن رزقه ، فكما أنى لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعى أنى أملك مالا ولا لى غرض فى المال « ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك » فأتعاظم به عليكم حتى تقولوا : ما أنت إلا بشر مثلنا بل طريقتى التواضع والخضوع ، ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فإنه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين « ولا أقول للذين تزدرى » أى تحتقر « أعينكم » أى لا أقول فى حقهم « لن يؤتيهم الله خيراً » فإن ما أعد الله تعالى لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا « الله أعلم بما فى أنفسهم » وهذا كالدلالة على أنهم كانوا يسبون أتباعه « إنى إذاً » أى إن فعلت ذلك « لمن الظالمين » لنفسى ومن الظالمين لهم . وأى ظلم أكبر من ذلك ؟ ممن يطرد المؤمنين من مجلسه ويحتقرهم . . طعنوا فى أتباعه بالفقر ، فقال : ولا أقول لكم عندى خزائن الله حتى أجعلهم أغنياء ، وطعنوا فيهم أيضاً بأنهم منافقون ، فقال : ولا أعلم الغيب حتى أعرف ما فى باطنهم ، أى إنما تكليفى بظاهر الأحوال ، وطعنوا فيه أنه من البشر فقال : ولا أقول إنى ملك حتى تنفوا عنى ذلك ، وحينئذ فالآية ليس فيها دليل على تفضيل الملائكة على البشر ، فإن قيل : فى هذه الآية دلالة على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصى ، فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى فى قوله : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » والجواب أن الطرد المذكور فى هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأبيد ، والطرد المذكور فى واقعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد فى أوقات معينة رعاية للمصلحة . . « قالوا يا نوح قد جادلتنا » أى خاصمتنا « فأكثرت جدالنا » فأطنبت فيه وهذا ، يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أكثر فى الجدال معهم ، وذلك التجدد ما كان إلا فى إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وهذا يدل

على أن الجدال فى تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعلى أن التقليد والجهل حرفة الكفار ، «فأتنا بما تعدنا» من العذاب «إن كنت من الصادقين» فى الدعوة والوعيد ، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا «قال» لهم نوح عليه السلام فى جواب ذلك: «إنما يأتيكم به الله إن شاء» تعجيله لكم، فإن أمره إليه إن شاء عجله وإن شاء أخره «وما أنتم بمعجزين» أى بفائتين الله تعالى ، «ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم» أى يضلكم، وجواب الشرط دل عليه قوله «ولا ينفعكم نصحى» ، وتقدير الكلام: إن الله تعالى يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم ، فلا ينفعكم نصحى.. «هو ربكم» أى خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته «وإليه ترجعون» فيجازيكم على أعمالكم ، قال الله تعالى «أم» أى بل «يقولون افتراه» أى اختلقه وجاء به من عند نفسه ، والهاء ترجع إلى الوحى الذى بلغه اليهم «قل» لهم «إن افتريته فعلى إجرامى» ، المعنى : إن كنت افتريته فعلى عقاب جرمى ، وإن كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب ، إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها «وأنا برىء مما تجرمون» أى من عقاب جرمكم ، وأكثر المفسرين على هذا من بقية قول نوح عليه السلام مع قومه ، وقال مقاتل : أم يقولون ـ أى المشركون من كفار مكة افتراه ، أى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء هذا الكلام فى أثناء قصة نوح عليه السلام واستبعد الرازى ذلك.. «وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك» أى لن يستمر على الإيمان لقوله تعالى : «إلا من قد آمن» قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن قوم نوح عليه الصلاة والسلام كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون أنه قدمات ، فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم إلى الله تعالى ، «فلا تبتئس» أى لا تحزن عليهم فإنى مهلكهم «بما كانوا يفعلون» من الشرك وتنقذك منهم ، فحينئذ دعا عليهم نوح عليه والسلام ، فقال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، وحكى محمد بن اسحاق عن عبيد بن عمير الليثى أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، حتى تمادوا

فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء جيلا بعد جيل فما يأتى فى قرن إلا كان أنجس من الذين قبلهم ، ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم ، فيقول : قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا ، فلا يقبلون منه شيئا ، فشكا إلى الله تعالى وقال : « رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم » إلى قوله تعالى « ديارا » وأوحى الله تعالى إليه « واصنع الفلك » أى السفينة « بأعيننا » قال ابن عباس : برأى منا ، وقال مقاتل : بعلمنا ، وقيل : بحفظنا « ووحينا » أى بأمرنا لك كيف تصنعها « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا » أى ولا تراجعنى فى الكفار ولا تدعنى فى استدفاع العذاب عنهم «إنهم مغرقون» أى محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه عنهم ، وقيل : لا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك ، فإنهما هالكان ، وروى أن جبريل عليه السلام أتى نوحا فقال له : إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك ، قال : كيف أصنع ولست بنجار ؟ فقال : إن ربك يقول : اصنع فإنك بأعيننا ، فأخذ القدوم فجعل يصنع ولا يخطىء وضعها « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ » أى جماعة «من قومه سخروا منه» أى استهزؤا به ويقولون : يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة ، فأعقم الله تعالى أرحام نسائهم فلا يولد لهم ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : اتخذ نوح عليه الصلاة والسلام السفينة فى سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وكان من خشب الساج ، وجعل لها ثلاثة بطون : فجعل فى البطن الأول الوحوش والهوام ، وفى البطن الثانى الدواب ، وركب هو ومن معه البطن الأعلى مع مايحتاج إليه من الزاد .

قال الرازى : واعلم أن هذه الأمثال مباحث لا تعجبنى لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة ، والخوض فيها من باب الفضول مع القطع بأنه ليس هاهنا مايدل على الجانب الصحيح ، والذى نعلمه أنها كانت فى السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه ومايحتاجون إليه ، وتسع زوجين من كل حيوان ؛ لأن هذا القدر مذكور فى القرآن ، وما آمن معه إلا قليل ، ، فأما تعيين ذلك القدر فغير معلوم « قال » لهم لما سخروا منه « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » إذا نجونا وغرقتم وقوله « نسخر » على سبيل

الازدواج فى مشاكلة الكلام كما فى قوله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثلها» ، والمعنى: إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم ، وقوله تعالى «فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه» أى يهينه فى الدنيا وهو الغرق «ويحل عليه» فى الآخرة «عذاب مقيم» ، وهو النار التى لا انقطاع لها ، وقوله تعالى «حتى إذا جاء أمرنا» أى بإهلاكهم . وهو غاية لقوله تعالى «ويصنع الفلك» .. واختلف فى التنور فى قوله تعالى «وفار التنور»: فقال عكرمة والزهرى هو وجه الأرض ، وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام : إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة ، وروى عن على رضى الله عنه قال : فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح ، وقال الحسن ومجاهد والشعبى : إنه التنور الذى يخبز فيه ، وهو قول أكثر المفسرين ، فوجب حمل اللفظ عليه ، وهؤلاء اختلفوا ، فمنهم من قال : إنه تنور لنوح ، ومنهم من قال : إنه كان لغيره وأنه كان من حجارة ، قيل لنوح عليه السلام : إذا رأيت الماء يفور فاركب أنت وأصحابك ، واختلفوا أيضا فى موضعه ، فقال مجاهد والشعبى : كان فى ناحية الكوفة ، وكان الشعبى يحلف بالله : ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة ، وقال: اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان فوران الماء منه علما لنوح ، وقال مقاتل : كان بالشام . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان بالهند ، ومعنى «فار» نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ، ولا شبهة أن التنور لا يفور ، فالمراد فار الماء من التنور ، فلما فار أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء :

الأول : قوله تعالى «قلنا احمل فيها» أى السفينة «من كل زوجين اثنين» والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى ، والتقدير: من كل شيئين هنا فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر وواحد أنثى ،والفائدة فى قوله تعالى : زوجين اثنين ، والزوجان لا يكونان إلا اثنين ـ أن هذا على مثال قوله تعالى «لا تتخذوا إلهين اثنين» ، وقوله تعالى «نفخة واحدة» .

النوع الثانى من الأشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحملها فى السفينة قوله تعالى: «وأهلك» وهم أبناؤه وزوجته ، وقوله تعالى: «إلا من سبق عليه القول» بأنه من المغرقين وهو ابنه كنعان وأمه راعلة ، وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك ، بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ؛ وبخلاف زوجته المسلمة ، فإن قيل : الإنسان أشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوان؟ أجيب بأن الإنسان عاقل بعقله مضطر إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه ، فلا حاجة فيه إلى المبالغة فى الترغيب ، بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات ، فلهذا السبب وقع الابتداء به .

النوع الثالث من الأشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى : «ومن آمن» أى واحمل معك من آمن من قومك واختلف فى العدد الذى ذكره الله تعالى فى قوله تعالى «وما آمن معه إلا قليل» فقال قتادة وابن جرير : لم يكن معه فى السفينة إلا ثمانية نفر : نوح وامرأته المسلمة وثلاث بنين له : وهم سام وحام ويافث ونساؤهم ، وقال ابن إسحاق : كانوا عشرة سوى نسائهم : نوح وبنوه الثلاثة وستة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم ، وقال مجاهد : كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة . والصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله تعالى: وما آمن معه إلا قليل؛ فوصفهم الله تعالى بالقلة فلم يحدد عددا بمقدار، فلا ينبغى أن يجاوز فى ذلك حد الله تعالى : إذ لم يرد عدد فى كتاب الله ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا منقول عن الطبرى وتقدم نحو ذلك عن الرازى ، وقال مقاتل : حمل نوح معه فى السفينة جسد آدم عليه السلام .

* * *

هذا هو الربع الثالث من سورة هود ، وقد تضمن ذكر مثل بليغ للكافرين والمؤمنين ، فمثلهم الله عز وجل بالأعمى الأصم ، وبالبصير السميع ، وهو مثل كريم له دلالته ، وله مغزاه .

ثم ذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وغضب الله عليهم ،

وإنذاره لهم بعذاب شديد ، وهداية نوح لصنع السفينة ، ونزول الطوفان بالأرض ، وركوب نوح ومن آمن معه ، وزوجين زوجين من كل ما على الأرض من حيوانات . . . ليعمر الله عز وجل بهم الأرض من جديد بعد الطوفان .

الربع الرابع من سورة هود

٤١ — وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٤٢ — وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

٤٣ — قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ .

٤٤ — وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٤٥ — وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ .

٤٦ — قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ .

٤٧ — قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ .

٤٨ — قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٤٩ — تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

هذه الآيات الكريمة التسع هي تتمة قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وفيها يذكر الله عز وجل ركوب نوح السفينة ، وسيرها في أمواج كالجبال ، وعصيان ابن نوح لأبيه فلم يركب معه السفينة فكان من المغرقين ، ثم يذكر انقطاع الطوفان وجفاف الأرض ، وهبوط السفينة على الجودى ، وهو جبال أراراط كما في الكتاب المقدس ، ويذكر كذلك كلام نوح مع الله في أمر ابنه . . ثم يذكر سلام الله وبركاته التي حفت بنوح ومن معه ، وفي ختام القصة يتهدد الله عز وجل الكافرين العصاة الذين كفروا برسالات الله بالعذاب الأليم . . ويذكر الله عز وجل وجه الإعجاز في ذكر قصص الأنبياء السابقين وفي ذكر صنيع أممهم معهم ، فلم يكن محمد ولا قومه يعلمون شيئا من ذلك ، ولكن الله عز وجل هو الذي أوحى إلى محمد ذلك ليكون فيه عظة وعبرة للمشركين ، وطالب الله عز وجل رسوله الكريم بالصبر ، فالعاقبة للمتقين . . دائما . . قال الله عز وجل في هذه الآيات الكريمة : « وقال » نوح لمن معه « اركبوا فيها » أي في السفينة « بسم الله مجراها ومرساها »

متصل باركبوا ، حال من الواو فى اركبوا أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها ، قال الضحاك : كان نوح إذا أراد أن تجرى السفينة قال: بسم الله جرت، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم وست،قرىء بفتح الميم من جرت ورست أى جريها ورسوها ، وهما مصدران وقرىء بضم الميم من أجريت وأرسيت أى بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، وتقدير الكلام : اركبوا بسم الله أو ابدأوا بسم الله، أوالتقدير: بسم الله إجراؤها « إن ربى لغفور رحيم » أى لولا مغفرته لكم ورحمته بكم لما نجاكم ، وقوله تعالى : « وهى تجرى بهم » متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا ، أى فركبوا مسمين الله تعالى وهى تجرى وهم فيها « فى موج » وهو ما ارتفع من الماء إذا اشتد عليه الريح « كالجبال » فى عظمه وارتفاعه عن الماء ، قال العلماء : أرسل الله تعالى المطر أربعين يوماً وليلة وخرج الماء من الأرض، فذلك قوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » وارتفع الماء على أعلى جبل حتى غرق كل شىء « ونادى نوح ابنه » كنعان وكان كافرا « وكان فى معزل » عزل فيه نفسه إما عن أبيه أودينه ولم يركب معه ،وإما عن السفينة ، وإما عن الكفار كأنه انفرد عنهم . « يابنى اركب معنا » فى السفينة « ولا تكن مع الكافرين » أى فتهلك ، ولما قال له ذلك : « قال سآوى » أى ألتجى وأصير « إلى جبل يعصمنى » أى يمنعنى « من الماء ، قال » له نوح عليه السلام « لا عاصم » أى لا مانع « اليوم من أمر الله » أى من عذابه « إلا من رحم » استثناء منقطع كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم ، كقوله تعالى : « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وقيل : من رحم فى أى إلا الراحم وهو الله تعالى، وقيل : إلا مكان من رحمه الله فإنه مانع من ذلك وهو السفينة « وحال بينهما » أى بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل « الموج » المذكور فى قوله : « موج كالجبال » .. « فكان » ابنه « من المغرقين » أى فصار من المهلكين بالماء « و » لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح « قيل » أى قال الله تعالى ، أو ملك بأمره تعالى « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » أى

أمسكي ماءك ، ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ، ثم أمرهما بما يأمر به أهل التميز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما « وغيض الماء » أى نقص وذهب « وقضى الأمر » أى وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ، أى استقرت السفينة « واستوت على الجودى » قيل : هو جبل بالجزيرة قريب من الموصل ، وفى الكتاب المقدس أنه جبل أراراط ، وهو جبل أرارات ، أحد الجبال بارمينيه « وقيل » أى قال الله تعالى أو ملك بأمره « بعداً » أى هلاكا « للقوم الظالمين » ومجيء الفعل مبنياً للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء . وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ويكون مكوناً قاهراً ، وأن فاعلها واحد لا يشارك فى أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » ، ولا إلى أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا إلى أن تستوى على متن الجودى وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ، وروى أن نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت العتيق ، وقد عصمه الله تعالى من الغرق فطافت به السفينة سبعا وأودع الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس ، وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح ، وأمر من معه بصيامه شكراً لله تعالى ، وبنوا قرية بقرب الجبل فهى أول قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان ، ولم ينج أحد من الكفار من الغرق « ونادى نوح ربه » أى دعاه وسأله « فقال رب إن ابنى من أهلى » ، وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى « وإن وعدك الحق » أى الصدق الذى لا خلف فيه « وأنت أحكم الحاكمين » لأنك أعلمهم وأعدلهم ، والفاء فى قوله تعالى : « فقال » تفصيل للإجمال فى « نادى » مثلها فى « توضأ فغسل » ، وقيل : نادى أى أراد نداءه فقال رب : « قال » الله تعالى له « يا نوح إنه » أى هذا الإبن الذى سألت نجاته « ليس من أهلك » أى المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره ، ولهذا علل بقوله تعالى : « إنه عمل غير صالح » قرأ الكسائى بكسر

الميم ونصب اللام بغير تنوين ، أى عمل الكفر والتكذيب ، وكل هذا غير صالح ، وقرأ الباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ، أى ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح ، لجعل ذات العمل للمبالغة واختلف : هل كان ذلك الوالد ابن نوح أولا ؟ على أقوال :

الأول : وهو قول ابن عباس : وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون ، أنه ابنه حقيقة ، ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال : « ونادى نوح ابنه » ، وأيضاً نص عليه فقال : « يا بنى » وصرف هذا اللفظ إلى أنه رباه وأطلق عليه هذا الاسم ، لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة .

القول الثانى : أنه كان ابن امرأته ، وهو قول محمد بن على الباقر ، وقول الحسن البصرى .

وقال مجاهد والحسن هو ولد نسب إليه ولم يعلم نوح بذلك ، واحتج هذا القائل بقوله تعالى : فى امرأة نوح « وامرأة لوط فخانتاهما » ، قال الرازى : وهذا قول يجب صون منصب الأنبياء عنه لا سيما وهو خلاف نص القرآن ، وقد قيل لابن عباس : ماكانت تلك الخيانة ؟ فقال : كانت امرأة نوح تقول: زوجى مجنون ، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذ نزل به .

« فلا تسألنى ماليس لك به علم » أى بما لا تعلم أصواب هو أم لا ؟ لأن اللائق بأمثالك من أولى القرى بناء أمورهم على التحقيق « إنى أعظك » أى بمواعظى كراهة « أن تكون من الجاهلين » فتسأل مثل مايسألونى وإنما سمى نداؤه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازه فى شأن ولده ، « قال » نوح « رب إنى أعوذ بك أن » أى من أن « أسألك » فى شىء من الأشياء « ماليس لى به علم » تأدبا بأدبك واتعاظا بوعظك « وإلا تغفر لى » أى الآن مافرط منى وفى المستقبل مايقع منى « وترحمنى » أى تستر زلاتى وتمحوها وتكرمنى « أكن من الخاسرين » أى العريقين فى الخسارة ، وهذا يدل على عدم عصمة الأنبياء

لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام ، والجواب أن الزلة الصادرة من نوح إنما هى كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره ، لأن قومه كانوا على ثلاثة أقسام : كافر يظهر كفره، ومؤمن يخفى إيمانه، ومنافق لا يعلم حاله فى نفس الأمر، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلوما . وأما أهل النفاق فبقى أمرهم مخفيا، وكان ابن نوح منهم، وكان يجوز فيه كونه مؤمنا، وكان نوح بحكم الشفقة التى تكون للأب فى حق الإبن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا ، بل هو على الوجوه الصحيحة فما أخطأ فى ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام فى الأكل من الشجرة فلم يصدر عنه إلا الخطأ فى الاجتهاد ، فلم تصدر منه معصية ، فلجأ إلى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة ، كما قال آدم عليه السلام : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين « قيل » أى قال الله تعالى أو ملك بأمره « يانوح اهبط » أى انزل من السفينة أو من الجبل إلى الأرض المستوية « بسلام » أى بعظم وأمن وسلامة « منا » وذلك أن الغرق لما كان عاما فى جميع الأرض فعند ماخرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس فى الأرض شىء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالخائف فى أنه كيف يدفع إلحاح عديد الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لأن ذلك يدل على حصول السلامة ، ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم أنه تعالى لما وعدهما بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة بقوله تعالى : «وبركات عليك» وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ، لأن الله تعالى صير نوحا أبا البشر، لأن جميع من بقى كانوا من نسله، إذ أن نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته ، فالخلق كلهم من نسله ، أو أنه لم يكن معه فى السفينة إلا من كان من نسله وذريته ، وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ، ويدل على ذلك قوله تعالى: « وجعلنا ذريته هم الباقين» فثبت أن نوحا كان آدم الأصغر، فكان أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان

كلهم منه وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد، وقوله تعالى: «وعلى أمم ممن معك» يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه فى السفينة لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم «أمم»، لأن منهم الأمم إلى آخر الدهر، قال فى الكشاف وهو الوجه، وقوله تعالى «وأمم» بالرفع على الابتداء وقوله تعالى: «سنمتعهم» أى فى الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم، وإنما حذف لأن قوله «ممن معك» يدل عليه، والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشأون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون فى الدنيا «ثم يمسهم منا عذاب أليم» فى الآخرة وهم الكفار، وعن محمد بن كعب القرظى: دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر، وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح وشعيب ولوط.

ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام، وذكرها على وجه التفصيل قال تعالى «تلك» أى قصة نوح التى شرحناها «من أنباء الغيب» أى من الأخبار التى كانت غائبة عن الخلق، وقوله تعالى: «نوحيها إليك» أى موحاة إليك «ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» أى قبل نزول القرآن، خبر آخر والمعنى: إن هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل إيحائنا إليك، وقصة طوفان نوح ـ وإن كانت مشهورة عند أهل العلم والكتاب ـ فإن ذلك كان بحسب الإجمال، وأما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة، أو بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها، وكذلك كانت أمته؛ ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «فاصبر» أى أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار «إن العاقبة للمتقين» أى للذين اتقوا الشرك والمعاصى، وفى هذا تنبيه على أن عاقبته النصر والفرح والسرور كما كان لنوح ولقومه، وهذه القصة ذكرت فى يونس، والحكمة والفائدة فى إعادتها أن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه: فنى السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب، فذكر تعالى قصة نوح فى بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم ظهر فى العاقبة، فكذلك فى

شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى هذه السورة ذكرت لأجل أن الكفار كانوا يبالغون فى إيذاء الرسول ، فذكرها الله تعالى لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء كان حاصلا فى زمن نوح عليه السلام فلما صبر فاز ، فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ، أو أن قصة نوح ذكرت فى يونس مجملة ، وهنا ذكرت مفصلة .. وقدسبق ذكر قصة نوح كذلك فى سورة الأعراف (آية ٥٩ — ٦٤).

ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة . . هذه هى القصة الأولى التى ذكرها القرآن الكريم فى سورة هود ، أما القصة الثانية فهى قصة هود عليه السلام .

٥٠ — وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ .

٥١ — يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

٥٢ — وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ .

٥٣ — قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ .

٥٤ — إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .

٥٥ — مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ .

٥٦ — إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

٥٧ — فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ .

٥٨ — وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

٥٩ — وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

٦٠ — وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ .

هذه الآيات الإحدى عشرة آية هى فى قصة هود عليه السلام مع قومه ، وقد ذكرت بعضها فى سور سابقة كسورة الأعراف (آية ٦٥ — ٧٢)

وهنا نجد صورة مفصلة لدعوة هود ، وموقف قومه منه . وكان هود من قبيلة عاد ، وكانت إحدى قبائل العرب بناحية اليمن ، قال الله عز وجل : «وإلى عاد» أى أرسلنا إليهم «أخاهم هودا» أى نبيا ورسولا ، وهذه الأخوة كانت أخوة فى النسب لا فى الدين ، إذ لم تحصل قرابة الدين ، وإثبات هذه الأخوة مع الاختلاف فى الدين ؛ لأن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا من عند الله مع أنه واحد من قبيلتهم ، فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وأن صالحا كان واحدا من ثمود لإزالة هذا الاستبعاد ، ولما تقدم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع إلى

معرفة ماقاله هود عليه السلام هل هو مثل قول نوح المذكور أولا ، فاستأنف الجواب بقوله، قال يا قوم اعبدوا الله ، أى وحدوه ولاتشركوا معه شيئا فى العبادة ،مالكم من إله غيره ، أى هو إلهكم، لأن هذه الأصنام التى تعبدونها ما هى إلا حجارة لا تضر ولا تنفع ، فان قيل : كيف دعاهم إلى الله قبل إقامة الدليل على ثبوت الإله ؟ أجيب بأن دلائل وجوده تعالى ظاهرة ، وهى دلائل الآفاق والأنفس. وقلما يوجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله ، ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار: « ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله » . « إن أنتم إلا مفترون » أى كاذبون فى عبادتكم غيره « يا قوم » كرره للاستعطاف « لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى» أى خلقنى ، خاطب به كل رسول قومه إزالة للتهمة وتمحيضاً للنصيحة ، فإنها لا تنفع ما دامت مشوبة بالمطامع « أفلا تعقلون » أى أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ فتتعظون ، ثم قال: « ويا قوم استغفروا ربكم » أى آمنوا به « ثم توبوا إليه » من عبادة غيره ؛ لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان « يرسل السماء » أى المطر « عليكم مدرارا » أى كثير الدر « ويزدكم قوة إلى قوتكم » أى ويضاعف قوتكم، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأن القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات ، وكانوا حراصا عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شىء إلى الماء ، وكانوا يدلون غيرهم بما أتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة ، وقيل: أراد القوة فى المال، وقول نوح : ويمددكم بأموال وبنين.. « ولا تتولوا » أى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حالة كونكم « مجرمين » أى مشركين ، أى ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره تعالى ذكر ردهم عليه وجدالهم إياه :

وأول شىء ردوا به عليه هو قوله تعالى : « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة » أى بحجة تدل على صحة دعواك ورسالتك ، وسميت بينة لأنها تبين الحق ، ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم المعجزات ، إلا أن القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشىء منها .

وثانيها قولهم «وما نحن بتاركي آلهتنا» أي عبادتها «عن قولك» أي صادرين عن قولك، حال من الضمير في تاركي، وهذا أيضاً من جهلهم، فإنهم كانوا يعرفون أن النافع والضار هو الله تعالى، وأن الأصنام لا تضر ولا تنفع، وذلك حكم فطرة العقل، وبديهة النفس.

وثالثها قولهم «وما نحن لك بمؤمنين» أي مصدقين وفي ذلك إقناط لهم من الإجابة والتصديق.

ورابعها قولهم «إن» أي ما «نقول» في شأنك «إلا اعتراك» أي أصابك «بعض آلهتنا بسوء» لسبك إياها فجعلتك مجنوناً وأفسدت عقلك.

ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك «قال» هود عليه السلام مجيباً لهم: «إني أشهد الله واشهدوا» أنتم أيضاً علي «أني بريء مما تشركون من دونه» أي من دون الله وهو الأصنام التي كانوا يعبدونها «فكيدوني» أي احتالوا في هلاكي «جميعاً» أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع، فإنها لا تضر ولا تنفع «ثم لا تنظرون» أي تمهلون، وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام؛ لأنه كان وحيداً في قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم ثقة بالله تعالى كما قال تعالى «إني توكلت على الله ربي وربكم» أي فوضت أمري إليه واعتمدت عليه «ما من دابة» تدب على الأرض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لأنهم يدبون على الأرض «إلا هو آخذ بناصيتها[1]» أي مالكها وقاهرها؛ فلا يقع نفع ولا ضر إلا بإذنه، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره، فخوطبوا في القرآن بما يعرفون من كلامهم «إن ربي على صراط مستقيم» أي طريق الحق والعدل فلا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف؛ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه «فإن تولوا» أي تعرضوا «فقد أبلغتكم» جميع «ما أرسلت به إليكم»، والإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء الشرط؟ أجيب عن

(١) الناصية: منبت الشعر في مقدم الرأس، وسمي الشعر النابت هنا ناصية باسم منبته.

ذلك بأن معناه : فإن تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتى وصرتم محجوجين؛ لأنكم أنتم الذين أصررتم على التكذيب ، وقوله « ويستخلف ربى قوما غيركم » استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوما آخرين فى ديارهم وأموالهم يوحدونه ويعبدونه « ولا تضرونه » أى الله بإشراككم « شيئا » من الضر ، إنما تضرون أنفسكم ، وقيل : لا تنقصونه شيئا إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء « إن ربى على كل شىء » صغير أو كبير حقير أو جليل « حفيظ » أى رقيب عالم بكل شىء وقادر على كل شىء ، فيحفظنى إن تناولونى بسوء ، أو حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها ، أو حفيظ على كل شىء ، يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء .. « ولما » لم يرجعوا ولم يرعوا أمرا ولا رغبة ولا رهبة « جاء أمرنا » أى عذابنا ، وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم ، عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام حسوما حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية « نجينا هودا والذين آمنوا معه » أى من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف « برحمة منا » لأن العذاب قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه « ونجيناهم من عذاب غليظ » هو عذاب الآخرة ، ووصفه بالغلظ لأنه أغلظ من عذاب الدنيا .. أو نجينا هودا والذين آمنوا معه من أن يصل إليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم فى ذلك ، ونجيناهم من عذاب غليظ وهو الريح المذكور .

ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال « وتلك عاد » وهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه تعالى قال : سيحوا فى الأرض فانظروا إليها واعتبروا ، ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم فى الدنيا والآخرة ، أما أوصافهم فثلاثة :

الصفة الأولى قوله تعالى : « جحدوا بآيات ربهم » أى بالمعجزات التى أتى بها هود عليه السلام ..

الصفة الثانية قوله تعالى : « وعصوا رسله » أى هودا وحده ، وإنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم ، أو لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل

لقوله تعالى : لا نفرق بين أحد من رسله .

الصفة الثالثة قوله تعالى : « واتبعوا أمر كل جبار عنيد » أى إن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم : ما هذا إلا بشر مثلكم ، فأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم ، وعصوا من دعاهم إلى الإيمان ، وإلى ما ينفعهم ، والجبار المتمرد ، والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض ، ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى « وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة » أى جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا فى الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعنة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ، وقيل : اللعنة فى الدنيا من الناس وفى الآخرة لعنة على رؤوس الأشهاد ، ثم أنه تعالى بين السبب الأول فى نزول هذا العذاب الشديد بهم بقوله تعالى « ألا إن عادا كفروا ربهم » أى كفروا بربهم ، لحذف الباء ، أو أن المراد بالكفر الجحد أى جحدوا ربهم ، وقيل : هو من باب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم و « ألا » أداة استفتاح لا تذكر إلا بين يدى كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ، ثم قال « ألا بعدا لعاد » دعاء عليهم بالهلاك ، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى عنهم ، وكرر الله عز وجل « ألا » ، وأعاد ذكرهم تعظيما لأمرهم ، وحثا على الاعتبار بحالهم « قوم هود » بيان لعاد لتمييزهم من عاد الثانية ، وللإيماء إلى استحقاقهم للبعد بما حدث منهم ، وما كان من كفرهم برسالة هود ..

هذه هى قصة هود مع قومه عاد ، وقد سميت هذه السورة باسم هود نبى الله . وسبق فى سورة الأعراف ذكر لقصة هود مع قومه وهلاكهم بسبب كفرهم وعنادهم (الأعراف - آية : ٦٥ - ٧٢) .

هذه هى قصة هود وقومه عاد الأولى ، وعاد هذه ، هى عاد إرم ، وكانت أقدم قبائل الجزيرة العربية ، وكان موطنها بالقرب من حضرموت ، وعاد إرم بالإضافة إلى « إرم » ، وإرم بمعنى التل المرتفع ، وكان عاد بن هود

ابن إرم بن سام بن نوح يعيش قبل عام ٣٠٠٠ ق . م[1] ، ويظن أن عاد إرم أخذت فى النهوض نحو عام ٢٢٠٠ أو ٢٠٠٠ ق . م حتى قاموا بغزو مصر وبابل .. ويرجع أن نفوذ عاد استمر من عام ٢٢٠٠ حتى عام ١٥٠٠ ق . م . وقد كانت عاد تقيم فى اليمن وحضرموت وانتشروا بين سواحل الخليج الفارسى[2] وحدود أرض الجزيرة .. وقد حكمت عاد بابل ومصر ، وكان المصريون يعرفونهم باسم الهكسوس أى ملوك الرعاة . . وقد دمر الله عادا قوم هود تدميرا ، والأسباب التى أدت إلى سقوطها هى :

١ — إعجابهم بقوتهم .
٢ — ظلمهم وجورهم .
٣ — كفرهم بالله .

* * *

وهذه هى خاتمة الربع الرابع من سورة هود عليه السلام ، وقد احتوى على ذكر هلاك قوم نوح بسبب كفرهم وعصيانهم وشركهم ، وهلاك عاد قوم هود بسبب إصرارهم على الكفر والعناد والطغيان والبغى فى الأرض بغير الحق .. وفى قصة نوح وهود من العبر والعظات مالو تمثله مشركو مكة لآمنوا برسالة محمد عليه السلام ، ولكفوا من شرهم وبغيهم وعدوانهم على الرسول والمؤمنين به ...

الربع الخامس من سورة هود

٦١ — وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

---

(١) ص ١٣٦ التاريخ الجغرافى للقرآن .

(٢) يذكر القرآن الكريم أن بلادهم هى الأحقاف ، والأحقاف — أى السهول الرملية — هى صحراء فى الجزيرة العربية ، وتعرف بالربع الخالى ..

فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ .

٦٢ — قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ .

٦٣ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ .

٦٤ — وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ .

٦٥ — فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ .

٦٦ — فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ .

٦٧ — وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ .

٦٨ — كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ .

ثمان آيات فى قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام . . وقد ذكرت قصة ثمود من قبل فى سورة الأعراف (الآية ٧٣ - ٧٩) ، وقد ارتفع شأن ثمود بعد فناء عاد ، وكان موطن نفوذ عاد القسم الجنوبى من بلاد العرب الذى يمتد من سواحل الخليج الفارسى حتى حدود العراق ، من حيث كان موطن نفوذ ثمود القسم الشمالى الغربى من بلاد العرب الذى كان يعرف بوادى القرى ، وكانت مدينة «حجر» مقر ثمود الرئيسى ، وتقع على الطريق القديم بين الحجاز وسوريا ، وتسمى «حجر» الآن مدائن صالح نسبة إلى النبى صالح عليه السلام ، وكانت ثمود كقوم عاد مهرة فى البناء . . وقد انتهت مدة ثمود قبل مبعث موسى . ويمكن تحديد عهد ثمود بين عامى (١٨٠٠ و ١٦٠٠ ق م) ، وكانت ثمود تعيش على الوثنية وعبادة القمر والنجوم والكواكب ، وقد دعاهم رسولهم صالح إلى التوحيد فكذبوه فأهلكهم الله .

وهذه هى القصة الثالثة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ، قصة صالح عليه السلام مع قومه ، قال الله تعالى : «وإلى ثمود» أى وأرسلنا إلى ثمود وهم سكان حجر «أخاهم» هو معطوف على قوله تعالى : نوحا . . «صالحا» عطف بيان ، وتلك الأخوة كانت فى النسب لا فى الدين «قال يا قوم» أى يا من يعز على أن يحصل لهم سوء «اعبدوا الله» أى وحدوه وخصوه بالعبادة «ما لكم من إله غيره» هو إلهكم المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ، ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته بقوله «هو أنشأكم» أى ابتدأ خلقكم «من الأرض» وذلك أنهم من آدم وآدم خلق من الأرض ، وأن الإنسان مخلوق من المنى وهو متولد من الدم والدم متولد من الأغذية، وهى إما حيوانية وإما نباتية ، فأما الحيوانية فحالها كحال الإنسان ؛ فوجب انتهاء الكل إلى النبات والنبات تولد من الأرض ، فثبت أنه تعالى أنشأ الإنسان من الأرض، وقيل :من - بمعنى فى، كما فى قوله تعالى :إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة . . «واستعمركم فيها» أى جعلكم عمارها وسكانها ، وقال الضحاك :أطال أعماركم فيها حتى إن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة ، وكذا كان قوم عاد ، وروى أن ملوك فارس قد أكثروا من

حفر الأنهار وغرس الأشجار وحصلت لهم الأعمار الطويلة ، فسأل نبي من أنبياء زمانهم : ماسبب تلك الأعمار ؟ فأوحى الله إليه أنهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى ، وقال مجاهد : عمركم أى جعلها لكم ماعشتم فإذا متم انتقلت إلى غيركم ، ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع إليه بقوله : « فاستغفروه » أى آمنوا به « ثم توبوا إليه » من عبادة غيره ؛ لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان « إن ربى قريب » من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة إلى حركة « مجيب » لكل من ناداه لا كمعبوداتكم فى الأمرين .. ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل «قالوا» له « ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا » أى قبل قولك هذا الذى تقوله والذى جئت به لما نرى فيك من مخائل الرشد والسداد ، فإنك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا ، فقوى رجاؤنا فيك أن تنصر ديننا ، فكيف أظهرت العداوة ، ثم إنهم أضافوا إلى هذا التعجب الشديد فقالوا « أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا » من الآلهة ، ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف .

ونظير هذا التعجب ماحكاه الله عن كفار مكة حيث قالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ، ثم قالوا « وإننا لفى شك مما تدعونا إليه » من التوحيد وترك عبادة الأصنام « مريب » أى موقع فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين ، والرجاء تعلق النفس بمجيء الخير على جهة الظن ، ونظيره الأمل والطمع ، وقولهم هذا مبالغة فى تزييف الكلام « قال » صالح عليه السلام مجيبا لهم « ياقوم أرأيتم » أى أخبرونى « إن كنت على بينة » أى بيان وبصيرة « من ربى » وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم ليلائم الخطاب حال المخاطبين « وآتانى منه رحمة » أى نبوة ورسالة « فمن ينصرنى » أى يمنعنى « من الله » أى عذابه « إن عصيته » أى إن خالفت أمره فى تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به « فما تزيدوننى » أى بأمركم لى بذلك « غير تخسير » أى غير تضليل ، قال الحسن بن الفضل : لم يكن صالح فى خسارة حتى يقول : فما تزيدوننى

غير تخسير ، وإنما المعنى فما تزيدوننى بما تقولون إلا نسبتى إياكم إلى الخسارة ، ولما كانت العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يطلبوا المعجزة ، فقد سأله قومه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة ـ أشاروا إليها ـ ناقة ، فدعا ربه فخرجت كما سألوا ، أشار إليها بقوله : «وياقوم هذه ناقة الله» وإضافتها إلى الله إضافة تشريف كبيت الله «لكم آية» أى معجزة وكانت على مايقال : يدر منها لبن كثير فيكتفى الخلق العظيم به ، وليس فى القرآن إلا أن هذه الناقة كانت آية معجزة ، وأما بيان أنها كانت آية معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه «فذروها» أى اتركوها على أى حالة كان تركـكم لها «تأكل» مما أرادت «فى أرض الله» من العشب والنبات ، فليس عليكم مؤونتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم ، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها ، ثم إنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهدوه من إصرارهم على الكفر ، فإن الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى فى إخفائها وإبطالها بأقصى الإمكان ، فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها «ولا تمسوها بسوء» أى بذبح أو غيره «فيأخذكم» إن مسستموها بسوء «عذاب قريب» أى فى الدنيا ، لايتأخر عن مسكم لها إلا يسيرا ، وذلك تحذير شديد لهم فى الإقدام على قتلها فخالفوا «فعقروها» وذبحوها «فقال» لهم عند بلوغه الخبر : «تمتعوا» أى عيشوا «فى داركم» ، والتمتع والتلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس ، وذلك لا يحصل إلا للحى ، وفى المراد من الديار وجهان :

أحدهما : البلد ، وتسمى البلد ديارا لأنه يدار فيها .

الثانى : دار الدنيا ، أى تمتعوا فى الدنيا «ثلاثة أيام» وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب بعد هذه المدة ، قال ابن عباس: إنه تعالى أمهلهم تلك الأيام الثلاثة ليرغبهم فى الإيمان .. ثم قالوا لصالح عليه السلام : وما علامة ذلك ؟ قال : تصير وجوهكم فى اليوم الأول مصفرة وفى الثانى محمرة ، وفى الثالث مسودة ، ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع ، فلما رأوا وجوههم مسودة أيقنوا حينئذ بالعذاب فتحفظوا واستعدوا للعذاب

فصبحهم اليوم الرابع « ذلك » أى الوعد العالى الرتبة فى الصدق « وعد غير مكذوب » أى فيه ، أو غير مكذوب على المجاز ، أو وعد غير كذب على أنه مصدر، وقوله تعالى « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا» «و» نجيناهم «من خزى يومئذ» وهو هلاكهم بالصيحة أو فضيحتهم يوم القيامة « إن ربك هو القوى » فهو يغلب كل شيء « العزيز » أى القادر على منع غيره من أن يقدر أحد عليه ، ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله « وأخذ الذين ظلموا » أى أنفسهم بالكفر « الصيحة » أى صيحة الصواعق أو الرعد أو جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا، أو أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فماتوا جميعا « فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » أى باركين على الركب ميتين ، وإنما قال تعالى «وأخذ» ولم يقل «وأخذت» لأن الصيحة محمولة على الصياح « كأن » أى كأنهم « لم يغنوا » أى يقيموا « فيها » أى ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر ، يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به « ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » تفسيره ما تقدم فى قوله تعالى « ألا إن عادا كفروا ربهم » الآية .

٦٩ — وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ابْرٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلٰمًا قَالَ سَلٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

٧٠ — فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ الَىٰ قَوْمِ لُوطٍ .

٧١ — وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰهَا بِإِسْحٰقَ وَمِن وَرَآءِ اسْحٰقَ يَعْقُوبَ .

٧٢ — قَالَتْ يٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ .

٧٣ — قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ رَحْمَتُ ٱللهِ وَبَرَكَٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .

٧٤ — فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ .

٧٥ — إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ .

٧٦ — يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ .

٧٧ — وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ .

٧٨ — وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ .

٧٩ — قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ .

٨٠ — قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ .

٨١ — قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ

مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ .

٨٢ — فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ .

٨٣ — مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ .

هذه الآيات الكريمة الخمس عشرة آية فى قصة إبراهيم مع ملائكة الله، وقد أقبلوا عليه وعلى امرأته يبشرانهما بإسحاق ، وهم فى طريقهم إلى قوم لوط لإهلاكهم وتدميرهم بسبب جرائمهم الشائنة الشديدة ، ومن عجب أن يتجادل قوم لوط مع نبيهم لوط عليه السلام يريدون اغتصاب الملائكة ، وينهاهم لوط، ويرشدهم إلى طريق الرشاد ، ولكنهم يأبون ، ويصرون على ما يريدون ... فينجى الله لوطا وأهله ومن آمن به ويدمر مدينتهم وكل من فيها تدميرا .

وفى الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح الحادى والعشرون ، قصة بشارة الله لإبراهيم ، قال : وافتقد الرب سارة كما قال ، وفعل الرب لسارة كما تكلم ، فحبلت سارة ، وولدت لإبراهيم ابنا فى شيخوخته ، فى الوقت الذى تكلم الله عنه ، ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له الذى ولدته سارة إسحاق، وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ، وقالت سارة : قد صنع الله إليه ضحكا ، كل من يسمع يضحك لى . وقد[1] عاش إبراهيم مائة وخمسا وسبعين سنة وأسلم روحه ومات بشيبة صالحة .

وفى الإصحاح الثامن عشر تفسير ظاهر للبشارة ، جاء فيه ما نصه : وظهر له الرب عند بلوطات ممرا ، وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النار ، فرفع عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض .. ويستمر الكتاب المقدس فى تصوير

(١) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر التكوين .

الطعام الذى قدمه لهم وفيه عجل حنيذ ، وبشروا إبراهيم وسارة بابن فضحكت سارة .. ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو « سدوم » ، وقال الرب : إن صراخ سدوم وعموره وخطيئتهم قد عظمت جدا ، وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم .. ويصور الكتاب المقدس فى هذا الموضع مناجاة إبراهيم لله فى سدوم ومن فيها من المؤمنين . . وفى الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين أن الملاكين جاءا إلى سدوم مساء ، وأن لوطا خف لاستقبالها ، وذهب بهما إلى بيته ، وأن رجال المدينة أحاطوا بالبيت ، ونادوا لوطا ، وقالوا : أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة ، فخرج لوط إليهم وقال لهم : لا تفعلوا شرا يا إخوتى ، هو ذا لى ابنتان لم تعرفا رجلا ، أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم ، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفى ؛ فمد الرجلان أيديهما إلى لوط وأدخلاه ، وضربا على الرجال الواقفين على الباب بالعمى فعجزوا عن أن يجدوا الباب ليفتحوه وليدخلوا على ضيوف إبراهيم . . وإذ أشرقت الشمس على الأرض أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا ، وقلب تلك المدن .. إلى آخر ما ذكر فى الكتاب المقدس فى هذه القصة . وقصة إبراهيم عليه السلام هى القصة الرابعة من القصص التى ذكرها الله عز وجل فى هذه السورة ، قال تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » أى بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، والمراد بالرسل الملائكة ، ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة ، واختلف فى الزائد على ذلك ، وأجمعوا على أن الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام ، واقتصر ابن عباس على أقل الجمع فقال : كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى سورة الذاريات بقوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » ، وفى الحجر : ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، وقال الضحاك : كانوا تسعة ، وقال محمد بن كعب القرظى : كان جبريل ومعه سبعة من الملائكة ، وقال السدى : كان جبريل ومعه أحد عشر ملكا على صورة الفتيان الذين يكونون فى غاية

الحسن « قالوا سلاما » أى سلمنا عليك سلاما « قال سلام » أى أمركم أو جوابى سلام أو وعليكم سلام ، لأن التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام ، وقيل : سلم هو بمعنى الصلح أى نحن سلم صلح غير حرب « فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » أى فما أبطأ بجيئه به والحنيذ المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض ، وكان سمينا ، كما قال تعالى فى موضع آخر : فجاء بعجل سمين ، قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر ، وروى أن إبراهيم مكث عشر ليال لم يأته ضيف فاغتم لذلك . وكان يحب الضيف ولا يأكل إلا معه ، فلما جاء الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاء بعجل سمين مشوى « فلما رأى أيديهم» أى الأضياف « لا تصل إليه » أى لا يمدون أيديهم إليه « نكرهم » أى أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم من الطعام « وأوجس » أى أضمر فى نفسه « منهم خيفة » أى خوفا ، قال قتادة : وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنما جاء بشر « قالوا لا تخف » يا إبراهيم « إنا » ملائكة الله « أرسلنا إلى قوم لوط » بالعذاب ، وإنما لم نمد له أيدينا لأنا لا نأكل « وامرأته » أى امرأة إبراهيم ، وهى سارة وهى ابنة عم إبراهيم « قائمة » وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التى دل عليها فيما مضى بالبشرى « فضحكت » سروراً من تلك البشرى لزوجها مع كبره وربما ظنته من غيرها ، لأنها كانت عجوزا عقيما؛ فأزيل ذلك الظن عنها بقوله تعالى : « فبشرناها » أى على لسان الملائكة تشريفا لها وتفخيما بشأنها « بإسحاق » تلده « ومن وراء إسحاق يعقوب » أى يكون يعقوب عليه السلام ابنا لإسحاق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها . وقيل : سبب سرورها زوال الخيفة أو هلاك أهل الفساد ، وقيل : فضحكت فحاضت ، كما قال الشاعر : عهدى بسلمى ضاحكا فى لبانة ، أى حائضاً فى جماعة من النساء ، وهذا يرد على الفراء حيث قال : ضحكت بمعنى حاضت ـ لم نسمعه من ثقة « قالت ياويلتا » هذه كلمة تقال عند أمر عظيم والألف فى آخرها بدل من ياء الإضافة « أألد وأنا عجوز » وكانت ابنة تسعين

سنة فى قول ابن إسحاق وقال مجاهد : تسعة وتسعين سنة « وهذا بعلى » أى زوجى ، سمى بذلك لأنه قيم أمرها ، وقولها « شيخا » نصب على الحال ، قال الواحدى: وهذا من لطيف النحو وغامضه، فإن كلمة هذا للإشارة، فكان قولها «وهذا بعلى شيخا» قائم مقام أن يقال «أشير إلى بعلى حال كونه شيخا» والمقصود تعريف الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة ، وكان ابن مائة سنة فى قول .. « إن هذا لشىء عجيب » أى إن الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ، ولذلك « قالوا » أى الملائكة اسارة « أتعجبين من أمر الله » منكرين عليها ذلك ، أى لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شىء ، وإذا أراد شيئا كان سريعا ؛ فإن خوارق العادة باعتبار أهل بيت النبوة وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامة ليس بمستغرب « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » أى بيت إبراهيم « إنه » تعالى « حميد » أى محمود على كل حال أو فاعل مايستوجب به الحمد « مجيد » أى كثير الخير والإحسان .

والقصة الخامسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله « فلما ذهب عن إبراهيم الروع » أى الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم « وجاءته البشرى » بالولد أخذ « يجادلنا » أى يجادل رسلنا « فى » شأن « قوم لوط » وقيل تقديره : لما ذهب عن إبراهيم الروع جادلنا ، فإن قيل : كيف جادل إبراهيم الملائكة مع علمه بأنهم لا يمكنهم مخالفة أمر الله وهذا منكر ؟ فالجواب أن المراد من هذه المجادلة تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عماهم فيه من الكفر والمعاصى، لأن الملائكة قالوا: إنا مهلكو أهل هذه القرية ، أو أن مجادلته إنما كانت فى قوم بسبب مقام لوط فيهم ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال : أوأربعون ؟ قالوا : لا. قال : فثلاثون ، قالوا :لا ، قال: فعشرون، قالوا: لا . حتى بلغ خمسة قالوا: لا ، قال: أرأيتم لو كان فيها رجل مؤمن أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: إن فيها لوطا.. وقد ذكر الله تعالى لوطا أيضا فى سورة العنكبوت

فقال: «ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطا قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين» ، الخ .. «إن إبراهيم لحليم» أى لا يتعجل ، فيؤخر أو يعفو ، وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم ، ثم ضم إلى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى « أواه » أى كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس «منيب» أى رجاع ، فلما أطال مجادلتهم قالوا له: « يا إبراهيم أعرض عن هذا » أى الجدال وإن كانت الرحمة دينك فلا فائدة فيه « إنه قد جاء أمر ربك » أى قضاؤه الأزلى بعذابهم وهو أعلم بحالهم « إنهم آتيهم عذاب غير مردود » أى لا سبيل إلى دفعه ورده « ولما جاءت رسلنا لوطا » أى هؤلاء الملائكة الذين بشروا إبراهيم بالولد ، قال ابن عباس : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وهو ابن أخى إبراهيم عليهما السلام وبين الفريقين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب من بنى آدم ، وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله تعالى « سىء بهم » أى حزن بسببهم « وضاق بهم ذرعا » أى صدرا ، يقال : ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع فى مكروه لا يطيق الخروج منه ، وذلك أن لوطا نظر إلى حسن وجوههم وحسن روائحهم فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ، وقيل: ساءه ذلك لأنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى وأنهم جاءوا لإهلاك قومه فرق قلبه على قومه « وقال هذا يوم عصيب » أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء ، أى شديد مأخوذ من العصابة التى تشد بالرأس ، قال قتادة : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتوا لوطا نصف النهار وهو فى أرض له يعمل فيها ، وروى أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فاستضافوه وانطلق بهم ، فلما مضى ساعة قال لهم : ما بلغكم من أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرهم ؟ قال: أشهد بالله أنها شر قرية فى الأرض عملا ، يقول ذلك أربع مرات . وروى أن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط فوجدوه فى داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل لوط ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، وقالت : إن

فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط « وجاءه قومه ، لما علموا بهم « يهرعون » أى يسرعون « إليه » قال ابن عباس وقال الحسن : الإسراع المشى بين شيئين « ومن قبل » أى قبل مجيئهم إلى لوط وقيل : من قبل مجىء الرسل إليهم « كانوا يعملون السيئات » أى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة ، وهى إتيان الرجال ، قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان من بنى آدم : « ياقوم هؤلاء بناتى » قال مجاهد وسعيد ابن جبير أراد ببناته نساء قومه ، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبى هو أو أمته كالوالد لهم ، أى فتزوجوا منهن ، وقيل : أراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الإيمان ، وقيل : كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المؤمنة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبى لهب ومن العاص بن وائل قبل الوحى وهما كافران ، وقيل : كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنته « هن أطهر لكم » أى أنظف فعلا ، وهذا جار مجرى قوله تعالى « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم » ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها ، وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا أعل هبل ؛ قال : الله أعلى وأجل ؛ ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم ، وإنما هو كلام خرج مخرج المقابلة ، ولهذا نظائر كثيرة « فاتقوا الله » وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى « ولا تخزونى » أى تفضحونى « فى ضيفى » أى أضيافى « أليس منكم رجل رشيد » يهتدى إلى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر « قالوا لقد علمت ما لنا من بناتك من حق » أى حاجة « وإنك لتعلم ما نريد » أى من إتيان الذكور وما لنا فيه من الشهوة ، فعند ذلك « قال » لوط عليه السلام « لو أن لى قوة » أى طاقة « أو آوى إلى ركن شديد » أى عشيرة تنصرنى ، شبهه بركن الجبل فى شدته ، وعنه صلى الله عليه وسلم : رحم الله أخى لوطا ، كان يأوى إلى ركن شديد ، والركن الشديد نصر الله ومعونته ، فكأن النبى صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله : أو آوى ، وعده نادرة ، إذ ليس هناك أشد من الركن الذى كان يأوى إليه ، وجواب لو محذوف

تقديره : لبطشت بكم ، أو لدفعتكم ، روى أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب « قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) بسوء فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ؛ فاستأذن جبريل ربه فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا ، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم ، كما قال تعالى : «فطمسنا أعينهم » فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون : النجاة النجاة ، فإن فى بيت لوط قوما سحرة ، وقالت الملائكة للوط « فأسر بأهلك بقطع » أى بطائفة من الليل « ولا يلتفت منكم أحد » أى لا ينظر وراءه لئلا يرى عظيم ما نزل بهم ، وقوله « إلا امرأتك » قرأ ابن كثير برفع التاء على أنه بدل من أحد ، وقرىء بالنصب على أنه استثناء من الأهل أى فلا تسر بها « إنه مصيبها ما أصابهم » فلم يخرج بها ، وقيل: خرجت والتفتت فقالت : واقوماه ؛ فجاءها حجر فقتلها ، روى أنه قال لهم : متى موعد هلاكهم؟ فقالوا له : « إن موعدهم الصبح » قال : أريد أسرع من ذلك قالوا : « أليس الصبح بقريب » أى فأسرع الخروج بمن أمرت بهم « فلما جاء أمرنا » أى عذابنا بإهلاكهم « جعلنا عاليها » أى قراهم « سافلها » قد مرت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة، وكانت خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل : أربعة آلاف ألف « وأمطرنا عليها » أى المدن بعد قلبها ، وقيل : على شذاذها الذين ليسوا من أهلها يكونون فى القوم وليسوا منهم « حجارة من سجيل » أى من طين طبخ بالنار، وقيل : مثل السجيل وهو الدلو العظيمة « منضود » أى متتابعة يتبع بعضها بعضاً « مسومة » أى معلمة ، قال الحسن : عليها مثل الخواتيم ، وقال ابن جريج كان عليها سيماء يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض « عند ربك » ظرف لها « وما هى » أى تلك الحجارة « من الظالمين » أى مشركى مكة « ببعيد » أى بشىء بعيد أو بمكان بعيد ، لأنها كانت من السماء ، وهى مكان بعيد إلا أنها أسرع لحوقا بالمرمى ، فكأنها بمكان

قريب منه ، وفيه وعيد لهم ، وقيل : الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى مسيرهم .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الخامس من سورة هود ، وقد تضمن ما تضمن من قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام ، ومن قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له ولزوجه سارة وهو فى سن المائة بميلاد ابن له هو إسحاق وحفيد له من ابنه إسحاق هو يعقوب ، ومن قصة لوط مع قومه ومع ملائكة الله الذين أرسلوا بالعذاب والهلاك لقومه الفاسقين ، وتدمير الله العزيز الجبار لمدينتهم الجميلة .. والمراد من هذه القصص العبرة والعظة والوعيد الشديد للمشركين العرب الذين قاوموا الرسول ورسالته ، ووقفوا موقف اللجاج والعناد من دين الله ومن كتابه الحكيم .

الربع السادس من سورة هود

٨٤ — وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ .

٨٥ — وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

٨٦ — بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ .

٨٧ — قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ .

٨٨ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

٨٩ — وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ .

٩٠ — وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ .

٩١ — قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ .

٩٢ — قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

٩٣ — وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ .

٩٤ — وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ .

٩٥ — كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ .

اثنتا عشرة آية من آيات الكتاب الحكيم ، هن مطلع ربع جديد من

أرباع سورة هود ، وقد تضمنت ذكر قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، وعصيانهم وكفرهم ولجاجهم وانتقام الله منهم وإهلاكهم إهلاكا شديدا . . وقد سبقت قصة شعيب فى سورة الأعراف (آية ٨٥ - ٩٣) ، وهنا فى سورة يونس يقول الله عز وجل : وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، وفى سورة الأعراف يقول : فأخذتهم الرجفة .

وقصة شعيب عليه السلام هى القصة السابعة من قصص هذه السورة الكريمة ، وقد ذكرها الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة .. «وإلى مدين» أى وأرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة أبيهم مدين بن إبراهيم عليه السلام ، أو هو اسم مدينة بناها مدين ، والتقدير : وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم فى النسب لا فى الدين « شعيبا » عطف بيان « قال » ما قال إخوته من الأنبياء لأمهم فى التبشير بالدين : « يا قوم » بلغة الاستعطاف لهم وإظهار الشفقة عليهم « اعبدوا الله » أى وحدوه ولا تشركوا به شيئاً « ما لكم من إله غيره » .. وهكذا اتفقت كلمة الأنبياء ، واتحدت دعوتهم إلى الله ، وهذا وحده دليل قطعى على صدق كل رسول منهم ، لما علم قطعا من تباعد عصورهم ، وتنائى ديارهم ، وهم جميعا ممن لم يدرسوا العلوم ، ولم يقرأوا الكتب ، ولا عرفوا أخبار الأمم البائدة إلا من الله عز وجل . . ولما دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين الله دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين الناس فقال : « ولا تنقصوا » بوجه من الوجوه « المكيال والميزان » أى لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته ، والكيل تعديل الشىء بالآلة فى القلة والكثرة ، والعدل تعديله فى الخفة والثقل ، فالكيل العدل فى الكمية ، والوزن والعدل فى الكيفية « إنى أراكم بخير » أى بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف ، قال ابن عباس : كانوا موسرين فى نعمة ، وقال مجاهد : كانوا فى خصب وسعة ، فحذرهم زوال تلك النعمة إن لم يؤمنوا ويتوبوا « وإنى أخاف عليكم » إن لم تؤمنوا « عذاب يوم محيط » أى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب يوم الاستئصال فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة ، ومنه قوله تعالى «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» ، والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر ، وفى المعنى من صفة العذاب ، وذلك مجاز

مشهور كقوله «هذا يوم عصيب» .. «ويا قوم أوفوا» أتموا تماما حسنا «المكيال والميزان» أى الكيل والوزن وآلتهما ، والنهى عن النقصان أمر بالإيفاء ففائدة قوله تعالى : أوفوا . أنهم نهوا أولا عن القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن فى التصريح بالقبيح نهيا عنه وتغييراً له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحا بلفظ المأمور بالوفاء به ترغيبا فيه وحثا عليه وجىء به مقيدا ، «بالقسط» ليكون الإيفاء على وجه العدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان أمرا بما هو الواجب ؛ لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه وهو غير المأمور به ، وقد يكون محظورا كما فى الربا «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» تعميم بعد تخصيص ، فإنه أعم من أن يكون فى المقدار أو غيره ، فإنهم كانوا يأخذون من كل شىء يباع ، كما تفعل السماسرة ، وكانوا يمسكون الناس ، وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك ، فالله تعالى نهى فى الآية الأولى عن النقصان فى المكيال والميزان ، وفى الثانية أمر بإعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ، كما قال الفقهاء : إنه تعالى أمر بغسل الوجه ، وذلك لا يحصل إلا عند غسل جزء من الرأس ، فكأنه تعالى نهى أولا عن أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة ، وفى الثانى أمر بأن يسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج بالتعيين عن العهدة ، كما قيده بقوله تعالى : «ولا تعثوا فى الأرض مفسدين» فإن الإفساد يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ، ومفسدين : حال مؤكدة لمعنى عاملها ، وفائدتها إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعل الخضر عليه السلام «بقية الله» قال ابن عباس : يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن «خير لكم» مما تأخذونه بالتطفيف ، وقال مجاهد : مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام «إن كنتم مؤمنين» أى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به «وما أنا عليكم بحفيظ» أعلم جميع أعمالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فسادا .. ولما أمرهم شعيب عليه السلام بالتوحيد وبترك البخس «قالوا» له

« ياشعيب » سموه باسمه استخفافاً وغلظة ، وأنكروا عليه ذلك وهم يستهزئون به « أصلاتك تأمرك » أن نفعل معك فعل من يأمر دائما بتكليفنا « أن نترك ما يعبد » أى على سبيل المواظبة « آباؤنا » من الأصنام ، فحذف الذى هو التكليف ، لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره ، قالوا ذلك فى جواب أمره لهم بالتوحيد « أو أن » نترك به « نفعل » أى دائما « فى أموالنا مانشاء » من قطع الدراهم والدنانير وإفساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون إفسادا للمال ، قالوا له ذلك فى جواب النهى عن التطفيف والأمر بالإيفاء ، وإنما أضافوا ذلك إلى صلاته تهكما واستهزاء بها وإشعارا بأن مثل هذا لا يدعو إليه داع عقلى ، وإنما تدعو إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه ، وكان شعيب عليه السلام يكثر الصلاة فى الليل والنهار وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا بقولهم « أصلاتك تأمرك » السخرية والهزء ، كما أنك إذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال : هذا مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء ، فكذا هنا ، وقولهم له « إنك لأنت الحليم الرشيد» تهكم به ، وقصدوا وصفه بضد ذلك ، كما يقال للبخيل الخسيس : لو رآك حاتم لسجد لك ، وعللوا إنكار ماسمعوه منه واستبعدوه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة إلى مثل ذلك « قال يا قوم » مستعطفا لهم لما بينهم وبينه من عواطف القرابة ليكون أدعى إلى سبيل الوفاق والإنصاف « أرأيتم » أى أخبرونى « إن كنت على بينة » أى برهان « من ربى ورزقنى » الضمير فى (منه) لله تعالى أى من عنده بإعانته بلا كد منى فى تحصيله ، وعظم الرزق بقوله « رزقا حسنا » أى جليلا ومالا حلالا لم أظلم فيه أحدا ، وجواب الشرط محذوف ، أى فهل يسيغ مع هذا الإنعام الجامع للسعادة الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه فأخالفه فى أمره ونهيه ، وهذا اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف والنهى عن دين الآباء « وما أريد أن أخالفكم » أى وأذهب « إلى ما أنهاكم عنه » فأرتكبه « إن » أى ما « أريد » أى فيما آمركم به وأنهاكم عنه « إلا الإصلاح » أى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى

وأمرى بالمعروف ونهى عن المنكر «ما استطعت» أى وهو الإبلاغ والإنذار فقط، ولا أستطيع إجباركم على الطاعة لأن ذلك إلى الله تعالى؛ فإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء «وما توفيق» أى لإصابة الحق والصواب «إلا بالله» أى إلا بمعونته وتأييده «عليه» لا على غيره «توكلت» أى اعتمدت فى جميع أمورى، فإنه القادر على كل شىء وماعداه عاجز، وهذه الصيغة تفيد الحصر، فلا ينبغى للإنسان أن يتوكل على أحد إلا الله تعالى، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذى هو أقصى مراتب اليقين «وإليه أنيب» فيه إشارة إلى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر، لأن قوله «وإليه أنيب» يدل على أن لا مآب للخلق إلا إلى الله تعالى، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال: ذلك خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه «ويا قوم لا يجرمنكم» أى لا يكسبنكم «شقاق» أى خلافى وهو فاعل الجرم، والضمير مفعول أول والمفعول الثانى «أن يصيبكم» عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة، قال الزمخشرى فى الكشاف: جرم مثل كسب فى تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين، تقول: جرم ذنبا وكسبه، وجرمته ذنبا وكسبته إياه، ومنه قوله تعالى: لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم «مثل ما أصاب قوم نوح» من الغرق «أو قوم هود» من الريح العقيم «أو قوم صالح» من الرجفة «وما قوم لوط منكم ببعيد» لا فى الزمان ولا فى المكان، لأنهم كانوا حديثى عهد بهلاكهم، وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم، فإن القرب فى الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال، وكأنه يقول: اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب، وقال «ببعيد» ولم يقل: ببعيدين، لأن التقدير: وما إهلاكهم بشىء بعيد، وأيضا يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر «واستغفروا ربكم» أى آمنوا به «ثم توبوا إليه» من عبادة غيره، لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان «إن ربى رحيم» أى عظيم الرحمة للتائبين «ودود» أى محب لهم، ولما بالغ عليه السلام فى التقرير والبيان أجابوه بإجابات فاسدة:

الأولى : « قالوا له يا شعيب ما نفقه » أى ما نفهم «كثيرا مما تقول» ، فإن قيل : إن كان يخاطبهم بلسانه فلم قالوا « ما نفقه » ، أجيب بأنهم كانوا لا يلقون إليهم أذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه ، كما يقول الله تعالى « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » ، أو أنهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزنا ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة ، كما يقول الرجل لصاحبه: إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدرى ما تقول .

الثانية : قولهم له « وإنا لنراك فينا ضعيفا » أى لا قوة لك فتمتنع منا إن أردناك بسوء ، أو ذليلا لا عز لك ، وقيل: أعمى بلغة حمير ، قاله قتادة ، وفى هذا تجويز العمى على الأنبياء ، إلا أن هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به فى إثبات هذا المعنى ، لأنه ترك الظاهر من غير دليل ، وقيل: ضعيف البصر ، قاله الحسن.

الثالثة قولهم له : « ولولا رهطك » أى عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم « لرجمناك » بالحجارة حتى تموت ، والرهط من الثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى السبعة، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ولا دفع له فى صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترام رهطه .

الرابعة قولهم له : « وما أنت علينا بعزيز » أى لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم ، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ... ولما خوف الكفار شعيباً بالقتل والإيذاء حكى الله تعالى ما ذكروه فى هذا المقام وهو نوعان :

الأول « قال » لهم : « يا قوم » مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه « أرهطى أعز عليكم من الله » المحيط بكل شىء قدرة وعلما حتى نظرتم إليهم فى قرابتى منهم ولم تنظروا إلى الله تعالى فى قربى منه لما ظهر على من كرامته « واتخذتموه وراءكم ظهريا » أى جعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والاستهانة برسوله ، قال فى الكشاف : والظهرى : منسوب إلى الظهر والكسر من

تغييرات النسب ، ونظيره قولهم فى النسبة إلى الأمس : إمسى ـ بكسر الهمزة ، « إن ربى بما تعملون محيط » أى أنه عليم بأحوالكم فلا يخفى عليه شىء منها .

والنوع الثانى « ويا قوم اعملوا على مكانتكم » والمكانة الحالة التى يمكن صاحبها من عمله ، والمعنى : اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة ، وكل ما فى وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلى « إنى » أيضاً « عامل » ما آتانى الله تعالى من القدرة والطاقة « سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب » فمن موصولة مفعول العلم ، ولم يقل « فسوف تعلمون » ؛ لأن إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، وأما حذف الفاء فيجعله جوابا عن سؤال مقدر وهو الاستئناف البيانى تقديره : أنه لما قال : ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ؛ فكأنهم قالوا : فما يكون بعد ذلك ؟ فقال : سوف تعلمون ، فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى بيان الفصاحة والتهويل لأنه استئناف « وارتقبوا » أى انتظروا عاقبة أمركم « إنى معكم رقيب » أى منتظر ، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه ، كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم ، أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع « ولما جاء أمرنا » بعذابهم وإهلاكهم « نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة » أى فضل « منا » بأن هديناهم للإيمان ووفقناهم للطاعة .. وجاءت قصة عادوقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء ؛ لأن قصة عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتى صالح ولوط فإنهما ذكرا بعد الوعد ، وذلك قوله تعالى : وعد غير مكذوب ، وقوله : إن موعدهم الصبح ، فلذلك جاءا بفاء السببية « وأخذت الذين ظلموا » أى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس « الصيحة » أى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة شديدة ماتوا منها جميعا ، وقيل: أتتهم صيحة من السماء « فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » أى باركين على الركب ميتين « كأن لم يغنوا » أى كأنهم لم يقيموا « فيها » أى فى ديارهم مدة من الدهر ، من قولهم : غنى بالمكان إذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره « ألا بعدا » أى

هلا كا ، لمدين كما بعدت ثمود ، شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضا بالصيحة : قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم.

٩٦ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ .

٩٧ — إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ .

٩٨ — يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ .

٩٩ — وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ .

١٠٠ — ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ .

١٠١ — وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ .

١٠٢ — وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

١٠٣ — إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ .

١٠٤ — وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ .

١٠٥ — يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ .

١٠٦ — فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ .

١٠٧ — خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

١٠٨ — وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ .

فى هذه الآيات الثلاث عشرة يذكر الله عز وجل فى إيجاز شديد وإشارات بليغة ، قصة موسى ورسالته إلى قومه ، ومعجزاته الظاهرة بين يدى فرعون ، وكفر فرعون وعناده ، وهلاكه ، وأنه من أهل النار ، يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار ، ولهم فى الدنيا اللعنة ، وفى الآخرة بئس مايقدم لهم من رفد مرفود .. ويتبع الله عز وجل قصة موسى بالعبرة من ذكرها ، وأن الله عز وجل قد قص على رسوله الكريم قصص هذه الأمم ، سواء الأمم التى بقيت آثارها أم التى بادت ودمرت على حد سواء ، وأن هذه الأمم لم يظلمها الله ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، ولم تغن عنهم آلهتهم التى أشركوا بها من دون الله شيئا لما جاءهم أمر الله بالعذاب ، بل لم تزدهم آلهتهم غير الخسران والدمار .. والله عز وجل إذا أخذ أمة من الأمم بالعذاب دمرها تدميرا ، فبطشه أليم شديد ، وفى بطشه بالكافرين آية وعبرة لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك اليوم المشهود الذى يجمع له الناس جميعا ، والذى لم يؤخره الله عز وجل إلا لأجل معدود وزمن محدود ، وإذا جاء الأجل لم تنبس نفس ببنت شفة ، ولم تتكلم إلا بإذن الله ، ومن الناس حينئذ الشقى ، ومنهم السعيد ، والأشقياء أصحاب النار ، خالدين فيها دائما أبدا ، إلا ما شاء الله ، والسعداء الذين لهم الجنة خالدين فيها دائما أبدا إلا ما شاء الله عطاء غير منقوص ، وجزاء غير مجذوذ . وقصة موسى هى القصة السابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر قصصها

وفيها تعظيم لشأن موسى عليه السلام ، قال الله تعالى: « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا » أى التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام « وسلطان مبين » أى برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته ، وقيل: المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصى لأنها أظهر الآيات ، وذلك لأن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وهى : العصى ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونقص من الثمرات ، والسنين ، ومنهم من أبدل نقص الثمرات والسنين بإظلال الجبل وفلق البحر ، قال بعض المحققين : سميت الحجة سلطانا لأن صاحب الحجة يقهر من لاحجة له ، كالسلطان يقهر غيره ، والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية ، والملوك سلاطين بحسب مامعهم من القدرة والمكنة إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك ، لأن سلطنة العلماء لاتقبل النسخ والعزل ، وسلطنة الملوك تقبلها ، ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء ، لأن سلطنة العلماء من جنس الأنبياء ، وسلطنة الملوك من جنس الفراعنة « إلى فرعون » طائفة القبط « وملئه » أى أشراف قومه الذين تتبعهم الأذناب ، لأن القصد الأكبر رفع أيديهم عن بنى إسرائيل « فاتبعوا أمر فرعون » أى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى إلى مالا يخفى فساده على من عنده أدنى ذرة من التفكير ، ولم يتبعوا موسى الهادى إلى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم « وما أمر فرعون برشيد » أى بسديد ولا حميد العاقبة ولايدعو إلى خير ، وقيل : رشيد ذو رشد ، وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا ، لأنه كان لا يؤمن بالله ولا بالمعاد ، وكان يقول لقومه : إنه هو إلههم ويجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم.. وكل الرشد فى عبادة الله تعالى ومعرفته ، فلما كان فرعون نافيا لهذين الأمرين كان خالياً من الرشد بالكلية « يقدم قومه يوم القيامة » إلى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال ، أو كما يقدم قومه فى الدنيا فأدخلهم البحر وأغرقهم فكذا يقدمهم فى القيامة فيدخلهم النار، كما قال تعالى « فأوردهم النار » ولم يقل يقدم قومه فيوردهم النار ، بل أتى بلفظ الماضى لأنه إنما أتى بلفظ الماضى مبالغة

فى تحقيقه حيث نزل دخوله النار فى المستقبل منزلة دخولها فى الماضى وسمى إتيانها موردا ، ولهذا قال تعالى «وبئس الورد المورود» وردهم ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتسكين الأكباد والنار ضده ، ولفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول: نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك ، فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار «وأتبعوا فى هذه» أى فى الدنيا «لعنة» أى طردا وبعداً عن الرحمة «ويوم القيامة» أى وأتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون فى الدنيا والآخرة ، ونظيره قوله تعالى فى سورة القصص: وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين «بئس الرفد» أى العون «المرفود» رفدهم ، سأل رافع بن الأرزق ابن عباس عن ذلك فقال: هو اللعنة بعد اللعنة ، وقال قتادة : ترادفت عليهم لعنات من الله تعالى : لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة ، وكل شىء جعلته عونا لشىء فقد رفدته به ، وسميت اللعنة عونا لأنها إذا تبعتهم فى الدنيا أبعدتهم عن الرحمة وأعانتهم على ما هم عليه من الضلال ، وسميت رفدا أى عونا لهذا المعنى على التهكم ، كقول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع ، وسميت معانا لأنها أردفت فى الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديتين إلى طريق الجحيم .

ولما ذكر تعالى قصص الأولين قال تعالى «ذلك» أى المذكور «من أنباء القرى» أى أخبار أهل القرى ، هم الأمم السالفة فى القرون الماضية «نقصه عليك» أى نخبرك به يا محمد، والجملة خبر بعد خبر. وفائدة ذكر هذه القصص على النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الآخرة ، وأن الكافر يخرج مع اللعن فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، وإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع فلابد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل فى القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال ، وفى إخباره صلى الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا جلوس إلى معلم دلالة على صدق نبوته ، فإن ذلك لا يكون إلا بوحى من الله تعالى «منها» أى القرى «قائم» أى باق كالزرع القائم هلك أهله دونه «و» «منها» «حصيد» أى غير باق الأثر كالزرع المحصود هلك مع أهله

« وما ظلمناهم » بإهلاكهم بغير ذنب « ولـكن ظلموا أنفسهم » بالـكفر والمعاصى ، وقال ابن عباس : يريد : وما نقصناهم من النعيم والرزق ولـكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى « فما أغنت » أى دفعت « عنهم آلهتهم » أى أصنامهم « التى يدعون » أى يعبدون « من دون الله » أى غيره « من شىء لما جاء أمر ربك » أى عقابه « وما زادوهم » بعبادتهم « غير تتبيب » أى غير تخسير وقيل: تدمير ، ولما أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه بما فعله بأمم من تقدم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل ، وما ورد عليهم من عذاب الاستئصال ، وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العـذاب فى الدنيا ، قال تعالى بعده « وكذلك » أى ومثل ذلك الأخذ العظيم « أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى » أى القرى « ظالمة » والمراد أهلها ، ونظيره قوله تعالى : « وكم أهلـكنا من قرية بطرت معيشتها » وقوله تعالى : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة » فبين أن عذابه ليس مقصورا على من تقدم بل الحال فى أخذ كل الظالمين يكون كذلك ، ولما بين تعالى كيفية أخـذ الأمم المتقدمة ، ثم بين تعالى أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه ، أتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية بقوله تعالى: « إن أخذه أليم » أى مؤلم « شديد » أى صعب مفتت للقوى ، وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخـذه لم يفلته . ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد .. وفى هذه الآية الـكريمة والحديث الشريف دلالة على أن من أقدم على ظلم فإنه يتداركه بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغـير ، لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ، ولا يظن أن هذه الآية مختصة بظالمى الأمم الماضية ، بل هى عامة فى كل ظالم ويعضده الحديث « إن فى ذلك » أى ما ذكر من عذاب الأمم الماضية وإهلاكهم « لآية » أى لعبرة وموعظة « لمن خاف عـذاب » يوم الحياة « الآخرة » لأنه ينظر ما أحل الله تعالى بالمجرمين فى الدنيا ، وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم فى الآخرة ، فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود ، فيكون له عبرة وعظة ولطفا فى زيادة

التقوى والخشية من الله « ذلك » إشارة إلى يوم القيامة لأن عذاب الآخرة دل عليه « يوم مجموع له » أى فيه « الناس » أى إن خلق الأولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك اليوم ويجمعون.. ثم وصفه الله تعالى بوصف آخر بقوله تعالى « وذلك يوم مشهود » أى يشهده أهل السموات وأهل الأرض « وما نؤخره » أى ذلك اليوم وهو يوم القيامة « إلا لأجل » أى وقت « معدود » أى معلوم محدود ، وذلك الوقت لا يعلمه إلا الله تعالى « يوم يأتى » ذلك اليوم « لا تكلم » أى لا تتكلم « نفس إلا بإذنه » تعالى . فإن قيل: كيف يوفق بين قوله تعالى: يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها، وقوله تعالى : هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون . أجيب بأن ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن ، فنى بعضها يجادلون عن أنفسهم ، وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم « فمنهم » أى الناس « شقى » ومنهم « سعيد » أى فمنهم من سبق له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ، ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد ، وعن على رضى الله تعالى عنه قال : كنا فى جنازة فى بقيع الفرقد ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ، ثم نكت بها الأرض ساعة . ثم قال : مامن نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة أو النار ، فقالوا : يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ « فأما من أعطى واتق وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » الآية . . وبقيع الفرقد هو مقبرة أهل المدينة ومدفنهم فيه ، والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الإنسان بيده ، والنكت بالنون والتاء : ضرب الشق بتلك المخصرة وباليد ونحو ذلك ، حتى يؤثر فيه « فأما الذين شقوا » فى علمه تعالى « ففى النار لهم فيها زفير » وهو صوت شديد « وشهيق » وهو صوت ضعيف ، أو الزفير إخراج النفس والشهيق رده، وقيل : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق، والشهيق فى الصدر، وعلى كل

المراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم « خالدين فيها » وقوله تعالى «مادامت السموات والأرض » فيه وجهان : أحدهما سموات الآخرة وأرضها ، وهى مخلوقة دائمة للأبد ، والدليل على أن لها سموات وأرضا قوله تعالى : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وقوله تعالى: وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء. ولأنه لابد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم، إما سماء يخلقها الله تعالى أو يظلهم العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء ، وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض. والوجه الثانى أن المراد مدة دوامها فى الدنيا. إلا، أى غير «ما شاء ربك» من الزيادة على مدتهما ، ولا منتهى له، وذلك هو الخلود فيها أبداً « إن ربك فعال لما يريد» من غير اعتراض « وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » كما تقدم، ودل عليه قوله تعالى « عطاء غير مجذوذ » أى مقطوع ، وقيل الاستثناء فى أهل الشقاوة يرجع إلى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها ، فيكون ذلك استثناء وذلك كاف فى صحة الاستثناء ، لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس ، لأن الذين أخرجوا من النار سعدوا فى الحقيقة ، استثناهم الله تعالى من الأشقياء ، لما روى عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : يخرج قوم من النار بالشفاعة ، وفى رواية : إن الله يخرج ما شاء من النار فيدخلهم الجنة ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : ليصيبن قوما شفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ، ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة ، فيسمون الجهنميين . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد ، أى عن أهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن تخلى طبقتهم التى كانوا فيها ، وإن نازع فى ذلك الزمخشرى على مذهبه : إن أهل الكبائر يخلدون فى النار، وأما الاستثناء من أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم فى النار قبل دخولهم الجنة ، أو الاستثناء راجع إلى الفريقين، فإنهم فارقوا الجنة أيام عذابهم، وأن التأبيد من مبدأ معين ينقص

باعتبار الابتداء كما ينقص باعتبار الانتهاء ، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم ، فعلى هذا لم يكن قوله تعالى « فمنهم شقى وسعيد » تقسيما صحيحا ، لأن شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسميه . . وقيل معناه : لو شاء ربك لأخرجهم منها ، ولكنه لايشاء ، لأنه تعالى حكم لهم بالخلود . . وقال الفراء : هذا الاستثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله ، وقيل: إن هذه عبارة عن التأبيد على لغة العرب، تقول: لا أكلمه ما دامت السموات والأرض ، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار ، أى دائما أبدا . . وقيل : إذا نقل أهل النار منها إلى ما دونها من العذاب ، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة ، وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه .

الربع السابع من سورة هود

١٠٩ — فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ .

١١٠ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

١١١ — وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فى عد أول هذه الآيات ـ بدء الربع السابع ـ تجوز ملحوظ ، فقد تركنا آية : « وأما الذين سعدوا » هنا ، حيث ذكرناها فيما مضى ، تتمة للفائدة ، وإكمالا لمعنى الكلام هناك . .

فى هذه الآيات الثلاث بيان لكفر مشركى مكة وشركهم ، وللجزاء الأليم الذى ينتظرهم ، وكما اختلف هؤلاء المشركون فى الدين فقد اختلف أتباع موسى كذلك ، ولكن الله يؤخر حسابهم إلى أن يأتى أجلهم الموعود،

فيستوفون جزاءهم ، كما يوفى الله عز وجل المشركين جزاءهم كذلك ، فهو عليم خبير بكل ما يعمل هؤلاء وهؤلاء ، وبكل ما يقترفه الناس جميعاً . .
وهكذا لما شرح الله تعالى أقاصيص عبدة الأوثان، ثم أتبعها بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء ، شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال : « فلا تك » يا محمد « فى مرية » أى شك « مما يعبد هؤلاء » المشركون من الأصنام ، إنما نعذبهم كما عذبنا من قبلهم ، وهذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم « ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم » أى كعبادتهم « من قبل » وقد عذبناهم « وإنا لموفوهم » مثلهم « نصيبهم » أى حظهم من العذاب « غير منقوص » أى كاملا غير ناقص . ولما ذكر تعالى فى هذه الآية إعراضهم عن الاتباع مع ما أوفى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب ، سلاه بأخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب » أى التوراة الجامعة للخير « فاختلف فيه » أى الكتاب ، فآمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن « ولولا كلمة سبقت من ربك » بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة « لقضى » أى لوقع « بينهم » أى بين من اختلف فى كتاب موسى فى الدنيا فيما اختلفوا فيه بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ، ولكن سبقت الكلمة أن القضاء الكامل إنما يكون يوم القيامة .كما قال تعالى فى سورة يونس عليه السلام « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » الآية . ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أن كل طائفة من اليهود تنكر وتشك فيه وتفعل فعل الشاك فقال تعالى : مؤكدا « وإنهم لفى شك » أى عظيم محيط بهم « منه » أى من الكتاب والقضاء « مريب » أى موقع فى الريب والتهمة والاضطرب مع ما رأوا من الآيات التى منها سماع كلام الله تعالى ، ورؤية ما كان يتجلى فى جبل الطور من خارق الأحوال ، وقيل:الضمير فى « وإنهم » راجع لكفار مكة وفى كلمة « منه » راجع للقرآن الكريم « وإن كلا » معناه كل الخلائق « لما » اللام زائدة موطئة للقسم المقدر ، وتقديره : والله « ليوفينهم ربك أعمالهم » أى فيجازى المصدق على تصديقه

بالجنة ، ويجازى المكذب على تكذيبه بالنار.. أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه يوفى كل أحد جزاء عمله ، وأكد ذلك بسبعة تأكيدات : إن ، وكلا ، ولام القسم ، وما ـ التى هى كما يقول الفراء موصول ، والضمير ، ولام «ليوفينهم» الداخلة على جواب القسم ، ونون التوكيد . فهذه المؤكدات تدل أن أمر الإيمان والربوبية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ، ثم أردف ذلك بقوله تعالى : «إنه بما تعملون خبير» وهو من أعظم المؤكدات ، فإنه تعالى لا يخفى عليه شىء من أعمال عباده ، ففيه وعد للمحسنين ، ووعيد للمكذبين الكافرين . .

١١٢ — فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

١١٣ — وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ .

١١٤ — وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ .

١١٥ — وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

١١٦ — فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ .

١١٧ — وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ .

١١٨ — وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .

١١٩ — إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

١٢٠ — وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

١٢١ — وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ .

١٢٢ — وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ .

١٢٣ — وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

هذه الآيات الإثنتا عشرة هى ختام السورة ، وهى من الآيات الجامعة ، وقد جاءت هذه الآيات إثر تمهيد طويل سيقت فيه أخبار أمم خلت ، وبينت فيه دعوة الرسل وعلاقاتهم مع هذه الأمم ، وما لقى الرسل من جحود وعناد ، وما أصاب الأمم من القوارع والمحن بسبب هذا الجحود والعصيان . وفى هذا القصص عبرة وعظة ، وفيها تحذير من الوقوع فى مثل ما وقعت فيه تلك الأمم ، حتى لا يقع للعرب وغيرهم من العذاب مثلما وقع عليها ، وفيها تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما يلاقيه من الأذى والعناد ، ليثبت على الدعوة ويقوى ويصبر .. وبعد هذا القصص الذى يعد النفوس لقبول الحق ، ويقوى الهمة لامتثال التكاليف ، طلب الله سبحانه الاستقامة ونهى عن الطغيان والظلم ، وطلب العبادة والصبر ، وهذا هو كل الدين على طريق الإجمال . والاستقامة : السير على الطريق المستقيم ، وهو الدين القيم الذى ابتعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من عقائد وأخلاق وعبادات وشرائع ، فهى كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل . ومن الأمور المطلوبة منه صلى الله عليه وسلم مما هو خاص به مثل تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة .

ومنها ما هو مطلوب منه ومن أمته مثل الصلاة والصيام والحج وما إلى ذلك من التكاليف العامة . ومعنى «ومن تاب معك» أى وليستقم من تاب عن الكفر ورجع عنه وصار معك، وليحافظ على ما أمر به ، وليؤده كما أمر به ؛ أمر صلى الله عليه وسلم وأمر أتباعه بالاستقامة ، ونهوا عن الطغيان وهو تجاوز الحد، إما بالإفراط وإما بالتفريط ، فليس لهم أن يحلوا حرامه ولا أن يحرموا حلاله ، وليس لهم أن يغلوا فى الطاعات ، فإن الغلو مذموم ، كما أن التفريط مذموم ، و «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه» «ألا وإن هذا الدين غض طرى ، ألا فأوغلوا فيه برفق» . ليس لهم أن يبدلوا كيفية عبادته ، وليس لهم أن يجتمعوا على عبادة لم يجتمع عليها سلف الأمة ، وليس لهم أن يتجبروا وأن يتكبروا ، وأن يكونوا للناس سادة ، وأن يتخذوا الناس عبيداً ، وليس لهم أن يظلموا أحداً وأن ينالوه فى ماله أو نفسه أو عرضه ؛ كل هذا طغيان نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه ونهيت أمته . وبعد أن أمرهم بالاستقامة ونهاهم عن الطغيان ، حذرهم العاقبة وخوفهم نفسه فقال : «إنه بما تعملون بصير» فهو عليم به وشاهده لا تخفى عليه خافية ، وسيجازى عليه .. والآية تدل على وجوب اتباع النصوص كما هى فى العقائد والعبادات ، وعلى وجوب اجتناب الرأى فيها ، والله سبحانه هو الذى طلب الشىء وطلب أن يكون كما أمر به ، هو العليم بمعانى كلامه ، فإذا لم تكن المعانى اللغوية مما يشهد لها صريح العقل وجب أن يفوض الأمر فيها إلى الله ، والله سبحانه حدد طريقة عبادته ، فليس لأحد أن يدخل الرأى فيها . وفيما عدا العقائد والعبادات مما وضع لإصلاح الاجتماع ونظام الأمم تتبع النصوص ، وتطلب المدارك ، ويصح القياس والاجتهاد ، وتوضع النظم فيما لم يرد فيه نص ، على أن يكون كل نظام غير مخالف لأغراض الكتاب .. ثم نهى الله عز وجل المؤمنين عن الركون إلى الظالمين . والركون إلى الشىء : السكون إليه والميل إليه بالمحبة والاستناد والاعتماد عليه ، ومعاضدة الظالمين ومناصرتهم وحبهم ركون إليهم ، وتحسين أعمالهم لهم وتزيينها للناس ركون إليهم ، والاعتماد عليهم والانتصار بهم

ركون إليهم ، وموالاتهم ركون إليهم ، وإقرارهم على الظلم فى الأعمال العامة ركون إليهم ؛ وكل ذلك منهى عنه ، وقد جعل الله جزاءه النار . وإذا كانت النار جزاء الذى يركن إلى الظالم ، فكيف يكون حال الظالم نفسه ؟ ! والغرض من هذه الآية تقبيح الظلم ، والتنفير منه ، والنهى عنه بهذا الأسلوب القوى، المنفر من الظلم والظالمين . وقد أخبر الله سبحانه أن الذين يركنون إلى الظالمين لا يجدون أولياء وأنصارا يخلصونهم من النار ، وأن الله سبحانه لا يغفر لهم ولا ينصرهم . وهذا معنى قوله : « وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » . ثم يأمر الله عز وجل بإقامة الصلاة ، وإقامة الصلاة : أداؤها على الوجه الأكمل وإدامتها . وبعد أن أمر النبى بالاستقامة ونهى عن الطغيان ، أمر بإقامة الصلاة التى هى أعظم العبادات ، والوسيلة التى يستعان بها على امتثال الأوامر واجتناب النواهى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وهى العبادة المذكرة بالمعبود ، والتى يستحضر فيها جلاله وجماله وعظمته ومجده . وطرفا النهار : الغداة والعشى ، أو البكرة والأصيل . والزلف : ساعات من الليل قريبة من النهار . وقد أجمعوا على أن صلاة الغداة هى صلاة الفجر ، واختلفوا بعد ذلك فى صلاة العشى التى تقع فى الطرف الثانى ؛ فقال بعضهم : هى صلاة الظهر والعصر ، وروى ذلك عن مجاهد والضحاك ومحمد بن كعب القرظى ، وعلى ذلك تكون الآية مشتملة على الصلوات الخمس : الفجر فى الطرف الأول ، والظهر والعصر فى الطرف الثانى ، وصلاة الزلف من الليل وهى صلاة المغرب والعشاء . وقال أبو جعفر : أولى الأقوال عندى أن الصلاة التى فى الطرف الثانى هى صلاة المغرب ، لأنهم حين أجمعوا على أن الأولى صلاة الفجر وهى تقع قبل طلوع الشمس ، وجب أن تكون الثانية هى المغرب لأنها تصلى بعد الغروب . وعن الحسن : بين الله سبحانه مواقيت الصلاة فى القرآن فقال « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » ودلوك الشمس زوالها عن كبد السماء حيث يكون لها فىء فى الأرض فهى صلاة الظهر ، وقال : « وأقم الصلاة طرفى النهار » وهى صلاة الفجر وصلاة

العصر ، ثم قال « وزلفا من الليل » والصلاة المقصودة بذلك صلاة المغرب والعشاء . وعنه صلى الله عليه وسلم « زلفتا الليل المغرب والعشاء » . وقد اختلف العلماء فى الحسنات المرادة فى هذه الآية ؛ فقيل: إن المراد بها الصلوات الخمس ، وروى ذلك عن مجاهد والضحاك وابن عباس لقوله صلى الله عليه وسلم « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن » ، ولقوله « مثل الصلوات الخمس مثل نهر جار على باب أحدكم ينغمس فيه كل يوم خمس مرات فماذا يبقين من درنه »؟ ويقرب هذا المعنى أن قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » جاء عقب الأمر بإقامة الصلاة ، والوعد على إقامتها بالخير الجزيل من الثواب أولى من الوعد به على شىء لم يجر له ذكر من الأعمال الصالحة غيرها . وقيل: إن الحسنات هنا عامة ، ولا شك أن الصلاة من أكبر الحسنات ، كأنه قيل : أقم الصلاة لأنها حسنة من الحسنات والحسنات يذهبن السيئات . والمراد من السيئات هنا صغار الذنوب ، والحسنات يذهبنها إذا اجتنبت الكبائر . وقوله تعالى : « ذلك ذكرى للذاكرين » معناه أن ذلك الوعد الذى وعدت به من أقام الصلاة ، والوعيد الذى أوعدت به على الطغيان ، تذكرة ذكرت بها أقواماً يذكرون الله ، ويخافون عقابه ، ويرجون ثوابه . أما الذين طبع الله على قلوبهم فلا يجيبون داعياً ولا يسمعون زاجرا . ثم يأمر الله عز وجل رسوله الكريم بأن يلزم الصبر ، فيخاطبه بقوله سبحانه : « واصبر » ، أى الزم الصبر على ما تلقاه من أذى قومك ، وعلى ما تسمعه من المكروه . والصبر أفضل الأخلاق وأكمل الحسنات ، ينال به الظفر ، وتدنو الغايات ، وتتحقق المقاصد ، « فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ، بل يوفى لهم الجزاء وهم أحوج ما يكونون إليه . وهنا يعبر الله عز وجل بأسلوب التحضيض مع الأسف والتفجع ، الذى يقع عادة من البشر ، على هذه الأمم التى لم تهتد ، بل غرقت فى الضلالة حتى هلكت ونظير ذلك : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . والمعنى أن هذه الحالة من شأنها أن توجد الأسف والحسرة ، وأن يتمنى المرء أنه وجد فى هذه الأمم خيار

لهم عقل وحزم ينهون عن الفساد فى الأرض ، ويعتبرون بالآيات ، ويتدبرون الدلائل ، ويعرفون ما يكون لهم بالإيمان ، وما يكون عليهم بالكفر والعصيان . يقال : فلان من بقية القوم أى خيارهم ، وأصل ذلك أن الرجل يبقى مما يخرجه أجود ما عنده وأفضله ، فصار ما يبقى مثلا فى الجودة . وقوله : « إلا قليلا » معناه : لكن كان منهم خيار قليلون نهوا عن الفساد فى الأرض ، ولذلك نجاهم الله سبحانه من العذاب ، وأهلك الأكثرين . ومعنى « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » : أى اتبعوا الشيء الذى أترفوا فيه من نعيم الدنيا ولذاتها ، وآثروه على أعمال الآخرة ، وتجبروا وتكبروا ، وتركوا الحق ، فصاروا بذلك مجرمين .

وقد فسر بعضهم الظلم هنا بالشرك ، ومنه قوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » . والمعنى على ذلك : إن الله لا يهلك القرى بسبب الشرك إذا كان أهلها متبعين قواعد العدل والإنصاف ، سائرين على المنهج القويم فى الحكم وفى إصلاح الأرض واستثمارها وجنى منافعها . وقيل : إن المعنى أن الله لا يهلك القرى ظلماً منه إذا كان أهلها مصلحين ، وإذا أهلكها فهو يهلكها لفساد أهلها وبغيهم وظلمهم ، والله سبحانه منزه عن الظلم ، « ولا يظلم ربك أحداً » .

وعندما وجد الإنسان على الأرض كان يعيش عيشة البداوة ، لا هم له إلا أن يحفظ نفسه من عاديات الأنواع الأخرى ، ومن قسوة الطبيعة ، ولا يفكر إلا كيف يعيش ، ليس لديه من المعلومات والمعارف ما به ينظر فى العلل والمعلومات وفى الحق والباطل ، وتدرج بعد ذلك فى التفكير ، وطرق النظر ، فوجد الاختلاف ، وهذا الاختلاف طبيعى فى نوع الإنسان ، مثل اختلاف أمزجته فى الطعام والشراب وما يحب ويكره . وليس حاله كحال الملائكة خلقوا بطبعهم عارفين عابدين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، ولا كجماعة النمل أو النحل ألهمت نوعا من النظام تسير عليه . وقد كان الله سبحانه قادرا على أن يخلق الإنسان كما خلق الملائكة وكما خلق النمل يسير على نظام ملجىء يجعله متفقا فى الدين والعقيدة والرأى والعمل ،

ولكنه لم يخلقه هكذا ، بل خلقه مختارا مريدا متمكنا ، وخلقه مفكرا مدبرا ، ووكله إلى قواه من عقل وإرادة واختيار بعد أن أرشده ونصب له الأدلة من الكون ، وأقام له البينات فى ألواح الوجود ، ثم أتم عليه النعمة ، وأكمل المنة ، وأرسل الرسل تترى ، وأنزل الكتب فيها الهدى وفيها الحق ، وفيها الرشاد ، وهذا كله من شأنه أن يوجد الاختلاف . فالناس على هذا لايزالون مختلفين فى وجود الخالق ، وفى إرسال الرسل ، وفى طرق العلم ، ولا يزالون مختلفين فى الأديان ، بل وفى الدين الواحد . والاختلاف فى الرأى والعقيدة مثل الاختلاف فى الطبائع لازم من لوازم خلق النوع الإنسانى على ما خلق عليه ، فهو صائر إلى الاختلاف لا محالة ، وكأن الله خلقه لهذا الاختلاف ؛ لذلك قال الله سبحانه : « ولذلك خلقهم » . وقد قضى الله سبحانه ـ بعد أن بين للإنسان طريق الخير وطريق الشر وأتم نعمته عليه من إقامة الأدلة فى السموات والأرض ومن إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وبعد أن وعد الطائعين بالرحمة والثواب والنعيم ، وأوعد العصاة بالنقمة والغضب والعذاب الأليم ـ أن يكون الناس والجن فريقين : فريق الطائعين ينعمون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وفريق الأشقياء يعذبون فى جهنم تلفح وجوههم النار ، وهذا القضاء هو كلمة الله التى تمت ولا راد لها ، ولا معقب لكلمته ولا لحكمه . وهذا معنى قوله سبحانه : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » . وبعد ذلك يقول الله عز وجل الكريم : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » ، والمعنى : ونقص عليك يا محمد كل نوع من أنباء الرسل مما نثبت به فؤادك ونقويه ونجعله ثابتا كالجبال الرسيات ، لاتزعزعه الخطوب ، ولا تنال منه المحن والنوائب . وهذه الأنواع هى الأخبار الخاصة بعلاقاتهم مع أممهم فى تبليغ الدعوة إلى الدين الحق ، ومحاجتهم بالأدلة القاطعة ، وما لقى الرسل من هذه الأمم من عناد وجحود وجدل بالباطل ، وما فعله الله بهذه الأمم من إهلاك العصاة وإنجاء الطائعين . ولم يقص الله سبحانه من أنباء الرسل

الأخبار الخاصة بهم ، والأخبار التى لا علاقة لها بالدعوة ، والتى لا تفيد عبرة وعظة وتنبيها ، ومثل هذه الأخبار الخاصة توجد فى غير القرآن . . وهذه القصص تدل على ما لقى الرسل من العناد والجحود والإسراف فى العصيان والعدوان ، وتدل على أن الرسل مع هذاكله صبروا وثابروا ونجحوا فى الدعوة إلى الواحد المعبود ، وبلغوا المقصود ؛ فبهذا تقوى عزيمة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبت ، ويحمله ذلك على الصبر والمثابرة ، وعلى تشمير ساعد الجد فى التبليغ واحتمال الأذى . وقد قال فى آية أخرى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ،كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » ، وهذه الأنباء قصت الأمور كما وقعت من غير تحريف ومن غير زيادة ، ففيها الحق واشتملت على كل ما دعا إليه الرسل من توحيد الله وإفراده بالعبودية ، ومن إقامة العدل فى الأرض ، وإصلاح الجماعة البشرية ، ونفى البغى والفساد والطغيان ، وهذاكله حق جاء فى هذه الأخبار ، وفيها تخويف وموعظة ، وفيها تذكرة للمؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا . ثم يأمر الله عز وجل النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار اعملوا على مكانتكم ؛ أى على حالتكم التى أنتم عليها ، وإنى عامل على مكانتى وطريقتى وحالتى ، وانتظروا ما أنتم منتظرونه من فشل دعوتى وحبوطها ، ومن موتى قبل أن أتم الدعوة وقبل أن يسيح الإسلام فى الأرض ، وقبل أن أظفر بهدم الأصنام وإزاحة الشرك ؛ وإنى منتظر ما وعدنى الله سبحانه به من تمكين الدين ، ومن الأمن والطمأنينة بعد الخوف ؛ ومنتظر أن أمحو الشرك ، وأكسر الأصنام ، وأطهر الأرض منها ؛ ومنتظر أن أعمرها بالتوحيد والإخلاص لله ، وفى هذه الآية من القوة فى التثبيت ما يزيد على التثبيت الذى حصل للنبى صلى الله عليه وسلم من ذكر أخبار الأولين، وفيها تهديد قوى للمشركين لا شك أنه أفعل فى فت عضدهم وكسر شوكتهم من كل تهديد . فلله غيب السموات ، علم ما غاب فى السموات

والأرض لله وحده ، وإذا كان يعلم ماخفى وغاب ، فهو يعلم ما ظهر وحضر ، وكيف لا يعلم كل ذرة فى السموات والأرض وهو الذى خلقها وقدرها وأرادها ؟ فعلمه محيط بكل كلى وكل جزئى ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وإليه يرجع كل شىء فى السموات والأرض ، لأن كل شىء فيها محتاج إلى مدد الوجود منه فى كل لحظة ، ولو أنه انقطع عنه الفيض ما بقى ، فقدرته شاملة كما أن علمه شامل ؛ لذلك من حقه وحده أن يعبد ، ومن حقه وحده أن يتوكل عليه ، فانه لا يستطيع أحد غيره أن يضر أو ينفع ، وهو غير غافل عن أعمال عباده بل محيط بها ويعلمها .

وهذه الخاتمة من أجل خواتم السور ، وصف الله سبحانه نفسه فيها بأكمل الصفات الثبوتية ، وهى العلم الشامل ، والقدرة الكاملة ، وهما منبع الخير والنعمة على العالم ، وبهما يتجلى جلال الحق وجماله . وقد جاءت آيات الأنعام مفصلة لهاتين الصفتين أكمل تفصيل . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

إن الإنسان فى حاجة إلى معرفة الله ، ومعرفة الله بحقيقته وكنهه غير ميسورة ، فهو إنما يعرف بصفاته ، ومن أجل صفاته صفتا العلم والقدرة ،

وكما أنه فى حاجة إلى تكميل نفسه بالمعارف فهو فى حاجة إلى تطهيرها من الأدران ، وإلى وصلها بعالم القدس ، وذلك يكون بالعبادات البدنية ، وبالعبادات الروحية ؛ وأفضل العبادات البدنية بالحركات الصلاة ، وبالسكون الصوم . وأنفع البر الصدقة . والعبادة الروحية تأمل وفكر فى عجائب الصنع ، وتدبر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ولا تكون العبادة خالصة إلا بإفراده وحده بالتوجه والقصد وطرح كل ما فى الوجود من المخلوقات ، وذلك هو الإخلاص فى العبادة ، المطلوب بقوله سبحانه : « إياك نعبد » . وإخلاص العبادة لله ، وهو ثمرة التوحيد ، ينتج ثمرة أخرى فى الأعمال هى التوكل على الله سبحانه ، وهو المطلوب بقوله : « وإياك نستعين » ومعنى « توكل عليه » اجعله وكيلا ، فإنك إن جعلته وكيلا وجدت إلى الخير سبيلا ؛ والله يقول : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أى كافيه ومراعيه ، وقال « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » والعزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بحماه ، والحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . والتوكل ثمرة من ثمرات الإيمان ، وثمرات التوحيد ، فإذا اعتقد شخص أنه الواحد القهار الفعال لما يريد ، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه الحكيم العليم ، انصرفت نفسه عن الأغيار ، واتجه بكليته إلى الواحد القهار ، وأيقن أنه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وأنه الذى ينزل الغيث ، وينبت الزرع ، وبيده مقاليد كل شىء . والوكالة تستدعى الثقة بالوكيل والطمأنينة إليه ، واعتقاد القدرة فيه وعدم التقصير . وله درجات تتبع قوة الإيمان والمراقبة ، فمن الناس من يكون حاله كحال الصبى مع أمه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ؛ ومن الناس من يرضى بحاله ولا يفزع ولا يدعو ولا يتضرع اعتقادا منه بأن الله يطلبه وإن لم يطلبه ، ويفتح عليه أبواب الخير وإن لم يحرك مغاليقها ، وهو مقام يسكت فيه المؤمن عن الدعاء ، ويصرف النظر عن الأسباب . وليس التوكل منافياً للأسباب جميعها ، فإن ترك الأسباب جميعها نقض للشريعة وترك

للسنة ، والذى لا يحرث الأرض لا تنبت أرضه زرعا ، والذى لا يسقيها لا تنبت له زرعا . فالأسباب والسنن التى ربط الله بها مسبباتها لا يجوز إغفالها والتمسك بها لا ينقض الوكالة ، فإن الموكل يقدم البينات والحجج للوكيل ، وهى أسباب ، وذلك غير مناف للثقة به والطمأنينة اليه ؛ والله يقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ، والطير تتوكل على الله ، وهى تغدو خماصا وتروح بطانا ، وتلك أسباب سنها الله . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماصا وتروح بطانا » . لكن الذى ينافى التوكل هو الاعتماد على الأسباب الموهومة ، أو الاعتماد على الأسباب الطبيعية مع ترك الاعتماد على الله . والعبادة هى التى تذكر المعبود وتثمر التوكل ؛ لذلك ذكرت العبادة قبل التوكل ؛ لذلك ذكرت العبادة قبل التوكل ، وكانا معاً ثمرة الاعتقاد بأن لله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله وعلى كل حال فالمطلوب من المؤمن أن يعتقد أنه لا أحد من الخلق يضر وينفع إلا بإذن الله ، وأن يكون حاله دائما حالة المطمئن الواثق بالله الذى لا يدعو أحداً غيره فى جلب الخير ودفع السوء ، وألا يتمسك إلا بالأسباب التى سنها الله ، وليس منها اتخاذ الواسطة بين العبد والرب ، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الجامعة الرائعة الكريمة : « فاستقم » أى على دين ربك « كما أمرت » ، والأمر فى ذلك للتأكيد ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها ، فهو كقولك للقائم : « قم حتى آتيك » أى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك ، وتوطئة لقوله تعالى : « ومن تاب معك » أى وليستقم أيضاً على دين الله والعمل بطاعته من آمن معك ؛ قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ، وأشار صلى الله عليه وسلم إلى شدة الاستقامة بقوله : شيبتنى هود وأخواتها ،

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق من هذه الآية ، وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال : قل آمنت بالله ورسوله ، ثم استقم .. وقال الرازى : « إن هذه الآية أصل عظيم فى الشريعة ، وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها ، لقوله تعالى : فاستقم كما أمرت ، وكذا القول فى كل ما ورد أمر الله تعالى به .

ولما كانت الاستقامة هى التوسط بين طرفى الإفراط نهى عن الإفراط بقوله تعالى : « ولا تطغوا » أى تتجاوزوا الحد فيما أمرتم أو نهيتم عنه بالزيادة إفراطاً ، فإن الله تعالى إنما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته إلى ذلك ، ولن تطيقوا أن تقدروا الله حق قدره ، والدين متين ولن يشاد أحد إلا غلبه ، كما ورد عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . فسددوا وقاربوا وأيسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة ، فقوله صلى الله عليه وسلم : إن الدين يسر ضد العسر ، فأراد به التسهيل فى الدين وترك التشديد ؛ فإن هذا الدين مع يسره وسهولته قوى ، وقوله « وسددوا » أى اقصدوا السداد فى الأمور وهو الصواب ، « وقاربوا » : أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير ؛ والغدوة هى : الرواح بكرة ، والرواح الرجوع عشاء ، والمراد منه : اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضاً ، وقوله « واستعينوا بشىء من الدلجة » إشارة إلى تقليله .

ولما نهى تعالى عن الإفراط وهو الزيادة تصريحا أفهم النهى عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحا من باب أولى ، ثم علل ذلك مؤكداً تنزيلا لمن يفرط أو يفرط منزلة المنكر فقال : « إنه بما تعملون بصير » أى عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شىء منها فيجازيكم عليها « ولا تركنوا » أى تميلوا « إلى الذين ظلموا » أدنى ميل « فتمسكم النار » أى تصيبكم بحرها ، والنهى

يتناول الانخراط في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومراقبتهم والرضاء بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم وتطلع العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم ، لقوله تعالى « ولا تركنوا » والركون هو الميل اليسير ، وقال صلى الله عليه وسلم : من دعى لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه ، وقوله تعالى « وما لكم من دون الله من أولياء » أى من أعوان وأنصار يمنعونكم من عذابه ، وهو حال من قوله « فتمسكم النار » أى وأنتم على هذه الحالة « ثم لا تنصرون » أى لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله في يوم القيامة ، ففي الآية وعيد إلى من ركن للظلمة من أن تمسه فكيف يكون حال الظالم نفسه .

ولما أمر الله تعالى بالاستقامة أردفه بالأمر بالصلاة بقوله تعالى « وأقم الصلاة » وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله تعالى هو الصلاة ؛ وقوله تعالى « طرفي النهار » أى الغداة والعشى أى الصبح والظهر والعصر ، وقوله تعالى « وزلفا » جمع زلفة أى طائفة « من الليل » أى المغرب والعشاء « إن الحسنات » كالصلوات الخمس « يذهبن » أى يكفرن « السيئات » أى الذنوب الصغائر ، لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، وزاد في رواية أخرى : ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شيء ، فقال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا ، وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل منه خمس مرات ، وعن الحسن : الحسنات : هي قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر..

وسبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذى عن أبى اليسر بن عمرو قال : أتتنى امرأة وزوجها بعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى بعث فقالت : بعنى بدرهم تمراً قال : فأعجبتنى فقلت : إن فى البيت تمرا هو أطيب من هذا فالحقينى ، فدخلت معى البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : أخنت رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هـذا ؟ حتى تمنى أن لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار ، وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى الله إليه : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » إلى قوله تعالى : « ذلك ذكرى للذاكرين » أى عظة للمتقين ، قال أبو اليسر : فأتيته فقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ قال : بل للناس عامة ، قال الترمذى : هـذا حديث حسن غريب ؛ وعن عبد الله أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت ، فقال رجل : يا رسول الله ألهذا خاصة ؟ فقال : بل للناس كافة ، وعن معاذ بن جبل قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله : أرأيت رجلا أتى المرأة ليس بينهما معرفة ، وليس يأتى الرجل إلى امرأة شيئاً إلا تدانى حواليها إلا أنه لم يجامعها ، قال : فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلى، قال معاذ : فقلت يا رسول الله : أهى له خاصة أو للمؤمنين عامة ؟ قال : بل للمؤمنين عامة ؛ هذا والصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحة ، مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر ، وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح بثلاثة شروط : الأول : الإقلاع من الذنب كله ، الثانى : الندم على فعله ، الثالث : العزم التام على أن لا يعود إليه فى المستقبل . فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة وكانت مقبولة ، والإشارة فى قوله تعالى : « ذلك ذكرى » إلى ما تقدم ذكره من قوله : فا كما أمرت ـ إلى ههنا ،ستقم

وقيل : هو إشارة إلى القرآن ، وقوله تعالى : « واصبر » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى واصبر يا محمد على أذى قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى : وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها « فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » أى أجر أعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على أن الصلاة والصبر لا يعتد بهما دون الإخلاص لله .

ولما بين الله تعالى ما لحق بالأمم السابقة من العذاب والدمار والهلاك ، من نوح إلى موسى بين أن السبب فيه أمران :

١ — الأول أنهم ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الأرض ، فقال تعالى : « فلولا » أى فهلا « كان من القرون » أى الأمم الماضية « من قبلكم أولو بقية » أى أصحاب رأى وخير وفضل « ينهون عن الفساد فى الأرض » وسمى أولو الفضل والجود بقية لأن الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ، ويقال : فلان من بقية القوم أى من خيارهم ؛ ويجوز أن تكون البقية بمعنى التقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة من سخط الله تعالى وعقابه ، « إلا قليلا ممن أنجينا منهم » استثناء منقطع معناه : ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تركوا النهى عنه .

٢ — السبب الثانى لنزول الدمار بالأمم السابقة هو ما ذكره الله تعالى فى قوله : «واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » أى ما انغمسوا فيه من الشهوات ، واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك « وكانوا مجرمين » أى كافرين .. وقوله تعالى : واتبع الذين ظلموا ـ إن كان معناه : واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر ؛ لأن المعنى : إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا ، وإن كان معناه : اتبعوا جزاء الإتراف فالواو للحال ، فكأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم ، وقوله تعالى : « وكانوا مجرمين » عطف على « أترفوا » أى اتبعوا الإتراف

وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام ، أو أنه معطوف على « اتبعوا » أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك .

ثم بين تعالى أنه ما أهلك القرى بظلم بقوله تعالى « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم » أى بشرك « وأهلها مصلحون » فيما بينهم ، والمعنى : أنه لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم ، بل إن الدمار لا يترك لأجل كون القوم معتقدين الشرك ، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا ساءوا فى المعاملات وسعوا فى الإيذاء والظلم ، وفى الأثر : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم . وإنما نزل بقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب الدمار ، لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق « ولو شاء ربك لجعل الناس » أى أهل مكة « أمة واحدة » أى على الإسلام ، كقوله تعالى : إن هذه أمتكم أمة واحدة « ولا يزالون مختلفين » أى على أديان شتى ما بين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم ، وكل أهل دين من هذه الأديان اختلفوا فى دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا حد له . . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تفترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة . ، وفى رواية : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة ، والمراد بهذه الفرق أهل البدع والأهواء ، والمراد بالواحدة هى ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله . ، والدليل على أن الاختلاف فى الأديان لا فى الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال مثلا ، هو ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » ، فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية أيضاً ، وهو قوله تعالى « إلا من رحم ربك » أى إلا من أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه ، فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه ذلك . وفى هذه الآية دلالة على أن الهداية والإيمان لا يحصلان إلا بتوفيق الله تعالى ؛ لأن تلك الرحمة ليست عبارة

عن إعطاء القدرة والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العذر؛ فإن ذلك حاصل فى حق الكفار؛ فلم يبق إلا أن يقال: إن تلك الرحمة هو أنه سبحانه وتعالى خلق فى المهتدى تلك الهداية والمعرفة، ولذلك خلقهم، أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وخلق أهل الرحمة للرحمة.. روى عن ابن عباس أنه قال: خلق أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا، وخلق أهل العذاب لأجل أن يختلفوا، وخلق الجنة وخلق لها أهلا، وخلق النار وخلق لها أهلا، فالله تعالى خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين، فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم إلى النار، وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل الحق ومصيرهم إلى الجنة، ويدل لذلك قوله تعالى: «وتمت كلمة ربك» وهى «لأملأن جهنم من الجنة» أى الجن «والناس أجمعين» وهذا صريح بأن الله تعالى خلق أقواماً للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة، وخلق أقواماً للضلال والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية.

ولما ذكر الله تعالى القصص الكثيرة فى هذه السورة، ذكر نوعين من الفائدة لها:

١ — أولها: تثبيت الفؤاد بقوله «وكلا» أى وكل نبأ «نقص عليك من أنباء الرسل» أى نخبرك به، وهو بيان لـ (كلا)، وقوله تعالى «ما نثبت به فؤادك» بدل من «كلا» ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى صلوات الله عليه. وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيها مشاركا خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت، وإذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

٢ — الفائدة الثانية: قوله تعالى «وجاءك فى هذه الحق» أى فى السورة وعليه الأكثر. أو فى هذه الأنباء المقصوصة فيها. وقال الحسن: فى هذه

الدنيا ، وقال الرازى : وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع ؛ لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها .. هذا والقرآن كله حق وصدق، وإنما خص الله عز وجل هذه السورة بذلك تشريفا لها ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ، وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار ، فذكر تعالى أمورا ثلاثة : الحق ، والموعظة والذكرى ؛ أما الحق فهو الإشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد ، وأما الموعظة فهى إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال النافذة الصالحة فى الدار الآخرة ، ولما بلغ تعالى الفائدة فى الإنذار والترغيب والترهيب ، أتبع ذلك بأن قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم » أى حالتكم ، وفيه وعيد وتهديد وإن كانت صيغته صيغة الأمر فهو كقوله تعالى لإبليس : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » « إنا عاملون » على حالتنا التى أمرنا بها ربنا « وانتظروا » أى ما يعدكم الشيطان به من الخذلان « إنا منتظرون » أى ما يحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه ، وقيل : « إنا منتظرون » ما وعدنا الرحمن به من أنواع النعم والإحسان . . « ولله غيب السموات والأرض » أى علم ما غاب فيهما ، فعلمه نافذ فى جميع مخلوقاته ، « وإليه » أى لا إلى غيره « يرجع الأمر كله » أى إليه يرجع أمر الخلائق كلهم فى الدنيا والآخرة ، « فاعبده » أى لا تشتغل بعبادة غيره ، « وتوكل عليه » أى ثق به فى جميع أمورك « وما ربك بغافل عما تعملون » أى فيجازى كلا على عمله : المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

* * *

وبهذا تنتهى سورة هود عليه السلام ، هذه السورة الكريمة التى اشتملت على الحق والذكرى والموعظة والهداية ، وعلى بيان مواضع العبرة والعظة ، فى تاريخ الأمم والشعوب ، وصدق الله العظيم ، ومن أصدق من الله حديثا .

وبانتهائها ينتهى الربع الأخير من سورة هود عليه السلام ، وفيه تذييل السورة وبيان لسر دعوتها ولسر ما ورد فيها من قصص ، ودعوة

للرسول والمؤمنين به بالاستقامة وبالعدل وبعدم الركون إلى الظلم والظالمين ، وبعبادة الله وحده وبالتوكل عليه ؛ وفيه تقرير لأمر البعث والجزاء ، وبأن كل إنسان سوف يلقى جزاء ما عمل : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .. وفى هذا الربع أمر بإقامة الصلاة ، وبالعمل الصالح ، فبه يغفر الله السيئات ، ويمحو الخطيئات ، وبالصبر ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

وفيه تقرير لأن ما يصيب الناس من وبال ودمار فبسبب أنفسهم ، وبظلمهم لها ، لا بظلم الله إياهم ، ولأن حياة الأمم تتوقف على العدل والإصلاح ، فما كان الله ليهلك الأمم بظلم وأهلها مصلحون . وفى الربع أيضا تقرير أن من طبيعة الأمم الاختلاف فى العقائد والأديان ، وأن من ثمرة هذا الاختلاف وجود المؤمن والكافر والموحد والمشرك ، فلا يوجد إيمان إلا وبجانبه كفر ، ولا يوجد توحيد إلا ومعه شرك ، سنة الله فى الحياة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين ، إلا من رحم الله ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من العصاة ، من الجن والناس أجمعين . .

نظرة عامة فى سورة هود

(١)

سورة هود عليه السلام سورة جامعة مانعة ، سورة ساحرة رائعة ، فيها إعجاز وبلاغة ، وفيها إبداع ومتعة ، وفيها صور فنية لا يمكن لأحد أن يحاكيها ، ولا أن يأتى بضريب لها . إنها سورة هداية وعظة ، وعبرة وقدوة . وسورة كل ما فيها تمجيد للإسلام وكتاب الإسلام ونبى الإسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام . .

(٢)

وتبدأ هذه السورة بتمجيد كتاب الله الحكيم ، ووصفه بالإحكام والتفصيل ، وبأنه منزل من الله عز وجل ، وبأنه اشتمل على أصول رسالة الإسلام ، وفى مقدمتها عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، وبهذا بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه بشيراً ونذيراً ، ثم توصى السورة باستغفار الله والتوبة إليه ، فالله عز وجل ولى المؤمنين ، ورازق الصالحين ، وهو الذى يمتع المخلصين متاعا حسنا فى الدنيا ، ثم يجازيهم فى الآخرة جزاء حسنا ، فيؤت كل ذى فضل فضله . . أما الكافرون والذين تولوا وأعرضوا عن قبول الرسالة ، فلهم عذاب يوم كبير ، هو يوم القيامة ، وما أشد عذابه .. ولا ريب فى ذلك ، لاريب فى أنه يجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، يوم القيامة ، فإن إليه وحده ، مصير الناس جميعا يوم القيامة ، ولماذا لا يكون إليه مصيرهم ليجازى كلا بما عمل وهو على كل شىء قدير ؟ . . هذا نذير للمشركين ، ومهما اجتهدوا فى الإعراض ، وبالغوا فى النفور من سماع الرسالة ، فسوف يأتيهم الحق ويعلمون قدرة الله الواسعة ، ومهما أنكروا علم الله بما يسرون وما يعلنون فسوف يعلمون علم اليقين بأن الله يعلم كل شىء لا يخفى عليه خافية ، وهو عز وجل عليم بذات الصدور .

(٣)

وفى الربع الثانى من سورة هود حديث عن عظمة الله وقدرته ، لتأكيد أمر البعث ، وصدق الرسالة ، مهما حاول المشركون إنكار البعث ، وتمادوا فى تكذيب أمره ، إنهم هم المخطئون وهم الكاذبون وهم الضالون المضلون . وهنا يذكر الله عز وجل استعجال المشركين لنزول العذاب بهم ، لأنهم كانوا كافرين بالبعث والحساب ، فسواء عليهم أنزل بهم العذاب أم لم ينزل ، فنبهم الله عز وجل هنا إلى أنه نازل بهم لا محالة ، ويوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وسينزل بهم وبال ما كانوا منه يسخرون . وهنا يبين الله عز وجل ضجر الإنسان ويأسه وسخطه لأن أذهب الله عنه النعمة ، وكفره وشركه إذا حلت به بعد المحنة النعمة .. وقليل هم الذين يذكرون الله فى الرخاء ، إنهم هم المؤمنون الصالحون الصابرون ، فأولئك لهم مغفرة وأجر كبير . . وهنا يبين الله عز وجل عنت المشركين وجهلهم واقتراحهم أن ينزل على الرسول الآيات والمعجزات ليؤمنوا برسالته ، ويتبعوا شريعته ، ويذكر الله عز وجل ضيق صدر الرسول بذلك ، وينبهه عز وجل إلى أنه إنما هو نذير وبشير للناس ؛ أما الوكيل عليهم ، والمتولى أمورهم ، والذى بيده هدايتهم ، فهو الله عز وجل .. ثم يتحدى الله جل جلاله المشركين بالقرآن الكريم ، فيعجزون ويبهتون ويحارون ويخرسون . . وكل هذا دليل على أن القرآن إنما أنزل من السماء بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو .. وإذا كان ذلك كذلك فهل يسلم هؤلاء المشركون ، ويؤمن هؤلاء المرتابون؟.. ثم يصف الله عز وجل طلاب الدنيا وهمتهم العاجزة عن بلوغ المجد وفهم رسالات السماء ، كما يشير إلى طلاب المعرفة والعقيدة الصحيحة ومبادرتهم إلى الإيمان بالله وبرسالة محمد وشريعته ، وبالقرآن الكريم.. ومن يكفر بالقرآن وبمحمد وبالإسلام فالنار موعده . . إن محمدا صادق فيما بلغ به عن ربه ، إنه يخشى الله ، وليس هناك أحد أظلم ممن كذب على الله ، وافترى عليه الأباطيل ، ونسب إليه ما لم يوح به إلى أحد ؛ إن الذين يكذبون على الله سوف يشهد عليهم الأشهاد ويكذبونهم ويلعنونهم

يوم القيامة ، إنهم بالآخرة كافرون ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ، إنهم لا يعجزون الله فى قليل ولا فى كثير ، وليس لهم من دون الله من أولياء ، وسوف يضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، إنهم كانوا فى الدنيا بمنزلة من فقد السمع وفقد البصر ، فهو لا يسمع الحق ولا ينظره ، إنه ضال مضل ، إنه حيوان ، يعيش لا إنسان يفكر ، إنه فى منزلة تافهة دون منزلة أصحاب العقائد والمؤمنين بالرسالات وبالمثل وبالحياة . إنهم هم الذين خسروا أنفسهم : خسروا ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وغابت عنهم يوم القيامة آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، لقد ضل عنهم ما كانوا يفترون . لاريب .. لاريب أنهم فى الآخرة هم أشد الناس خسرانا ، وأشدهم ضلالا وحيرة ، وأشدهم عذابا ، أما المؤمنون الصالحون الخاشعون ، فأولئك أصحاب المثل وأصحاب الأهداف الكريمة ، وهم أصحاب الجنة ، وهم فيها خالدون .

(٤)

وفى الربع الثالث من هذه السورة الكريمة يضرب الله المثل للفريقين : الكافرين والمؤمنين . للمشركين والموحدين ، يضرب المثل رائعاً جليلا عظيما فيمثل الكافر بالأعمى والأصم ، ويمثل المؤمن بالبصير والسميع ، وهل يستويان مثلا .. أفلا يتذكر الجاهلون ، ويتعظ المعتبرون ؟

وفى هذا الربع يذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام ، يذكرها بعبرها وعظاتها ، بمآسيها وأحداثها ، بصورها وألوانها ؛ يذكر رسالة الله إليه ، ودعوته لقومه ليؤمنوا بالله وبرسالته ، وكفر قومه به ، وإلحاحهم فى الكفر ، وإلحاحه فى الدعوة .. وطلبهم نزول ما وعدهم به من العذاب ، ووعد الله له بإهلاك قومه وبأن ينجى نوحا ومن آمن معه . ثم يذكر الله عز وجل إلهامه لنوح ليصنع السفينة يمخر بها فى الماء عند مجىء الطوفان ، وما صنعه نوح من وضعه فى السفينة من كل حى زوجين اثنين ، ويشير إلى مجىء الطوفان العظيم الذى لم يحدث له مثيل فى تاريخ الإنسان والحياة .

وفى الربع الرابع يذكر الله عز وجل ركوب نوح ومن آمن معه فى السفينة ، وسيرها فى الماء بين أمواج كالجبال ، وكان نوح عليه السلام هو أول من ركب الماء ، ومن صنع السفن ؛ ويشير الله عز وجل إلى غرق ابن نوح لكفره وعصيانه ، ثم ينتهى الطوفان ، وينقطع الماء ، وتجف الأرض ، وتهبط السفينة على الجودى ، ونزل نوح هو ومن معه على الأرض لعمارتها من جديد ، ورعاية الله ترعاه حتى توفاه الله .

وفى هذا الربع ـ الرابع أيضاً ـ يذكر الله عز وجل قصة هود مع قوم عاد وكفرهم وإهلاك الله إياهم .

وفى الربع الخامس يذكر قصة صالح مع ثمود ، وقصة إبراهيم وبشارة الملائكة له ولزوجه بمولد ابنهما إسحاق ، وفرحه هو وسارة بهذه البشرى .. ثم يذكر قصة لوط مع قومه ، وتدمير الله عز وجل لهم .

وفى الربع السادس يذكر الله عز وجل قصة شعيب مع أهل مدين وهلاكهم بسبب كفرهم وعصيانهم . . ويذكر كذلك فى إيجاز شديد قصة موسى مع فرعون وقومه .

ويلتفت القرآن الكريم فيذكر أن آثار هذه الأمم البائدة بعضها ما يزال قائما يشير إليها ، ويدل عليها ، ويندد بكفرها ، كما يدل على حضارتها ، وأن تدمير الله عز وجل لهذه الأمم ليس ظلما من الله ، فهم الذين ظلموا أنفسهم ، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا ، ومازادتهم آلهتهم التى عبدوها من دون الله إلا خسرانا فوق خسران ، وهلاكا مع هلاكهم . . ويبين الله عز وجل أن أخذه للأمم الكافرة أخذ شديد ، وأن فى مصائر هذه الأمم آيات وعظات لمن يخافون الله وعذاب يوم القيامة . . هذا اليوم المشهود ، اليوم المجموع له الناس ، اليوم الذى أخره الله عز وجل لأجل معدود ، اليوم الذى يسعد فيه المؤمنون ، ويشقى فيه الكافرون ، ويا بؤس هذا الشقاء الأليم الأبدى .

وفى الربع السابع يذكر الله عز وجل سعادة المؤمنين الصالحين فى الآخرة

عند الله ، إنهم فى الجنة ، وهم خالدون فيها دائما أبدا . . وهنا يقطع القرآن الكريم لبس كل حائر ، فيؤكد أن المشركين ، مشركى مكة ، إنما يعبدون الأوثان كما كان يعبدها آباؤهم من قبل ، والله عز وجل سيوفيهم جزاءهم فى الآخرة غير منقوص . . إنهم خالفوا فى الدين ، كما خالف اليهود واختلفوا من قبل . . ويلتفت الله عز وجل إلى الرسول والمؤمنين معه ، فيطالبهم بالاستقامة وترك الطغيان ، ويأمرهم بأن لا يركنوا إلى الظالمين ، وإلا مستهم النار بعذابها الأليم ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ويأمرهم الله عز وجل بإقامة الصلاة ، وبأن يتبعوا السيئة بالحسنة ، ويأمرهم بالصبر ، وبترقب الجزاء من الله ، فالله عز وجل هو الذى يجزى المحسن بإحسانه ، إنه لا يضيع أجر المحسنين . . وينبه الله عز وجل إلى موضع العبرة مما ذكره من قصص الأمم البائدة ، وهو أن الضلال والشرك والغى نتيجتها الدمار والوبال والنكال ، وأن الأمم البائدة لم تجد من ينصحها ويعظها ويحول بينها وبين الغى والباطل والبهتان ، لقد كان هناك رضاء بالرذيلة واتباع لها وعمل بها ، ولم يكن هناك من الراشدين الصالحين إلا القليل ، ممن نجاهم الله جزاء إيمانهم وصلاحهم ، أما الأكثرون فقد كانوا على الضلال ، واتبعوا الباطل والغى ، وساروا على طريقهم المرسوم من الكفر والترف والإجرام ، فأهلكهم الله بظلمهم وفسادهم وإجرامهم . . وما كان الله ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . . إن الله خلق الناس ، وجعل منهم المؤمن والكافر ، والصالح والطالح ، والتقى والفاجر ، إنه خلقهم مختلفين ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم الله .. ويبين الله عز وجل أن قصص الأنبياء التى يرد ذكرها فى الكتاب الحكيم إنما هى لتثبيت فؤاد الرسول والمؤمنين معه ، ولتذكير المؤمنين وضربها مثلا عبرة وعظة يعتبر بها المعتبرون ، وينفر منها الكافرون . . ولكن لا ضير ، فإلى الله مصير هؤلاء وهؤلاء ، وإليه يرجع الأمر كله ... وفى ختام السورة ، يأمر الله عز وجل كل مسلم بعبادته ، وبالتوكل عليه ، فالله مطلع على عمل العاملين ومجازيهم عليه : إحسانا بإحسان وسوءاً بسوء ، وما ربك بغافل عما يعملون .

(٥)

إن سورة هود لتحتوى على أعظم النذر . وأبلغ العظات . وفيها تمجيد القرآن ولعظمته ، وفيها دعوة إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، وبالبعث والجزاء ، وفيها تحذير وترهيب وترغيب ، وفيها ذكر لقصص أنبياء كثيرين كفرت أممهم برسالاتهم، وفيها دعوة الرسول صلوات الله عليه لإبلاغ الرسالة والصبر على أذى قومه وعنادهم وبغيهم .

وهى من السور المكية ، ومن السور التى بدئت بتمجيد شأن القرآن الكريم ، شأنها فى ذلك شأن يوسف ويونس والأعراف . . ومن السور التى بدئت بتمجيد شأن القرآن الكريم سورة آل عمران وسورة البقرة وهما مدنيتان .

والآية الكريمة « وقال اركبوا فيها » وما بعدها من آيات ، يستشهد بها بها علماء البلاغة فى باب بلاغة الأسلوب ، وليس وراء بلاغة القرآن بلاغة ، وهو كله مثل رفيع من أمثلة البلاغة النادرة ، والفصاحة الساحرة ، والله ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق ، وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

(١٢)

ســـورة يوسف

تمهيد

(١)

نزلت سورة يوسف بعد سورة هود ، كما نزلت هود بعد يونس ، والسور الثلاث مكية ، وقد نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، فتكون السور الثلاث قد نزلت كلها بعد الإسراء ، وقبيل الهجرة ، وسميت السور الثلاث بأسماء بعض الأنبياء ، يونس ، هود ، يوسف ، عليهم السلام . . وسورة يوسف تشتمل على مائة وإحدى عشرة آية ، وهي كلها في قصة يوسف عليه السلام .

وما قيل من أن الثلاث الآيات الأولى منها مدنيات لا تصح روايته ، ولا يظهر له وجه ، وهو يخل بنظم الكلام ، وقد نقله صاحب الإتقان وقال : وهو واه جدا فلا يلتفت إليه ، ومن العجب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف ويزاد عليه الآية السابعة . .

والمناسبة بين سورة يوسف وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل عليهم السلام ، ومن الاستدلال في كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى ، دالا على رسالة محمد خاتم النبيين بآيتين متشابهتين ، ففي آخر قصة نوح : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » وفي آخر سورة يوسف عليه السلام « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » ، وإشارة التأنيث في الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة ، وقيل : السورة ، وإشارة التذكير في الثانية لقوله تعالى في أول السورة : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ، والفرق بين قصتها وقصص الرسل في التي قبلها وفي سورة الأعراف وغيرها ، أن تلك قصص الرسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها ، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم ، لإنذار مشركي مكة ومتبعيهم

من العرب ، وقد كررت بالأساليب والنظم المختلفة ، لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الإعجاز ، وأما سورة يوسف فهى قصة نبى واحد، وجد فى غير قومه قبل النبوة صغير السن ، وبلغ أشده واكتهل فنبىء وأرسل ودعا إلى دينه ، وكان مملوكا ، ثم تولى مناصب خطيرة فى دولة عظيمة رفيعة الحضارة والمدنيه فأحسن الإدارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس فى رسالته ، وجميع مادخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة ، فكان من الحكمة أن تجمع قصته فى سورة واحدة ، وقصة يوسف أطول قصة فى القرآن ، افتتحت بثلاث آيات تمهيدية فى ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت إلى تمام المائة فى تاريخ يوسف . وختمت بإحدى عشرة آية فى الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه ، والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم السلام .

وكان يوسف وأخوه بنيامين فى حجر أبيهما يعقوب الرسول بعد موت أمهما راحيل، وكان يعقوب شديد العطف عليهما ليتمهما من أمهما، وكان أحب الناس إليه ولده يوسف ، فلما استقر بأرض كنعان كان همه يوسف وأخاه ، فحسده إخوته لأبيه لما رأوه من شدة عطف أبيهم عليهما . ورأى يوسف وهو صغير رؤيا فقصها على أبيه قال : يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، ففرح أبوه من الرؤيا ، ورأى أن يوسف سينال منزلة عالية ورفيعة عظيمة بحيث يخضع له أبوه وإخوته ، ووصاه بكتمان هذه الرؤيا فقال : يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وبشره أبوه بأن الله قد اصطفاه لوحيه وسيتم عليه نعمته كما أتمها على آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب . واجتمع إخوة يوسف وقد ألفت البغضاء بين قلوبهم ، وقالوا: ما بال يوسف وأخيه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، إن أبانا لفى ضلال مبين ، وأشار بعضهم إلى رأى خطر له ، فقال : اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ، فرد أكبرهم سنا قال : لاتقتلوا يوسف

وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ، وأجمعوا على الرأى الأخير الذى اختاره كبيرهم ، فدخلوا على أبيهم ، وقالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، فقال أبوهم : إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن اكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ، وما زالوا يراودون عنه أياما حتى استجاب لهم وسرحه معهم، فلما بعدوا به وانفردوا فى البرية كشروا له عن أنياب الذئاب ، فضربه أحدهم . فلما استغاث بآخر منهم ضربه أخوه الآخر ، ولم يجد بينهم رحيما يرحمه، فجعل يصيح من شدة الضرب ، فقال لهم أخوهم يهوذا : لقد عاهدتمونى ألا تقتلوه، فحملوه إلى الجب وأوثقوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال لهم يا إخوتاه ردوا على قميصى أتوارى به فى الجب فلما ألقوه جعل يبكى . وانقلبوا هم إلى الدار بعد فعلتهم . . إلى آخر هذه القصة الغريبة الرائعة : التى قص القرآن الكريم قصتها كاملة فى هذه السورة الرفيعة ، التى تمثل نمطا من أسلوب القرآن العجيب ، يقول الإمام محمد عبده فى سورة يوسف ودلالاتها (١) :

« أما سورة يوسف عليه السلام فهى منقبة عظيمة له ، وآيات بينة فى إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملى يقتدى به فى العفة والصيانة ، يجب أن يهذب به النساء والرجال ، فكل منهما يعلم بشعوره الطبيعى قوة سلطان الشهوة الخسيسة على نفسه ، ويسمع ويقرأ من أخبار الناس — ولا سيما أهل هذا العصر — ما فى طغيانها على غيره من الفضائح والخيانات والجنايات ، وتخريب البيوت ، وإضاعة للمال والعيال والدماء والشرف ، أفلا يكون أفضل مثل للعفة والصيانة ، وأحسن أسوة فى الإيمان والأمانة أن يتلى على النساء المؤمنات والرجال المؤمنين ، وعلى غيرهم من الملحدين ، قصة شاب كان من أجمل الشبان صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان ،

---

(١) المنار ١ : ٣٤ .

هى سيدة له . وهو عبد لها . فيحملها الافتتان بجماله وكماله على أن تذل نفسها له ، وتخون بعلها ، وتدوس شرفها ، وتراوده عن نفسه ، والمعهود فى أدنى النساء وأسفلهن تربية ومنزلة أن يكن مطلوبات لا طالبات ؛ فيسمعها من حكمته ، ويريها من كماله وعصمته ، ما هو أفضل قدوة فى الإيمان بالله ، والاعتصام به ، وفى حفظ أمانة السيد الذى أحسن مثواه ، وائتمنه على عرضه وشرفه ، فيقول لها : « إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون » ، فتشعر بالذل والمهانة ، والتفريط فى الشرف والصيانة ، وبحقير مقام السيادة والكرامة » .

وفى الكتاب المقدس قصة يوسف عليه السلام بأسلوب آخر غير أسلوب القصة هنا ، ففى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين ذكر لميلاد يعقوب وأبوه إسحاق فى الستين من عمره . وفى الإصحاح السابع والعشرين ذكر لدعوة إسحاق ليعقوب قبل وفاته بالبركة بعد أن قدم نفسه لأبيه باسم أخيه «عيسو» وكان ذلك بإرشاد أمه « رفقة » ، وكان فيما دعا له به : «كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمك » . . وفى الإصحاح الثامن والعشرين ذكر لهجرة يعقوب إلى أخواله فى « حاران » ولعلها هى « حوران » وقصة موسى مع شعيب وبناته ، ينسبها العهد المقدس هنا إلى يعقوب مع خاله لابان وبنات خاله ، حيث سقى لهن غنمهن وهو سائر فى الطريق إلى أبيهن[1] ، وتزوج يعقوب راحيل وأنجب منها ابنه يوسف ، كما أنجب من أخت راحيل كذلك ستة بنين وبنتا ، وولد له من جارية راحيل ابنين ، ومن جارية أخت راحيل ولدين .. وفى الإصحاح ٣١ و٣٢ و٣٣ يذكر الكتاب المقدس عودة يعقوب بأولاده وزوجاته إلى وطنه . . وفى الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين ذكر لحب يعقوب لابنه يوسف أكثر من حبه لإخوته ، ولمنام يوسف بأنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدة له ، ولحسد إخوته له ومحاولتهم

---

(١) الإصحاح ٢٩ من سفر التكوين ص ٤٥ و٤٦ و٤٧ من العهد القديم — الكتاب المقدس .

قتله ، ولإلقائهم له فى بئر ليس فيها ماء ، ولمرور قافلة بالبئر ، وإخراجهم يوسف منها ، وبيعهم له فى مصر لرئيس شرطة فرعون . . وفى الإصحاح ٣٩ من سفر التكوين ذكر لنشأة يوسف فى بيت سيده المصرى وإعجاب سيده بأمانته ، وتوكيله له على بيته ، وقصة يوسف مع امرأة سيده . . وتستمر قصة يوسف فى الإصحاح الأربعين حتى الإصحاح الخمسين . .

ومن فوائد قصة يوسف وجوب عناية الوالدين بالأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل ، واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى ، وقد نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم مطلقا ، ومن فوائدها أيضا سلوك سبيل الحكمة فى تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية ، كمكارم الأخلاق والتقوى والعلم والذكاء . وما كان يعقوب بالذى يخفى عليه هذا ، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه ، ولكن ماذا يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه ؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة يوسف عليه السلام

وهو ليس بربع كامل ، إنما هو تتمة الربع السابق من سورة هود عليه السلام ، وصنيعنا هنا أن نعده ربعا لنسير فيما بعده من الأرباع على ترتيب المصحف الشريف ، فنجعل « لقد كان فى يوسف وإخوته » ربعا ثانيا ، وهكذا ...

١ — الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ .

٢ — إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

٣ — نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ .

هذه الآيات الثلاث الكريمة فيها تنويه بشأن القرآن الكريم، وتمجيد له ، وتعظيم لبلاغته وإعجازه ، وحث لمشركى مكة على الإيمان به ؛ لأنه كتاب عربى مبين ، يعظم من شأن العربية ، وواجب العرب الاعتزاز به ، والإيمان برسالته : ومن إعجازه هذه القصص التى تضمنها ، لما احتوت عليه من روائع الأساليب وبليغ العظات . وهذه القصص أيضا دلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما تضمنته من الإخبار بأمور ماضية ، لاعهد لمحمد بها ، ولم يسبق له تعلمها ولا تدارسها ، ولا أخذها من أستاذ ، ولا تلقنها من معلم .. يقول الله تعالى : « الر » تقدم الكلام على أوائل السور فى الجزء الأول من هذا التفسير ، واختلف فى سبب نزول هذه السورة : فعن سعيد بن جبير أنه قال: لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلوه على قومه ، فقالوا : يارسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم، فقالوا: يارسول الله لو حدثتنا فنزل « الله نزل

أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى . » فقالوا : لو ذكرتنا فنزل « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » .

وعن ابن عباس أنه قال : سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف ، فنزلت هذه السورة . يقول الله تعالى « تلك » إشارة إلى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة المسماة بالر هى « آيات الكتاب » أى القرآن « المبين » أى المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل ، الذى ثبت فيه قصص الأولين والآخرين ، وشرحت فيه أحوال المتقدمين «إنا أنزلناه» أى الكتاب « قرآنا عربيا » أى بلغة العرب أى لكى يعلموا معانيه ويفهموا مافيه ، روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: اسألوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ، وعن كيفية قصة يوسف؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير : إنا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف حال كونه قرآنا عربيا ، وسمى بعض القرآن قرآنا ، لأن القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض ، « لعلكم » يا أهل مكة « تعقلون » أى إرادة أن تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ، ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته .

واختلف العلماء : هل فى القرآن شىء بغير العربية ؟ فقال أبو عبيدة : من زعم أن فى القرآن لسان غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » ، وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن فيه من غير لسان العرب كلمات كثيرة مثل : سجيل ، ومشكاة ، وأثيم ، وإستبرق ، وجمع بعض المفسرين بين القولين بأن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية فى الأصل ، لكنهم لما تكلموا بها معربة نسبت إليهم وصارت عربية فصيحة ، « نحن نقص عليك احسن القصص » أى أسلوبا وموضوعا وغاية ، لأنه اقتص على أبدع الأساليب ، والقصص إتباع بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة

من قص الأثر إذا اتبعه ، وإنما سميت الحكاية قصة ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا ، والمعنى . إنا نبين لك يا محمد أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان ، أو قصة يوسف عليه السلام خاصة . وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا ، ومافيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على إيذاء الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك ، وقال ابن عطاء : لايسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها « بما » أى بسبب ما « أوحينا » : أى بإيحائنا « إليك » يا محمد « هذا القرآن » أى الذى قالوا فيه إنه مفترى تتابع القصص : القصة بعد القصة حتى لايشك شاك ولا يمترى ممتر أنه من عند الله « وإن كنت من قبله » أى من قبل إيحائنا إليك أو من قبل هذا القرآن « لمن الغافلين » أى عن قصة يوسف وإخوته ، لأنه صلى الله عليه وسلم إنما علم ذلك بالوحى ، وقيل : لمن الغافلين عن الدين والشريعة .

٤ — إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ .

٥ — قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

٦ — وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فى هذه الآيات الثلاث نبوءة ليوسف بالنبوة والحكمة والنعمة ، وباصطفاء الله عز وجل له وبحسد إخوة يوسف له .. وقد وقع كل ما قاله أبوه يعقوب له فى تفسيره لرؤيا يوسف عليه السلام ، قال الله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه

يا أبت » . . . « إذ » منصوبة بفعل محذوف أى اذكر إذ ، أى اذكر وقت ذلك ، وتذكر وقت هذا الحديث تذكر للحديث نفسه للتعجب منه لغرابته ؛ وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكريم بن الكريم بن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم « يا أبت » أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر » قال أهل التفسير : رأى يوسف فى منامه ـ وكان ابن اثنتى عشرة سنة ، وقيل: سبع عشرة ، وقيل: سبع سنين ـ كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له ، وفسروا الكواكب بإخوته وكانوا أحد عشر يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم ، والشمس والقمر بأبيه وأمه، بجعل الشمس للأم والقمر للأب ، والذى رواه البيضاوى تبعا للكشاف عن جابر أن يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف ، فأخبره بأسمائها ، فقال اليهودى : إى والله، إنها لأسماؤها، قال ابن الجوزى: إنه موضوع « رأيتهم لى ساجدين » استئناف بيان حالهم التى رآهم عليها فلا تكرير، لأن الرؤية الأولى تدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر ، والثانية تدل على مشاهدة كونها ساجدة له ، وقال بعضهم : إنه لما قال : إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، قيل له : كيف رأيتها ؟ قال: رأيتهم لى ساجدين ، وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا ، وهذا القائل لم يبين أيهما يحمل على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا ، فذكر قولا مهملا غير مبين ، وقوله : « رأيتهم لى » وقوله : « ساجدين » لا يليق إلا بالعقلاء، والكواكب جمادات ، فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات ؟ الجواب أنها لما وصفت بالسحر صارت كأنها تعقل ، وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل ، كما قال تعالى فى صفة الأصنام : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » ، وكما فى قوله تعالى : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم » فإن قيل : لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب ؟ أجيب بأنه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب، كقوله

تعالى : « وملائكته وجبريل وميكال » المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كلاهما محتمل ، والأصل فى الكلام حمله على الحقيقة ، قال المفسرون : إن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام ، فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب ، فلما رأى يوسف هذه الرؤية وكان تأويلها أن أبويه وإخوته يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم قال له أبوه « قال يا بنى » بصفة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ماتقدم « لا تقصص رؤياك على إخوتك » أى لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها « فيكيدوا لك كيدا » أى فيحتالوا فى هلاكك ، وكاده وكاد له أخوان ، مثل نصحتك ونصحت لك وشكوتك وشكوت لك فاللام لتأكيد الصلة ، وقيل: اللام صلة كقوله: لربهم يرهبون .. « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » أى ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء . وعن أبى قتادة قال : كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها فانها لاتضره ، وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من عند الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان ، فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لاتضره ، وعن أبى رزين العقيلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة ، قال : وأحسبه قال : ولا تحدث بها إلا لبيبا أو حبيبا ، وأضيفت الرؤية المحبوبة إلى الله إضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة ، وإن كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وإرادته ، ولا فعل للشيطان فيها ، ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها ، فيستحب إذا رأى الشخص فى منامه مايحب أن يحدث به من يحب ، وإذا رأى مايكره أن لايحدث به ، وليتعوذ بالله من الشيطان « وكذلك » أى وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤية العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس « يجتبيك » أى يختارك

« ويصطفيك » ربك » بالدرجات العالية ، واجتباء الله مخصوص بالأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين « ويعلمك » كلام مستأنف خارج عن التشبيه والتقدير: وهو يعلمك « من » أى بعض « تأويل الأحاديث » من تأويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى ، والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، وكان يوسف عليه السلام فى تعبير الرؤيا وغيرها غاية ، والتأويل مايؤول إليه عاقبة الأمر « ويتم نعمته عليك » بالنبوة قال ابن عباس : لأن منصب النبوة مع الرسالة أعلى من جميع المناصب ، وكل الخلق دون درجة الأنبياء ، وهذا من تمام النعمة عليهم لأن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة ، فالكمال المطلق والتمام المطلق فى البشر ليس إلا النبوة والرسالة ، وقيل : يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، أما سعادة الدنيا فبالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع فى المال والجاه والإجلال فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد ، وأما سعادة الآخرة فبالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى وتقواه « وعلى آل يعقوب » أى أولاده ، وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب ، وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر ، فلزم حصولها لآل يعقوب ، وأيضا فإن يوسف عليه السلام قال : إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ، ويستضاء بعلمهم ودينهم كما يستضىء أهل الأرض بالكواكب ، لأنه لاشىء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى ، وذلك يقتضى أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا ، فإن قيل: كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق أخيهم يوسف عليه السلام ؟ فالجواب أن ذلك وقع منهم قبل النبوة ، والعصمة إنما تعتبر بعد النبوة لاقبلها على خلاف فيه « كما أتمها على أبويك » بالنبوة والرسالة ، وقيل: إتمام النعمة على إبراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا ، وعلى إسحاق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح عظيم على قول أن إسحاق هو الذبيح « من قبل » أى من قبل هذا الزمان ، وقوله « إبراهيم وإسحاق » عطف بيان لأبويك ، ثم إن يعقوب عليه السلام

لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله: « إن ربك عليم » أى بليغ العلم « حكيم » أى بليغ الحكمة ، وهى وضع الأشياء فى أتقن مواضعها .

ولنذكر هنا ما جاء فى الكتاب المقدس فى الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين ، قصة حسد إخوة يوسف له ، وما كادوا به له من وراء أبيه ؛ جاء فى هذا الإصحاح ما نصه : « وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته ، فصنع له قميصا ملونا ، فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ، وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته فازدادوا أيضا بغضا له . فقال لهم : اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت : فها نحن حازمون حزما فى الحقل ، وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى ، فقال له اخوته : ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا ، وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه ، ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على إخوته ، فقال إنى قد حلمت حلما أيضا : وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لى ، وقصه على أبيه وعلى إخوته ، فانتهره أبوه وقال له : ما هذا الحلم الذى حلمت ؟ هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ، فحسده إخوته ، وأما أبوه فحفظ الأمر ، ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم[1] ، فقال إسرائيل ليوسف : أليس إخوتك يرعون عند شكيم ؟ تعال فأرسلك إليهم ، فقال له : ها أنذا ، فقال له : اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لى خبراً ، فأرسله من وطاء حبرون[2] فأتى إلى شكيم ، فوجده رجل وإذا هو ضال فى الحقل ، فسأله الرجل قائلا: ماذا تطلب ؟ فقال : أنا طالب إخوتى أخبرنى أين يرعون ، فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لأنى سمعتهم يقولون: لنذهب إلى دوثان ، فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم فى دوثان ، فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه ، فقال بعضهم لبعض : هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم ، فالآن هلم نقتله ونطرحه فى إحدى الآبار ونقول :

---

(١) شكيم هى موضع نابلس اليوم (٢) هى مدينة الخليل ، والوطاء : الوادى .

وحش ردىء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه ، فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال : لا نقتله ، وقال لهم رأوبين : لا تسفكوا دما، اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية ولا تمدوا إليه يدا ، لكى ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه ، فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه ، القميص الملون الذى عليه ، وأخذوه وطرحوه فى البئر ، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ، ثم جلسوا ليأكلوا طعاما ، فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر ، فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه ، تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه ، لأنه أخونا ولحمنا ، فسمع له إخوته ، واجتاز رجال مديانيون تجار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتوا بيوسف إلى مصر ، ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس فى البئر فمزق ثيابه ، ثم رجع إلى إخوته وقال : الولد ليس موجودا وأنا إلى أين أذهب ، فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص فى الدم ، وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا: وجدنا هذا، حقق : أقميص ابنك هو أم لا ؟ فتحققه وقال: قميص ابنى وحش ردىء أكله ، افترس يوسف افتراسا ، فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة ، فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه ، فأبى أن يتعزى وقال: إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية وبكى عليه أبوه ، وأما المديانيون فباعوه فى مصر لفوطيفار خصى فرعون رئيس الشرط[1] ..

(١) كان كذلك رئيس حامية الملك وناظر السجون — كما فى سفر التكوين أيضاً

الربع الثانى من سورة يوسف

٧ — لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِلسَّآئِلِينَ .

٨ — إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

٩ — ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ .

١٠ — قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ .

١١ — قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ .

١٢ — أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ .

١٣ — قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ .

١٤ — قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ .

١٥ — فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

١٦ — وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ .

١٧ — قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا

فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ .

١٨ — وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

١٩ — وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

٢٠ — وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ .

٢١ — وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

٢٢ — وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

٢٣ — وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

٢٤ — وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ .

٢٥ — وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٢٦ — قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ .

٢٧ — وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

٢٨ — فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

٢٩ — يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ .

فى هذا الربع البليغ الرائع قصة كيد إخوة يوسف له ، ورميهم إياه فى الجب ، والتقاط بعض القوافل التجارية له . وبيعهم إياه فى مصر لرئيس شرطة فرعون ، والبركة التى حصلت لسيده بسببه ، وإكرام سيده له ، وتوكيله له فى إدارة شئونه ، وما وهبه الله إياه من الحكمة والعلم ، وقصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام . . وكل ذلك جاء فى أروع أسلوب ، وأبلغ بيان ، وأفصح عبارة ، وأجمل أداء . . وقوله تعالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته » هذا شروع فى القصة بعد مقدمتين :

أولاها فى صفة القرآن وكونه تنزيلا من الله دالا على رسالة من أنزل عليه ، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه ، وكون النبى كان

من قبله غافلا عما جاء فيه لا يدرى منه شيئا ، ونتيجة هاتين القضيتين تأتى بعد تمام القصة فى قوله تعالى : « ذلك من أنباء الغيب » [1]

والمقدمة الثانية : رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما إجماليا ، وبنى على ما بنى عليه من أن حذره وأنذره ما يستهدف له من كيد إخوته ، وبشره بحسن عاقبته .. ونتيجة هاتين القضيتين ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له : « يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » .

فمثل هذا الترتيب المنطقى العقلى البديع ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير سورة يوسف ـ يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والإحاطة بدقائقها ، ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة ، ثم توضع له المقدمة والخاتمة فى الغاية التى ألفت القصة لأجلها فتجعل الأولى براعة مطلع ، والأخرى براعة مقطع ، فقل لمن جهل سيرة محمد وتاريخه : إن محمداً لم يكن قارئا ولا كاتبا ، ولا خطيبا ولا شاعراً ، ولا مؤرخا ، ولا راويا ، ولا حافظا للشعر ولا ناثراً ، بل كان كما قال الله تعالى غافلا عن هذه القصة وكل ماجاء فى القرآن ، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها لئلا ينسى منها شيئا ، فنهى عن ذلك عند ماعرض له أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » ، وبقوله : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما » ، وقوله «سنقرئك فلا تنسى » ، وقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، فلما ضمن ربه له أمن ضياع شىء منه بعدم حفظه عند تلقيه ، أو نسيانه بعده ، زال خوفه ، وترك الاستعجال بقراءته .

وهذه السورة الطويلة نزلت عليه دفعة واحدة كأكثر السور المكية حتى الطوال منها كسورة الأنعام، فلم يكن يدرى من هذا الترتيب والنسق لها ولا من

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة يوسف .

موضوعها شيئا قبل وحيها ، ولا يحيط به إلا أن يكمل له تلقيها عن الروح الأمين عليهما السلام ، ولكن العجب أن يغفل عنه أو يجهله أحد من المفسرين ، من فرسان البلاغة .

وقوله تعالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » أى لقد كان فى قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته ، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم ، وحسن عنايته بهم ، للسائلين عنها ، من الراغبين فى معرفة الحقائق والاعتبار بها ، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشىء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها ، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه فى غيابة الجب ؛ ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تخب فى كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقى فى السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى ملك مصر وعرف براعته وصدقه فى تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقى منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وجعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ، ويأتى بهم إلى مصر فيشاركوه فى رياسته ومجده ، بل لما تم قول أبيه له : « ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب » فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقاً ، وباطنها مشرقا ، وبدايتها شراً وخسراً ، وعاقبتها خيراً وفوزاً ، وصدق قول الله عز وجل « والعاقبة للمتقين » .

فهذه أنواع من آيات الله فى القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة ، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له ، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله : « وإنه لذو علم لما علمناه » الآية ، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر

قاصدة أرض كنعان . ومن علم يوسف بتأويل الأحاديث ، ومن رؤيته لبرهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة .. وفى القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعانى من العلم الروحانى ، وهى أخفى مما قبلها ، وأحق بالسؤال عنها . . وقيل : إن المراد بالسائلين جماعة من اليهود جاءوا مكة وسألوا النبى سؤال امتحان عن نبى كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى ؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما فى التوراة ، وروى أن بعضهم لقنوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف . وروى أن بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الإحدى عشرة التى رآها يوسف فى منامه ولم يكن يعرفها ، فنزل عليه جبريل فلقنه إياها ، فجاءت موافقة لما فى التوراة ، وذكروا هذه الأسماء فى تفاسيرهم ، فالمراد بالآيات على هذا دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء وأصحاب الأخبار ، ولم يأخذ عنهم شيئا ، فدل ذلك على أن ما يأتى به هو وحى سماوى أوحاه الله اليه وعرفه به .. وقصة يوسف فى القرآن موافقة لجملة ما فى سفر التكوين ومخالفة له فى بعض دقائقها .

وهذه السورة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ، منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيه من حسد إخوته وما آل إليه أمره من الملك ، ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد ، وغير ذلك من الآيات التى يعتبر بها كل من فكر وقدر .. « إذ قالوا » أى قال بعض إخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤية : أما يرضى أن تسجد إخوته له حتى يسجد له أبواه ؟ « ليوسف وأخوه » أى بنيامين « أحب إلى أبينا منا » اللام لام الابتداء ، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة ، ارادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ، وخبر المبتدأ هو قوله « أحب » ، ووحد لأن أفعل يستوى فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان أو مؤنثا إذا لم يعرف أو لم يضف ، وقيل : اللام لام قسم تقديره : والله ليوسف ،

وإنما قالوا : أخوه - وهم جميعا إخوته؛ لأن أمهما كانت واحدة . وقوله «ونحن عصبة» الواو واو الحال ، أى يفضلهما فى المحبة علينا ، وهما اثنان صغيران لا كفاءة لهما ولا منفعة فيهما ، ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ، والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها ، سموا بذلك لأنهم جماعة يعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب «إن أبانا لفى ضلال» أى خطأ «مبين» أى بين فى إيثاره حب يوسف وأخيه علينا ؛ والسبب المقتضى للحب لنا جميعاً واحد ، لأنا فى النبوة سواء ولنا مزية تقتضى تفضيلنا وهى أننا عصبة ، لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ما ليس له .. وها هنا أسئلة : الأول : إن من المعلوم أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك ؟ والجواب أنه فضلهما فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر، فكان معذورا فيها ولا يلحقه بسبب ذلك لوم.. الثانى: كيف اعترضوا على أبيهم فإنهم وإن كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا أن يكون فعله باجتهاد ، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سنا وأكثر نفعا ، وغاب عنهم أن تخصيص يعقوب لهما بالحنان كاف لوجوه : أحدها: أن أمهما ماتت . ثانيها : أنه كان فى يوسف من آثار الرشد والنجابة مالم يجده فى سائر أولاده ، ثالثها : أنه كان صغيرا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة أعلى وأشرف مما كان يصدر عن سائر الأولاد ، والحاصل أن هذه المسألة كانت اجتهادية ، وكانت راجعة إلى ميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر ، الثالث : أنهم نسبوا أباهم إلى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال عن الدين ، الرابع أن قولهم «ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا» محض حسد ، والحسد من أمهات الكبائر، لا سيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمور مذمومة منها قولهم «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا» أى بحيث يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه ، ومنها إلقاؤه فى ذل العبودية ، ومنها أنهم أبقوا أباهم فى الحزن الدائم

والأسف العظيم ، ومنها إقدامهم على الكذب ، وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة ، والجواب ما تقدم وأن ذلك كان قبل النبوة « يخل لكم وجه أبيكم » جواب الأمر أى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم فى محبته أحد « وتكونوا » مجزوم بالعطف على « يخل لكم » أو منصوب بإضمار أن « من بعده » أى قتل يوسف أو طرحه « قوما صالحين » بأن تتوبوا إلى الله تعالى بعد فعلكم وأنه يعفو عنكم ، وقال مقاتل : يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم « قال قائل منهم » هو يهوذا وكان أحسنهم رأيا فيه ، وهو الذى قال: فلن أبرح الأرض ، وقيل « رأوبين » وكان أكبرهم سنا « لا تقتلوا يوسف وألقوه » أى اطرحوه « فى غيابة الجب » أى فى أسفله وظلمته ، والغيابة : كل موضع ستر شيئا وغيبه عن النظر . والجب : البئر التى ليست مطوية سميت « جبا » لأنها قطعت قطعا ولم يحصل فيها شىء غير القطع ، وإنما ذكر الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين ، قيل : عزموا على قتله وعصمهم رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعين ، واختلف فى موضع ذلك الجب : فقال قتادة : هو بيت المقدس ، وقال وهب : هو بأرض الأردن ، وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب « يلتقطه » أى يأخذه « بعض السيارة » جمع سيار أى المبالغ فى السير ، وذلك الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فإذا أخذوه ذهبوا به إلى ناحية فنستريح منه « إن كنتم فاعلين » أى ما أردتم من إبعاده عن أبيه فاكتفوا بذلك ، ولما أجمعوا على التفريق بين يوسف وأبيه بضرب من الحيل « قالوا » إعمالا للحيلة فى الوصول إليه مستفهمين على وجه التعجب ، لأنه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه « يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف و » الحال « إنا له لناصحون » أى قائمون بمصلحته وحفظه « أرسله معنا غدا » أى فى الصحراء « يرتع » أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها ، وأصل الرتع أكل البهائم فى الخصب فى زمن الربيع ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير « ويلعب » روى أنه

قيل لأبى عمرو : وكيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وأيضا جاز أن يكون المراد باللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر ، كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر : فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ؟ وأيضا كان لعبهم بالسيوف والنصال والتسابق فى قطع المسافات ، والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار ، والدليل عليه قولهم « إنا ذهبنا نستبق » وإنما سموه لعبا لأنه فى صورته « وإنا له لحافظون » أى مبالغون له فى الحفظ حتى نرده اليك ، ثم إن يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين : الأول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله : « قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به » أى ذهابكم به ، والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ، لأنه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به ، وكان يعقوب عليه السلام رأى فى النوم أن الذئب شد على يوسف فكان يحذره ، فمن هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم العذر ، وفى أمثال العرب : البلاء موكل بالمنطق ، والمراد به الجنس . وكانت أرضهم كثيرة الذئاب « قالوا » مجيبين عن الثانى « لئن أكله الذئب ونحن » أى والحال أننا « عصبة » أى جماعة : عشرة رجال ، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب ، وأجابوا عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط بقولهم : « إنا إذاً » أى إذا كان هذا « لخاسرون » أى كاملون الخسارة ، لأنا إذا ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أمورنا أشد تضييعا ، وأعرضوا عن جواب الأول لأن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول وهو شدة حبه له ، فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه ، وأقله أن يقولوا ما وجه الشح بفراقه والسماح بفراقنا كل يوم؟ « فلما ذهبوا به » فيه إضمار واختصار ، تقديره : فأرسله معهم ، فلما ذهبوا به « وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب » أى وعزموا على إلقائه فيها ، ولا بد من تقدير جواب وهو (لجعلوه فيها) وحذف الجواب فى القرآن كثير ، قيل : إخوة يوسف قالوا له : أما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فنصيد ونستبق؟ قال : بلى ، قالوا : فاسأل أباك أن يرسلك معنا ، قال يوسف : أفعل ، فدخلوا

جميعا إلى أبيهم وقالوا : يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا لرعى الأغنام ، فقال يعقوب : ما تقول يا بنى ؟ قال : نعم يا أبت إنى أرى من إخوتى اللين واللطف فأحب أن تأذن لى ، وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته ، فأذن له فأرسله معهم ، فلما خرجوا به من عند أبيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر إليهم، فلما بعدوا عنه وصاروا إلى الصحراء ألقوه على الأرض وأظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة ، وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح : يا أبتاه ، يا يعقوب ، لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك ، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك ، وجعل يبكى بكاء شديداً ، فأخذه أحدهم فجلد به الأرض ثم جلس على صدره وأراد قتله فقال له : مهلا يا أخى لا تقتلنى ، فقال له : يا ابن راحيل أنت صاحب الأحلام الكاذبة ، قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه ، فاستغاث يوسف بيهوذا فأدركته رحمة ربه فقال يهوذا : يا إخوتاه ما على هذا عاهدتمونى ، فانطلقوا إلى الجب ليطرحوه فيه ، فجاءوا به على بئر على غير الطريق واسع الأسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر ، وهو يحاول النجاة ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال : يا إخوتاه ردوا على قميصى أستتر به فى الجب فقالوا : ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك ، فقال : إنى لم أر شيئا ، فألقوه فيها ، وكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة كانت فى البئر فقام عليها فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم ، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقى فيها ثلاث ليال « وأوحينا إليه » فى الجب فى صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أو دونها كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام فى صغرهما ، وفى القصص : إن إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، ودفعه إبراهيم عليه السلام إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب فى تميمة علقها بيوسف فأخرجها جبريل وألبسه إياها «لتنبئنهم» أى لتخبرنهم بعد هذا اليوم « بأمرهم » أى بصنعهم « هذا وهم لا يشعرون » أنك

يوسف ، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للهيئات ، كما قال تعالى : فعرفهم وهم له منكرون، والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير سيدا عليهم ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره ، وقيل : لايشعرون بإيحائنا إليك وأنت فى البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا، والفائدة فى إخفاء ذلك الوحى عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله ، وقيل : إن المراد من هـذا الوحى الإلهام كما فى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى » ، وقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » ، ولما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذى فعلوه إلا الاعتذار ـ قال تعالى : « وجاءوا أباهم » دون يوسف « عشاء » فى ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم فى وجوههم إذا رآها فى ضياء النهار ضد ما جاءوا به من الاعتذار « يبكون » والبكاء جريان الدمع من العين ، والآية تدل على أنه لايدل على الصدق لاحتمال التصنع ، فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام وسألهم : هل أصابكم فى غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فما فعل يوسف ؟ « قالوا إنا ذهبنا نستبق » قال الزجاج : يسابق بعضنا بعضا فى الرمى وقيل : المراد نعدو ليتبين أينا أسرع عدوا « وتركنا يوسف » أخانا « عند متاعنا » أى ما كان معنا مما نحتاج إليه فى ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك « فأكله الذئب وما » أى والحال أنك ما « أنت بمؤمن » أى بمصدق « لنا ولو كنا صادقين » فى هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسيء الظن بنا ، وقيل : لاتصدقنا إذ لادليل لنا على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله ، ولما علموا أنه لايصدقهم بغير أمارة «جاءوا على قميصه» أى قميص يوسف عليه السلام « بدم كذب » قال الفراء : أى مكذوب فيه ، إلا أنه وصفه بالمصدر على تقدير ذى كذب أو مكذوب ، أطلق على المصدر مبالغة لأنه غير مطابق للواقع ؛ لأنهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم بعض الغنم التى ذبحوها ولطخوه بذلك الدم ، ولعل غرضهم فى نزع قميصه عند إلقائه فى غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم ، إذ يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً فى نفس القميص، فلما شاهد يعقوب عليه السلام

القميص صحيحا علم كذبهم ، روى أن يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحكم من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق قميصه . . و(على) هنا بمعنى فوق ، أى وجاءوا فوق قميصه بدم ، كما تقول : جاء على جماله بأحماله ، قال الشعبى : قصة يوسف كلها فى قميصه ، وذلك أنهم لما ألقوه فى الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ، ولما شهد الشاهد قال : إن كان قميصه قد من قبل ، ولما أتى بقميصه إلى يعقوب وألقى على وجهه ارتد بصيرا ، ثم ذكر تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم « قال » يعقوب عليه السلام « بل سولت » أى زينت « لكم أنفسكم أمرا » ففعلتموه ، واختلف فى السبب الذى عرف به كونهم كاذبين ، على وجوه :

الأول : أنه كان يعرف الحسد الشديد فى قلوبهم .

الثانى : أنه كان عالما بأنه حى ؛ لأنه عليه السلام قال ليوسف : « وكذلك يجتبيك ربك » وذلك دليل على كذبهم فى ذلك القول .

والثالث : أنه لما رأى قميصه صحيحا قال: كذبتم، لو أكله الذئب لمزق ثوبه ، وقيل: إنه لما قال ذلك قال بعضهم: بل قتله اللصوص فقال : كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله ، فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم ، وقوله تعالى « فصبر جميل » أى فصبر جميل أولى من الجزع ، أو الذى أفعله صبر جميل ، وقال قطرب ـ معناه : فصبرى صبر جميل ، وقال الفراء : فهو صبر جميل ، وعن الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل ، فقال : صبر لاشكوى فيه ، فمن بث لم يصبر ، كما قال يعقوب : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وقال مجاهد : فصبر جميل من غير جزع ، وقال الثورى : إن من الصبر أن لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكى نفسك ، وروى أن عائشة رضى الله تعالى عنها ـ فى قصة الإفك ـ أنها قالت : والله لئن حلفت

لا تصدقونى ولئن اعتذرت لا تعذرونى ؛ فثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده ، والله المستعان على ماتصفون ؛ فأنزل الله تعالى فى عذرها ما أنزل ، وقوله « فصبر جميل » أى فالصبر الجميل أن ينكشف له أن هذا البلاء من الحق ، فاستغراقه فى شهود نور المولى يمنعه من الاشتغال بالشكاية ، والصبر على قضاء الله تعالى واجب ، وأما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب ، بل الواجب إزالته لاسيما فى الضرر العائد إلى الغير ، فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ فى البحث مع شدة رغبته فى حضور يوسف ومع عظيم حبه له ، وكان من بيت عظيم شريف ، وكان الناس يعرفونه ويعتقدون فيه ، والجواب أنه بحث ولم يهتد ، أو يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحى تشديدا للمحنة عليه زيادة فى أجره ، أو أنه لو بالغ فى فى البحث لربما أقدموا على إيذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص ، فرأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر بالشكاية إلى الله تعالى ، وقال : « والله المستعان » أى المطلوب منه العون « على ماتصفون » أى تذكرون من أمر يوسف ، والمعنى : إن إقدامه على الصبر لا يكون إلا بمعونة الله ؛ لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهى قوية ، والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر ، فكأن المحاربة وقعت بين الداعين : فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة ؛ فقوله : « فصبر جميل » يجرى مجرى قوله : « إياك نعبد » ، وقوله : « والله المستعان على ما تصفون » يجرى مجرى قوله : « وإياك نستعين » .

وقوله تعالى : « وجاءت سيارة » وهم القوم المسافرون سموا بذلك لأنهم يسيرون فى الأرض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطأوا الطريق ، فصاروا يهيمون على غير طريق ، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف ، فلما نزلوا أرسلوا رجلا لطلب الماء وذلك قوله : «فأرسلوا واردهم» أى الذى يريد الماء ليستقى منه ، أو الوارد هو الذى يتقدم الرفقة إلى الماء «فأدلى» أى أرسل « دلوه » فى البئر يقال : أدليت الدلو إذا أرسلتها فى البئر ودلوتها إذا أخرجتها ، والدلو معروف والجمع الدلاء ، فلما أرسلها تعلق يوسف عليه السلام بالحبل ، فإذا هو بغلام

أحسن ما يكون ، وكان يوسف كما يروى قد أعطى شطر الحسن . ويقال : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ، وكانت جدته قد أعطيت من الحسن ما أعطيت ؛ فلما رآه الرائد ذعر ، و « قال يابشرى هذا غلام » نادى البشرى بشارة لنفسه ، كأنه قال تعالى : فهذا أوانك ، واختلف فى ضمير « وأسروه بضاعة » إلى من يعود ؟ وفيه قولان :

الأول : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه ، أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه بالجب ، وذلك أنهم قالوا : إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا ، وإن قلنا اشتريناه سألونا الشركة . فالأصوب أن نقول : إن أهلا لنا جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر ، والثانى : نقل عن ابن عباس أنه قال : وأسروه يعنى إخوة يوسف أسروا شأنه ، وذلك أن يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم ، وفى هذا اليوم لم يجده فى البئر فأخبر إخوته فطلبوه ، فإذا هم بيوسف مع هؤلاء السيارة فقالوا : هذا عبد لنا أبق منا ، وتابعهم يوسف على ذلك لأنهم توعدوه بالقتل بالعبرانية ، قال الرازى : والأول أولى ، لأن قوله « وأسروه بضاعة » يدل على أن المراد أنهم أسروه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف ، والبضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشىء إذا قطعته ، والتقدير : وأسروه فى الحال التى جعلوه فيها بضاعة « والله عليم » أى بالغ العلم « بما يعملون » أى لم يخف عليه مافعلوه بيوسف وبأبيهم « وشروه » أى باعوه ، أى باعه إخوته للسيارة أو باعه الوارد ، وقد يطلق لفظ الشراء على البيع ، يقال : شريت الشىء بمعنى بعته ، وإنما حمل هذا الشىء على البيع لأن الضمير فى « شروه » وفى « كانوا فيه من الزاهدين » يرجع إلى شىء واحد ، وذلك أن إخوته زهدوا فيه فباعوه ، وقيل : إن الضمير يعود إلى الوارد وأصحابه ، وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه ، وقال محمد ابن إسحاق : ربك أعلم : أإخوته باعوه أم السيارة « بثمن بخس » قال الضحاك : حرام ؛ لأن ثمن الحر حرام ، وسمى الحرام بخسا لأنه مبخوس البركة ، وقال ابن مسعود : أى زيوف ، وقال عكرمة : أى بثمن قليل ، ويدل لهذا قوله تعالى « دراهم معدودة » لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من

أربعين درهما إنما كانوا يأخذون مادونها عدا ، فإذا بلغت أربعين وزنوها ، واختلفوا فى عدد تلك الدراهم ، فقال ابن عباس : كانت عشرين درهما ، وقال مجاهد : كانت اثنين وعشرين درهما ، وقال عكرمة : أربعين درهما ، « وكانوا » أى إخوته « فيه » أى يوسف « من الزاهدين » لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ، ومعنى الزهد قلة الرغبة ، يقال : زهد فلان فى كذا إذا لم يرغب فيه ، وأصله القلة ، يقال : رجل زاهد - إذا كان قليل الطمع ؛ وقيل : كانوا فى الثمن من الزاهدين ، لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وإنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه ، وقيل : الضمير فى (كانوا) للسيارة ، لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء يتهاون به لذلك باعوه بأوكس الأثمان ، روى أن هذا الوارد انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم إخوته يقولون : استوثقوا منه لأنه أبق ، فذهبوا حتى أتوا مصر وعرضوه للبيع ؛ فاشتراه العزيز الذى كان على خزائن مصر ، واشتراه العزيز وهو ابن تسع عشرة سنة ، فأقام فى منزله . ثلاث عشرة سنة ، وقد صار يوسف وزيراً وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وقيل : كان الملك فى أيامه فرعون موسى الذى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » وقيل : كان فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، واشتراه العزيز بعشرين دينارا وقيل : قدمت السيارة بيوسف مصر ، فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع ، فزاد الناس فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريراً ، وكان وزنه أربعمائة رطل ، وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة ، وقيل : ثلاث عشرة سنة فابتاعه العزيز بهذا الثمن ، فذلك قوله تعالى : « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته » قيل : كان اسمها زليخا أو راعيل « أكرمى مثواه » قال الرازى : واعلم أن شيئا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضا فى خبر صحيح ، وتفسير كتاب الله تعالى لايتوقف على شيء من هذه الروايات ، فاللائق بالعاقل أن يحترز من ذكرها ، ولكن البغوى ذكرها ونبه على ذلك جماعة من المفسرين ، والمثوى : موضع الإقامة ، أى اجعلى منزله ومقامه

عندنا كريما أى حسنا مرضيا بدليل قول يوسف : إن ربى أحسن مثواى ، والمراد : تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملك حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ساكنة فى كنفنا ، قال المحققون : أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم ، وهو كما يقال : سلام الله على المجلس الكريم « عسى أن ينفعنا » أى يقوم بإصلاح مهماتنا أو نبيعه بالربح إن أردنا بيعه « أو نتخذه ولدا » أى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها فى موسى: استأجره ، وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه « وكذلك » أى وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز « مكنا ليوسف فى الأرض » أى أرض مصر لتمكنه من الحكم بالعدل والنبوة « ولنعلمه من تأويل الأحاديث» أى تعبير الرؤيا عطف على مقدر ما تعلق بمكنا أى لتمكنه ، أو الواو زائدة « والله غالب على أمره » أى الأمر الذى يريده لأنه تعالى فعال لما يريد ، ولا دافع لقضائه ولا مانع من حكمه فى أرضه وسمائه أو على أمر يوسف ، أراد إخوته قتله فغلب أمره عليهم ، وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه ، فغلب أمره سبحانه وتعالى وظهر اسمه واشتهر، ثم باعوه مملوكا فغلب أمره سبحانه وتعالى حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ، ثم أرادوا أن يرضوا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه ، فغلب أمره تعالى وأظهر مكرهم ، واحتالت إليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه، فغلب أمره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب ، ثم بذلت جهدها فى إذلاله وإلقاء التهمة عليه فأبى الله تعالى إلا إعزازه وبراءته ، ثم أراد يوسف عليه السلام ذكر الساقى له ، فغلب أمره تعالى فأنساه ذكره حتى مضى الأجل الذى ضربه الله تعالى له ، وكان من أمره ما كان فى هذه القصة وفى غيرها ، مما يرشد إلى أنه لا أمر لغير الله تعالى «ولكن أكثر الناس» وهم الكفار « لا يعلمون » أن الأمر كله بيد الله

أو أن أكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه ، فمن تأمل في الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن ان الأمر كله لله وأن قضاء الله تعالى غالب.

ولما بين الله تعالى أن إخوته أساءوا إليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه في الأرض ـ أتبعه الأمر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى « ولما بلغ أشده » أى منتهى شبابه وقوته وشدته ، تقول العرب : بلغ فلان أشده إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته ، وهذا اللفظ مستعمل فى الواحد والجمع يقال: بلغ فلان أشده وبلغوا أشدهم ، وهو ثلاث وثلاثون سنة ، وقال الكلبي : الأشد ما بين ثمانية عشر عاما إلى ثلاثين ، وقيل : أقصاه اثنان وستون سنة «آتيناه حكما» أى حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو حكما بين الناس « وعلما » أى علم تأويل الأحاديث ، وقيل : المراد بالأحاديث النبوة والرسالة ، وتقدم أن قوله تعالى : «وأوحينا» أنه وحى حقيقة ، قال الرازى : فلا يبعد أن يقال: إن ذلك الوحى إليه فى ذلك الوقت لا لأجل بعثته إلى الخلق بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره ، ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام «وكذلك» أى ومثل ذلك الجزاء الذى جزيناه به « نجزى المحسنين » قال ابن عباس : يعنى المؤمنين ، وعنه أيضا يعنى المهتدين ، وقال الضحاك : يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ، وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله ، ولما أخبر تعالى أن سبب النعمة عليه إحسانه أتبعه بقوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها » أى امرأة العزيز راودت يوسف «عن نفسه» لأنها لما رأته فى غاية الحسن والجمال طمعت فيه ، والمراودة مفاعلة من راود يراود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلب عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التمحل لنومه معها «وغلقت الأبواب» أى أطبقتها وكانت سبعة ، والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الإيثاق « وقالت » له «هيت» أى تهيأت وتصنعت «لك» خاصة، قال الواحدى: «هيت » اسم للفعل نحو رويد ومه ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة «قال» لها يوسف عليه السلام « معاذ الله ».

أى أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه مما تدعوننى إليه «إنه» أى الذى اشترانى «ربى» أى سيدى «أحسن مثواى» أى أكرم منزلى فلا أخونه فى أهله، وقيل: إنه أى الله ربى «أحسن مثواى» أى آوانى وأنجانى من بلاء الجب «إنه لا يفلح الظالمون» أى إن فعلت هذه الفعلة فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون «ولقد همت به وهم بها» أى قصدت مخالطته ووسوس له الشيطان مخالطتها، والهم بالشىء قصده، ومنه الهمام، والمراد بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، ولهذا قال بعض أهل الحقائق: الهم قسمان: هم ثابت وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضاء مثل هم امرأة العزيز، فالعبد مأخوذ به، وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل هم يوسف عليه السلام، والعبد ليس مأخوذا به ما لم يتكلم أو يعمل، كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل: إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها، قال فى الكشاف: ويجوز أن يريد بقوله: «وهم بها» شارف أن يهم، كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه «لولا أن رأى» أى بعين قلبه «برهان ربه» أى الذى أتاه إياه من الحكم والعلم، والمعنى: لولا ذلك لهم بها، لكن كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يهم أصلا، لما أتاه الله تعالى من القوة، مع كونه فى سن الشباب، فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الداعى، غير أن نور الشهود منع منها أصلا، وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام، مع أنه الذى يدل عليه أساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء، وأن السجن أحب إليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها «ماجزاء من أراد بأهلك

سوءاً ، الآية من مطلق الإرادة ، ومع ما يتحتم تقدير ما ذكر بعد لولا فى خصوص هذا التركيب من أساليب كلام العرب ، فإنه يجب أن يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله، وهذا مثل قوله تعالى : « إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » أى لأبدت به ، وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك فلم يصح منه شىء عن أحد منهم، مع أن هذه الأقوال التى وردت عنهم إذا جمعت تناقضت وتكاذبت ، قال الزمخشرى : وهذا ونحوه مما يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وأنبيائه ، فأخزى الله أولئك ، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل ، وأطال فى رد ذلك ، وكذا فعل الرازى ، وقيل : «وهمَّ بها» أى بزجرها ووعظها ، وقيل: هم أى منعه امتناعه منها ، وقيل : هم بها أى نظر إليها ، وقيل : هم بضربها ودفعها ؛ وقيل : هذا كله قبل نبوته ، « كذلك » أى مثل ذلك التثبت نثبته فى كل أمر « لنصرف عنه السوء » أى الهم بالزنا وغيره ، وقيل : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة « والفحشاء » هو الزنا ، وكأنه قيل : لم فعل به هذا ؟ فقيل : « إنه من عبادنا » أى الذين عظمناهم « المخلصين » أى من عبادنا الذين هم خير صرف لا يخالطهم غش ، وفتح اللام يدل على أن الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته، وقيل : هو بكسر اللام ، وكلا اللفظين من أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه ، وهذا مع قول إبليس : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وهو شهادة من إبليس أن يوسف عليه السلام برىء من الهم .

وقيل: معنى « ولقد همت به » أى وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، ومراوَدة عن نفسها لا مراودة ، حتى إن حماة الأنوف من كبراء الرجال، ليطأطئون الرؤوس للفقيرات الحسان ربات الجمال، ويبذلون لهن ما يعتزون به من الجاه والمال ، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم

لمملوكاتهم وأزواجهم ولا يأبون أن يسموا أنفسهم عبيداً لهن، ولكن هذا العبد العبرانى الخارق للطبيعة البشرية فى حسنه وجماله، وفى جلاله وكماله، وفى إبائه وتعففه، قد عكس القضية، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها فى إدلالها وتمنعها، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها: راودته عن نفسه فى مخدع دارها، فيصد عنها علواً ونفاراً، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتواً واستكباراً، معتزاً عليها بالديانة والأمانة، والترفع عن الخيانة، وحفظ شرف سيده وهو سيدها وزوجها وحقه عليها أعظم، إن هذا الاحتقار لا يطاق، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله بالانتقام، هذا ماثار فى نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال وشرعت فى تنفيذه او كادت، بأن همت بالبطش به فى ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها فى كل زمان ومكان، ومعنى «وهم بها لولا ان رأى برهان ربه» أنه رأى من برهان ربه فى سريرة نفسه، ما هو مصداق قوله تعالى «والله غالب على أمره» وهو إما النبوة التى تلى الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد، وشاهده قوله تعالى: «قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا» وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى فى آيتى العصا واليد: «فذانك برهانان من ربك» وإما مقدماتها من مقام الصديقية العليا وهى مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا إليه، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين فى تفسير الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فيوسف عليه السلام كما يقول الشيخ رشيد رضا قد رأى البرهان فى نفسه، لا صورة أبيه متمثلة فى سقف الدار. ولا صورة سيده العزيز فى الجدار، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن، وأمثال هذه الصور التى رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع، ولم يرو فى خبر مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحاح ولا فيما دونها، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة، ومقتضى ما وصف الله به يوسف فى هذا السياق وغيره من السورة، ولاسيما قوله فى أوله «وكذلك

بجزى المحسنين ، وما فسر النبى صلى الله عليه وسلم به الإحسان ، وقوله فى تعليله «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » أى كذلك فعلنا وتصرفنا فى أمره لنصرف عنه دواعى ما أرادته به أخيرا من السوء وراودته عليه قبله من الفحشاء ، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية فى نفسه ، فلا يصيبه شىء يخرجه من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم ، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو فى رده عليها بأنهم لا يفلحون وشهادته حق ، ويزيد الأمر فى ذلك تأكيدا قوله « إنه من عبادنا المخلصين » بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب ، وكان يوسف هو الحلقة الرابعة فى سلسلتهم الذهبية ، وقد بشره أبوه بذلك بعد أن قص عليه رؤياه إذ قال له « وكذلك يجتبيك ربك » فالاجتباء هو الاصطفاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « المخلصين » بكسر اللام والقراءتان متفقتان متلازمتان، فهم مخلصون لله فى إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له ، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم ، والجملة تعليل لصرف الله السوء والفحشاء عنه ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، فإنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه إليهما فيصرف عنهما ، وهمه لأول وهلة بدفع صيالها هم بأمر مشروع ، وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه ، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها وإهانته لها ، فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به ، فكان موقفهما موقف المواثبة ، والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هى مثله ، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له ، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضى ، وتبعته هى مرجحة للمقتضى على المانع ، واستبقا باب الدار . ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا الروايات الإسرائيلية الحمقاء ، حماية لعقيدة عصمة الأنبياء ، فإنه لم يكد يسلم أحد من تأثير بعضها فى أنفسهم ،

وتسليمهم لهم أن الهم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة ، إلا من خالف قواعد اللغة فقال إن قوله تعالى : « وهم بها » جواب لقوله « لولا أن رأى برهان ربه » ومن قال : إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، فهو على هذين القولين لم يهم بشيء ، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها ، وتأوله بعضهم بأن همه بالفاحشة بمقتضى الدواعي الفطرية لا ينافي العصمة ، وإنما ينافيها طاعتها بدليل ما صح في الحديث أن من هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه ، وإن امتناعه عنها بترجيح داعية الإيمان وطاعة الله تعالى مع طغيانها وإلحاحها الطبيعي عليه أدل على الإيمان والطاعة من كونه لم يفعلها كراهة لها وعزوفا عنها لقبحها، ولهم تأويلات كثيرة من هذا القبيل، ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنى عنها ، والتأويل الأخير أوله مقبول وآخره مردود، فههنا مرتبتان : في إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس وكبحا لها خوفا من الله تعالى ، وهي مرتبة الصالحين الأبرار ، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراقا في شهوده ، وهي مرتبة الصديقين والنبيين الأخيار ، الذين إذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع ، بالصورة المحرمة في الشرع ، عارضها من وجدان الإيمان ، وتجلي الرحمن ، ما تغلب به روحانيتهم الملكية ، على طبيعتهم الحيوانية ، وهذا مما قد يحصل لمن دون الأنبياء منهم ، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم ، وينعكس نوره عن بصائرهم فيلوح لأبصارهم .

« واستبقا الباب » أي تسابقا في الوصول إليه ، هذا ليهرب ، وهي لتمنعه من الهرب ، وكانت الأبواب مغلقة فكان يشتغل بفتحها ، فتعلقت بأدنى ما وصل إليه من قميصه ، فاشتد تعلقها به مع إعراضه هو عنها وهربه منها ، ففتحه فأراد الخروج فمنعته « و » لم تزل تنازعه حتى « قدت » أي شقت « قميصه » وكان القد « من دبر » أي من الخلف وانقطعت منه قطعة فبقيت في يدها « وألفيا » أي وجدا « سيدها » أي زوجها وهو العزيز ، تقول المرأة لبعلها : سيدي ، ولم يقل سيدي لأن ملك يوسف لم

يصح فلم يكن سيدا له على الحقيقة « لدى » أى عند « الباب » فلما رأت المرأة زوجها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول ، و « قالت » لزوجها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » أى فاحشة من زنا أو غيره ، ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت : « إلا أن يسجن » أى يحبس فى السجن ويمنع من الحركة والتصرف « أو عذاب أليم » أى بأن يضرب بالسياط ونحوها ، وإنما بدأت بالسجن قبل العذاب لأن المحب لا يشتهى إيلام المحبوب ، وإنما أرادت أن يسجن يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل ، فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين ، ألا ترى أن فرعون هكذا قال فى حق موسى عليه السلام فى قوله : لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ، فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها « قال » مبرئاً نفسه « هى » بضمير الغيبة لاستحيائه بمواجهتها بإشارة أو ضمير خطاب « راودتنى عن نفسى » أى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها ، وذلك أن يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ، ولكن لما قالت هى ما قالت احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه ، وصدقه فى ما قال لا يحتاج إلى بيان أكثر من الحال الذى كان فيه ، وهو أنهما عند الباب ، ولو كان الطلب منه لما كان إلا فى محلها الذى تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه ، وأيضا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه ، وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزين النفس ، فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برىء من الريب وأن المرأة هى المذنبة ، وهوقوله تعالى « وشهد شاهد من أهلها » أى وحكم حاكم من أهل المرأة ، واختلفوا فى هذا الشاهد : فقال سعيد بن جبير والضحاك : كان صبياً فى المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : تكلم فى المهد أربعة وهم صغار : شاهد يوسف وعيسى بن مريم وصاحب جريج ـ كان يرضع فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فقال الصبى :

اللهم لا تجعلني مثله ، وزادت بعض الروايات يحيى بن زكريا .. وقالت طائفة من المفسرين : إنها كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما ، واتفق فى ذلك الوقت أنه كان مع العزيز يريد أن يدخل عليها فقال : قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندرى أيكما قدام صاحبه ولكن « إن كان قميصه قد من قبل » أى من قدام « فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر » أى من خلفه « فكذبت وهو من الصادقين » لأنه لولا إدباره منها وإقبالها عليه لما وقع ذلك ، وعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى : « فلما رأى » أى سيدها « قميصه » أى يوسف عليه السلام « قد من دبر قال » لها زوجها وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكداً لأجل إنكارها « إنه » أى هذا القذف له « من كيدكن » معشر النساء ، والكيد طلب الإنسان بما يكره « إن كيدكن عظيم » أى احتيالهن عند الرغبة وفتنة الشيطان شديد كبير ، ومكر النساء فى هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر ؛ لأن لهن من المكر والحيل والكيد فى إتمام مرادهن مالا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب ، ولأن كيدهن فى هذا الباب يورث العار مالا يورثه كيد الرجال ، ولما ظهر للقوم براءة يوسف عند ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال « يوسف » أى يا يوسف « أعرض » أى انصرف بكليتك مجاوزاً « عن هذا » الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ، ثم التفت إلى المرأة وقال لها « واستغفرى لذنبك » أى توبى إلى الله تعالى مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو برىء منها « إنك كنت من الخاطئين » أى الآثمين ، قيل : إن القائل المذكور هو الزوج ، وقيل : هو الشاهد ، فإن قيل : كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير ؟ أجيب بأنه قال ذلك تغليباً للذكور على الإناث ، أو أن المراد : إنك من نسل الخاطئين .

* * *

هذا هو الربع الثانى من سورة يوسف عليه السلام الذى صور الله عز وجل فيه قصة نشأة يوسف وحسد إخوته له ورميهم إياه فى الجب وشراء العزيز له ، وقصته مع امرأة العزيز أبلغ تصوير ، وعبر عنه أفصح تعبير ، وأبان عنه بأروع بيان ..

الربع الثالث من سورة يوسف

٣٠ — وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

٣١ — فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .

٣٢ — قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ .

٣٣ — قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ .

٣٤ — فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

٣٥ — ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ .

٣٦ — وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٣٧ — قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ
أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ
لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ .

٣٨ — وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ
أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

٣٩ — يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ .

٤٠ — مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا
تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ .

٤١ — يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا
ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ .

٤٢ — وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ .

٤٣ — وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ .

٤٤ — قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ .

٤٥ — وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ .

٤٦ — يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ .

٤٧ — قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ .

٤٨ — ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ .

٤٩ — ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ .

٥٠ — وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ

رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

٥١ — قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

٥٢ — ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ .

فى هذا الربع الكريم من سورة يوسف ، أو الآيات الثلاث والعشرين ، يذكر الله عز وجل ذيوع نبأ قصة يوسف مع امرأة العزيز فى عاصمة فرعون، واحتيال امرأة العزيز على النسوة اللاتى أذعن القصة ، حتى شاهدن يوسف ، وسحرن بجماله ، فى مأدبة خاصة ، وضعت فيها السكاكين على الموائد فقطعن أيديهن من ذهولهن ، وقلن : حاشا لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، ثم يذكر الله عز وجل سجن يوسف ، ودعاءه لله أن يصرف عنه كيد النساء ، ونبوءات يوسف فى السجن ، ودعوته المسجونين إلى عبادة الله رب يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم ، ثم تفيض الآيات فى ذكر منام فرعون ، وعجز الكهان ومعبرى الرؤيا عن تأويله ، ولجوئهم إلى يوسف ، وتعبيره لمنام الملك، وإعجاب الملك بأمره ، وظهور براءة يوسف للملك، وإقرار امرأة العزيز ببراءته .

كل ذلك فى أسلوب رائع ، وتصوير جميل ، وعبارة أخاذة ، وبيان طلى، وإعجاز فى الأداء والقصص ما بعده من إعجاز ، ولكن ليس من عادتنا فى

هذا التفسير النظر فى البلاغة وحدها إلا عرضا وعلى سبيل الاستطراد ، ولو أننا فرغنا لإعجاز القرآن وبلاغته والحديث عن أسلوبه وفصاحته آية آية ، لاستغرق ذلك منا الوقت والجهد ، ولخرج هذا التفسير فى أضعاف حجمه ، ولـكن كيف السبيل إلى ذلك وأعباء نشره وطبعه المادية تكاد تؤود الجبال ، ولـكن فضل الله عظيم ، ورعايته الشاملة كبيرة ، وما توفيقى إلا بالله .

* * *

يقول الله تعالى فى هذا الربع البليغ فى قصة يوسف ، وفى أحد مشاهد قصته مع امرأة العزيز :

« وقال نسوة فى المدينة » أى قالت جماعة من النساء ، قيل هن : امرأة الساقى وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب . والصحيح أن المراد العموم وانتشار الخبر فى المدينة أى عاصمة مصر ، ودعوتها لنساء معينات إنما هى للمحيطات بها . . وقيل : المراد بالمدينة عين شمس « امرأة العزيز » وإنما إضفتها إلى زوجها إرادة الإشاعة للخبر، لأن النفس إلى سماع أخبار العظماء أميل ، والعزيز الملك بلسان العرب، والمراد به رئيس شرطة الملك أو بلسان العصر الحاضر وزير داخليته « تراود فتاها » أى عبدها الـكنعانى « عن نفسه » أى تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها «قد شغفها حبا» أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها ، وحبا نصب على التمييز « إنا لنراها » أى نعلم أمرها علما كالرؤية « فى ضلال » أى خطأ « مبين » أى بين ظاهر حيث تركت مايجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها إياه « فلما سمعت امرأة العزيز بمكرهن » أى قولهن، وإنما سمى ذلك مكرا لوجوه :

الأول : أن النسوة إنما ذكرن ذلك الـكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه، لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن .

الثانى : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف عليه السلام ، وطلبت منهن كتمان السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك مكرا .

الثالث : أنهن وقعن فى غيبتها والغيبة ، إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر .

« أرسلت إليهن » تدعوهن لتقيم عذرها عندهن ، قال وهب: اتخذت مائدة ودعت أربعين امرأة من نساء أشراف مدينتها فيهن الخمس نسوة « واعتدت » أى أعدت «لهن متكأ» أى طعاما يقطع بالسكين ، وهو الأترج . وإنما سمى الطعام متكأ لأنه يتكأ عنده ، وقيل: المتكأ مايتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث، لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ، وقيل: إنها زينت البيت بألوان الفاكهة والأطعمة ، ووضعت الوسائد ، ودعت النسوة اللاتى عيرنها بحب يوسف عليه السلام «وآتت» أى أعطت «كل واحدة منهن سكينا» أى لتأكل بها ، وكانت عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين ، وفى هذا دليل على حضارة المصريين القدماء وترفهم واستعمالهم لأدوات الموائد الحديثة « وقالت » زليخا ليوسف « اخرج عليهن » أى النسوة ، وكان يخاف من مخالفتها ، فخرج عليهن يوسف فى بهائه وجماله ووقاره وزينته « فلما رأينه » أى النسوة « أكبرنه » أى أعظمنه ودهشن عند رؤيته ، واتفق الأكثرون على أنه إنما أكبرنه للجمال الفائق والحسن الكامل ، وقال عكرمة : كان فضل يوسف فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : رأيت يوسف ليلة أسرى بى إلى السماء كالقمر ليلة البدر ، ويقال: إنه ورث الجمال من جدته سارة ، وقيل: « أكبرنه » يعنى حضن ، والهاء للسكت ، يقال : أكبرت المرأة حاضت ، وحقيقته : دخلت فى الكبر ، لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر .

وقال الرازى : إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والإخبات وشاهدن عليه الوقار والهيبة ، وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن « وقطعن أيديهن » أى جرحنها بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام ولم يجدن الألم من فرط

الدهشة بيوسف ، وقال وهب : مات جماعة منهن «وقلن حاش لله» تنزيها «ماهذا» أى يوسف عليه السلام «بشرا» وإعمال (ما) عمل (ليس) هى اللغة الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى : ماهن أمهاتهم «إن» أى ما «هذا إلا ملك كريم» أى على الله ، لما حواه من الحسن الفائق الذى لايكون عادة لبشر . فإن الجمع بين الجمال الباهر والكمال الرائع والعصمة البالغة من خواص الملائكة «قالت» أى زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته «فذلكن» أى فهذا هو «الذى لمتننى فيه» أى فى محبته قبل أن تتصورنه حق تصوره ، ثم إنها صرحت بما فعلت فقالت «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» أى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبت ، وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أنها لاملامة عليها منهن، وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ، ثم قالت «ولئن لم يفعل ما آمره» أى وإن لم يطاوعنى فيما دعوته «ليسجنن» أى ليعاقبن بالحبس «وليكونا من الصاغرين» أى الذليلين المهانين ، فاختار يوسف عليه السلام السجن على مادعته إليه ، فلذلك «قال : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه» وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذاك مما تكرهه نظرا للعاقبة ؛ فان الأول فيه الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة والثانى فيه المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة ؛ فإن قيل : إن الدعاء كان منها فلم أضافه إليهن جميعا ، أجيب بأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها ، وقيل : إنهن دعونه إلى أنفسهن ، قال بعض العلماء : لو لم يقل : السجن أحب إلى — لم يبتل بالسجن ، والأولى بالعبد أن يسأل الله تعالى العافية ، ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر بقوله : سألت الله البلاء فاسأله العافية . رواه الترمذى «وإلا» أى وإن لم «تصرف عنى كيدهن» أى فيما أردن منى بالتثبيت على العصمة «أصب» أى أميل «إليهن» ، يقال : صبا فلان إلى كذا : إذا مال إليه واشتاقه «وأكن» أى أصر «من الجاهلين» أى من السفهاء بارتكاب مايدعوننى إليه ، فإن الحكيم لايفعل القبيح ، وفى ذلك دليل على أن من ارتكب ذنبا إنما يرتكبه على جهالة ، والقصد بذلك الدعاء ، ولذلك قال تعالى:

فاستجاب له ربه ، أى فأجاب الله تعالى دعاءه الذى تضمنه هذا الثناء ؛ لأن الرب الكريم يغنيه التلويح عن التصريح ، قال أمية بن الصلت :

إذا أثنى عليك المرء يوماً   كفاه من تعرضه الثناء

« فصرف عنه كيدهن ، أى فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان « إنه هو السميع » لدعاء الملتجئين إليه « العليم » أى بالضمائر والنيات « ثم بدا » أى ظهر « لهم » أى العزيز وأصحابه « من بعد مارأوا الآيات » أى البراهين الدالة على براءة يوسف عليه السلام ، كشهادة الصبى وقد القميص ، وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن «ليسجننه حتى » أى إلى « حين » ينقطع فيه كلام الناس ، وذلك أن المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس ، يقول لهم : إنى راودته عن نفسه ، فعند ذلك رأى العزيز أن الأصوب حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة ، فسجنه ، وفى فاعل « بدا » أربعة أوجه :

الأول ـ وهو أحسنها ـ أنه ضمير يعود على السجن ، أى ظهر لهم حبسه .

الثانى : أن الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا ، أى بدا لهم براءة يوسف .

الثالث : أنه مضمر يدل عليه السياق ، أى بدا لهم رأى .

والرابع أنه محذوف ، ويسجننه قائم مقامه ، أى بدا لهم السجن ، وليست الجملة فاعلا لأن الجمل لا تكون كذلك .

وقد حبس يوسف خمس سنين ، وقيل : سبع سنين ، وقال مقاتل بن سليمان : حبس يوسف اثنى عشر عاماً ، وقال الرازى : والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة ، وإنما المقدر المعلوم أنه بقى محبوساً مدة طويلة ، لقوله تعالى «وادكر بعد أمة » وعن عكرمة قال : قال رجل ذو رأى للعزيز : متى تركت هذا العبد يعتذر إلى الناس ويقص عليهم أمره فاتركه فى بيتها لا يخرج إلى الناس ؛ فإن خرج للناس عذروه وفضحوا أهلك ، فأمر به فسجن « ودخل معه السجن

فتيان ، وهما غلامان كانا لفرعون ملك مصر الأكبر : أحدهما خبازه صاحب طعامه ، والآخر ساقيه صاحب شرابه ، فغضب الملك عليهما ، فحبسهما ، وكان السبب فيه أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يضعا لفرعون السم فى طعامه وشرابه ، فأجابا إلى ذلك ، ثم إن الساقى ندم ورجع عن ذلك ، وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام ، فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى : لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم ، فقال الملك للساقى: اشرب فشرب فلم يضره ، وقال للخباز: كل من طعامك فأبى ، فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر بحبسهما ، وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لأهله : إنى أعبر الأحلام ، فقال : أحد الفتيين لصاحبه : هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى ، كل يزعم أنه رأى رؤيا ، قال ابن مسعود : وما رأيا شيئا وإنما زعما ذلك ليجربا يوسف ، وقال قوم : بل كانت رؤيا حقيقية ، فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما ، فذكرا أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما ، فقال يوسف قصا على ما رأيتما ، قال أحدهما ، وهو صاحب شراب الملك ، إنى أرانى أعصر خمرا ، فإن قيل: كيف يعقل عصر الخمر؟ أجيب عن ذلك بثلاثة أقوال :

أحدها أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أى العنب الذى يكون عصيره خمراً ، ففى الكلام حذف .

الثانى: أن العرب تسمى الشىء باسم مايؤول إليه ، فالكلام على المجاز المرسل.

الثالث : قال أبو صالح : أزد وعمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها ، وقال الضحاك : نزل القرآن بألسنة جميع العرب ، وذلك أنه قال : إنى رأيت فى المنام كأنى فى بستان ، وإذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان على ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها ، وكان كأس الملك بين يدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، وذلك أنه قال : إنى رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الطعام وسباع الطير تنهش منه ، نبئنا ، أى

أخبرنا « بتأويله، أي تفسيره « إنانراك من المحسنين » أي في علم التفسير ، وقيل: في أمر الدين؛ لأنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة ، فإنه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا وفي سائر الأمور ، وقيل : في حق الشركاء والأصحاب؛ لأنه كان يعود مرضاهم ويواسى المكروب فيهم ، وكان يسكنهم ويقول : اصبروا وأبشروا تؤجروا فيقولون : بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك ، لقد بورك لنا في جوارك ، فمن أنت يافتى؟ قال : أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن إسحاق بن خليل الله إبراهيم ، فقال له عامل السجن : والله يافتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك ، فكن في أي بيوت السجن شئت فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبرلهما ما سألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما « قال » معرضا عن سؤالهما آخذا في غيره من إظهار المعجزة في الدعاء إلى التوحيد « لا يأتيكما طعام ترزقانه » أي في منامكما « إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » تأويله ، وقيل : أراد به في اليقظة يقول : لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما ، أي تطعمانه إلا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل إليكما فيه قبل أن يصل وأي طعام أكلتم ، وهذا معجزة عيسى عليه السلام حيث قال : وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، فقالا : هذا فعل الكهنة ، فمن أين لك هذا العلم ؟ فقال : ما أنا بكاهن « ذلكما » أي هذا التأويل والإخبار بالمغيبات « مما علمنى ربى » وفي ذلك حث على إيمانهم ثم قواه بقوله : « إنى تركت ملة » أي دين « قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » وكرر لفظة هم للتأكيد لشدة إنكارهم للمعاد ، ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة بقوله : « واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب » فإن قيل : إنه كان نبيا فكيف قال : اتبعت ملة آبائى، والنبي لابد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه؟ أجيب بأن مراده التوحيد الذى لايتغير ، أو لعله كان رسولا من عند الله إلا أنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام « ما كان » أي ما صح « لنا » معشر الأنبياء « أن نشرك

بالله من شيء ، لأن الله تعالى طهره وطهر أباه عن الكفر ، وإنما قال : « من شيء » ، لأن ضروب الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد الملائكة ؛ فقوله : «من شيء» رد على هؤلاء الطوائف وإرشاد إلى الدين الحق ، وهو أنه لا موجود ولا خالق ولا رازق إلا الله « ذلك » أي التوحيد « من فضل الله علينا » بالوحي « وعلى الناس » أي سائرهم ببعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه « ولكن أكثر الناس » أي المبعوث إليهم « لا يشكرون » هذه النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم ؛ لأنهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ، ثم دعاهم إلى الإيمان فقال : « يا صاحبي السجن » أي يا صاحبي في السجن ، فأضافهما إلى السجن كما تقول : مقرىء الليلة ، فكأن الليلة مقروء فيها وليست مقروءة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، أو يا ساكني السجن كما قال : أصحاب الجنة وأصحاب النار «أأرباب» أي آلهة «متفرقون» أي متباينون «خير» أي أعظم في صفة المدح وأولى بالطاعة « أم الله الواحد القهار » أي المتفرد بالألوهية الذي لا يغالب ولا يشارك ، والاستفهام للتقرير ، فإن قيل : هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال : إنها خير أم الله ؟ أجيب بأن ذلك خرج على سبيل الفرض ، والمعنى : لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهي خير ام الله الواحد القهار « ما تعبدون » وإنما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في المخاطبة ؛ لأنه أراد جميع من في السجن من المشركين ، والعبادة خضوع القلب في أعلى مراتب الخضوع « من دونه » أي غيره « إلا أسماء سميتموها » أي ذوات أوجدتم لها أسماء « أنتم » سميتموها آلهة وأربابا وهي حجارة لا حقيقة لها « وآباؤكم » من قبلكم سموها كذلك ، وهذا إشارة إلى أنهم متبعون لآبائهم في الدين ، ينظرون لهم فيه « ما أنزل الله بها » أي بعبادتها « من سلطان » أي حجة وبرهان « إن الحكم » أي ما الحكم « إلا لله » أي المختص بصفات الكمال والحكم « أمر » وهو النافذ الأمر المطاع الحكم « أن لا تعبدوا إلا إياه » لأنه أهل للعبادة لا هذه الأسماء التي

سميتموها آلهة « ذلك » أى الشأن الأعظم وهو توحيده وإفراده عن خلقه « الدين القيم » أى المستقيم الذى لا عوج فيـه « ولـكن أكثر الناس » وهم الـكفار « لا يعلمون » ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون .

ولما قرر يوسف عليـه السلام أمر التوحيد والنبوة عاد إلى الجواب عن السؤال الذى ذكراه فقال : « ياصاحبى السجن » اى الذى يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة فى القلب فتخلص فيه المودة ، ولما كان فى الجواب ما يسوء الخباز ابهم ليظن كل منهما أنه الفائز ، فإن ألجاه إلى التعيين كان ذلك عذرا له فى الخروج عن الأليق فقال : « اما أحدكما » وهو صاحب شراب الملك « فيسقى ربه » أى سيده « خمرا » على عادته ، والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام تبقى فى السجن، ثم يدعو به الملك فيرده إلى مرتبته التى كان عليها ، هـذا تأويل رؤياه « وأما الآخر » وهو صاحب طعام الملك « فيصلب » والسلال الثلاثة ثلاثة أيام ويدعو به الملك فيصلبه « فتأكل الطير من رأسه » هذا تأويل رؤياه ، قال ابن مسعود : فلما سمعا قول يوسف عليـه السلام قالا : ما رأينا شيئاً إنا كنا نلعب ، فقال لهما يوسف عليـه السلام : « قضى » أى تم الأمر « الذى فيه تستفتيان » أى تطلبان الإفتاء فيه عملا بالفتوى فسألتما عن تأويله ، وهو تعبير رؤياكما ، وسواء كذبتما أوصدقتما لم أقله عن جهل ولا خطأ « وقال » يوسف عليه السلام « للذى ظن » أى علم وتحقق ، والظن بمعنى العلم لأنه قاله عن وحى لقوله : « قضى الأمر » ولا يجوز أن يكون ضميرا للساقى فهو حينئذ على بابه « أنه ناج منهما » وهو الساقى « اذكرنى عند ربك » أى سيدك ملك مصر . والمراد بالرب هنا غير المراد به فى قوله : أأرباب متفرقون . . وقـد نجا الساقى وصلب صاحبه وفق ما قال لهما يوسف عليه السلام . . واختلف فى ضمير « فأنساه الشيطان ذكر ربه » على قولين :

أحدهما أنه يعود إلى الساقى وهو قول جماعة من المفسرين ، أى فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك ، قالوا : ذلك لأن صرف وسوسة

الشيطان إلى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف .

والقول الثانى وعليه أكثر المفسرين أنه يرجع إلى يوسف عليه السلام، وقال الرازى : إنه الحق ، أى إن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله ، وتلك غفلة عرضت له عليه السلام، فإن الاستعانة بمخلوق فى رفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب، فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذا بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى فى تلك القصة البتة . بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء ، فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الغافلون إليه ، وتمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه إنما كان شغل خاطر ، وأما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه ، واختلف فى قدر البضع فى قوله تعالى : « فلبث فى السجن بضع سنين » فقال مجاهد : ما بين الثلاث إلى السبع ، وقال ابن عباس : ما دون العشرة، قال البغوى : وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين ؛ وكان قد لبث قبل ذلك خمس سنين فجملته اثنا عشر عاما ، وقال وهب :أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين ، وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقى : اذكرنى عند ربك قيل له : يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك ، فبكى يوسف ، وقال: يارب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة . قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم : رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها ما لبث فى السجن ما لبث ، ثم بكى الحسن ، وقال : نحن إذا نزل بنا بلاء فزعنا إلى الناس، وقال الحسن أيضا : دخل جبريل على يوسف عليه السلام فى السجن ، فلما رآه يوسف عرفه فقال له : ياأخا المنذرين مالى أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل : يقرأ السلام عليك رب العالمين ويقول لك : أما استحيت منى واستشفعت بالآدميين ، فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين ، قال :

وهو فى ذلك عنى راض ؟ قال : نعم ، قال : إذا لا أبالى ، وقال كعب : قال جبريل ليوسف : إن الله تعالى يقول لك : من خلقك ؟ قال : الله ، قال : فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال الله تعالى ، قال : فمن حببك إلى أبيك ؟ قال : الله ؟ قال : فمن أنجاك من كرب البئر ؟ قال : الله ، قال : فمن صرف عنك السوء والفحشاء ؟ قال : الله ، قال : فكيف استشفعت بآدمى مثلك ؟ قال الرازى فى تفسيره : والذى جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والشدة ، وإذا عول على الله تعالى ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه السابعة والخمسين ، فعند هذا استقر قلبى أنه لامصلحة للإنسان فى التعويل على شىء سوى فضل الله تعالى ، ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام رأى ملك مصر رؤيا عجيبة هائلة كما قال تعالى : « وقال الملك إنى أرى » أى رأيت ـ عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة تعجبه من ذلك « سبع بقرات سمان » أى خرجن من نهر يابس ، وسمان جمع سمينة ، والسمن زيادة البدن من اللحم والشحم « يأكلهن » أى يبتلعهن « سبع » أى من البقر « عجاف » جمع عجفاء أى مهازيل خرجن من ذلك النهر « و » إنى أرى « سبع سنبلات خضر » أى قد انعقد حبها « و » إنى أرى سبع سنبلات « أخر يابسات » أى قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، وإنما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات ، وجمع فرعون الكهنة وقال لهم : « يا أيها الملأ » أى الأشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم « أفتونى فى رؤياى » أى أخبرونى بتأويلها « إن كنتم للرؤيا تعبرون » أى إن كنتم عالمين بتعبير الرؤى فاعبروها ، وفى الآية دلالة على منزلة العلماء وحاجة الملوك إليهم ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل : قالوا هذه الرؤيا « أضغاث » أى أخلاط « أحلام » مختلطة مختلفة مشتبهة ، جمع ضغث بكسر الضاد وإسكان الغين المعجمة ، وهى قبضة حشيش مختلطة باليابس ، والأحلام جمع حــلم ـ بضم الحاء وإسكان اللام « وما نحن »

أى بأجمعنا « بتأويل الأحلام » أى المنامات الباطلة « بعالمين » أى ليس لها تأويل ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة للعذر ، ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب ، تذكر الفتى صاحب شراب الملك يوسفَ عليه السلام ، لأنه كان يعتقد كونه متجرا فى هذا العلم كما قال تعالى : « وقال الذى نجا » أى خلص « منهما » أى من صاحبى السجن وهو صاحب الشراب : إن فى الحبس رجلا فاضلا صالحاً كثير العلم كثير الطاعة ، قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى كل ما ذكر وما أخطأ فى حرف « وادكر » أى طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل « بعد أمة » أى وتذكر صاحب الملك يوسف بعد وقت طويل من الزمان « أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » أى أرسلونى إلى يوسف عليه السلام ، فإنه أعلم الناس، فأرسلوه إليه ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن السجن بالمدينة فأتاه ، فقال الساقى المرسل إلى يوسف . مناديا له نداء القرب تحبباً إليه : « يوسف » وزاد فى التحبب بقوله : « أيها الصديق » أى البليغ فى الصدق والتصديق، لأنه جرب أحواله وعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ، وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فإنه يجب عليه أن يعظمه ، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال، ثم إنه أعاد السؤال يعنى اللفظ الذى ذكره الملك فقال : « أفتنا » أى اذكر لنا الحكم « فى سبع بقرات سمان » أى رآهن فرعون « يأكلهن سبع » من البقر « عجاف و » فى « سبع سنبلات » جمع سنبلة وهى مجمع الحب من الزرع « خضر و » فى سبع « أخر » من السنابل « يابسات » أى فى رؤيا ذلك « لعلى أرجع إلى الناس » أى الملك وجماعته بفتواك قبل مانع يمنعنى « لعلهم يعلمون » أى بتأويل هذه الرؤيا ، أو بمنزلته فى العلم « قال » يوسف عليه السلام معبرا لتلك الرؤيا : أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات ، وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة ، فذلك قوله : « تزرعون سبع سنين » وهو خبر بمعنى الأمر كقوله : والمطلقات يتربصن ، والوالدات يرضعن ، وإنما خرج

الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى الإيجاب فيجعل كأنه وجد ، فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه فى معنى الأمر قوله : فذروه فى سنبله ، دأبا ، أى دائبين أى سبع سنين متتابعة على عادتكم فى الزراعة ، والدأب العادة ، وقيل: ازرعوا بجد واجتهاد ، وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر ، فما حصدتم فذروه ، أى اتركوه ، فى سنبله ، لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس، وذلك أبقى له على طول الزمان ، إلا قليلا مما تأكلون ، من الحنطة للأكل بقدر الحاجة ، أمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة ، ثم يأتى من بعد ذلك ، أى السبع المخصبات ، سبع شداد ، أى مجدبات صعاب ، وهى تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات ، يأكلن ما قدمتم لهن، أى يأكل الناس فيها ما ادخرتم لأجلهن فأسند إليهن على المجاز ، إلا قليلا مما تحصنون ، أى تحرزون وتدخرون للبذر ، والإحصان الإحراز- وهو إبقاء الشىء فى الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ، ثم يأتى من بعد ذلك ، أى السبع المجدبات ، عام فيه يغاث الناس، أى يمطرون من الغيث وهو المطر ، وفيه يعصرون ، من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا ، وأراد بذلك كثرة النعم والخير ، وقال أبو عبيدة : تنجون من الكرب والشدة والجدب، ورجع صاحب الشراب إلى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام ، وقال الملك ، أى فرعون مصر ، ائتونى به ، لأسمع منه ذلك وأكرمه، وهذا يدل على فضيلة العلم فإنه سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية ، فأتاه الرسول ليأتى به إلى الملك ، فلما جاءه ، أى يوسف عليه السلام ، الرسول ، وهو الساقى قال له : أجب الملك ، قال ، له يوسف عليه السلام : ، ارجع إلى ربك ، أى سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهان للملك ولا يراه بعين النقص ، ولذلك قال ، فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن، وإنما قال يوسف عليه السلام : ما بال النسوة. ولم يقل: فاسأله أن يفتش عن حالهن، لأن قوله فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى اسأله عن شأنهن ، وأن يكون بمعنى الطلب - وهو أن يفتش عن شأنهن، فحسن تقييده بلفظ ما التى يسأل بها عن حقيقة الشىء ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن

حالهن، لأن الإنسان حريص على تحقيق الشيء ويستنكف أن ينسب إلى الجهل به بخلاف ما لو قال : سله أن يفتش أى اطلب منه فإنه لايبالى بهذا الطلب ولا يلتفت إليه لا سيما الملوك ، وإنما لم يتعرض لسيدته كرما ومراعاة للأدب ، وقدم سؤال النسوة وفحص عن حالهن ليظهر براءة ساحته ، لأنه لوخرج فى الحال لربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثر ، فلما التمس من الملك أن يحقق فى تلك الواقعة دلذلك على براءته عن تلك التهمة فبعد خروجه لايقدر أحد أن يصمه بتلك الرذيلة ، وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه ، وفى ذلك دليل على أنه ينبغى للشخص أن يجتهد فى نفى التهم ويتقى مواقعها ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجونى .

وفى هذا التريث والسؤال فوائد جليلة فى أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه فى سؤاله :

منها : دلالته على صبره وأناته ، وجدير بمن لقى ما لقى من الشدائد أن يكون صبوراً حليما ، فكيف إذا كان نبياً وارثاًلإبراهيم الذىوصفهالله بالأواه الحليم ؟ وفى حديث أبى هريرة فى المسند والصحيحين مرفوعا « ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى » وفى لفظ لأحمد : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » ، وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة فى تعجب النبى صلى الله عليه وسلم من صبره وكرمه ، وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من السجن ، ولو أتاه الرسول لبادر بالإجابة . فهو مرسل لا يحتج به .

ومنها : عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل حتى تظهر براءته ونزاهته .

ومنها : وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التى تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها .

ومنها : مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة ، وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن : ما بالهن قطعن أيديهن ، وينظر ما يجبن به .

ومنها : أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها ، لأن أمر شغفها به كان وجدانا قاهراً لها ، وإنما اتهمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعا عن نفسه ، فهو لم يكن له بد من اتهامها .

هذا وقد جاء في الإصحاح التاسع والثلاثين من سفر التكوين ما نصه :

وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت : اضطجع معي ، فأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدي ، ليس هو في هذا البيت أعظم مني . ولم يمسك عني شيئا غيرك لأنك امرأته . فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله ، وكان إذ كلمت يوسف يوما فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها . ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي . فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج ، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج. أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا دخل إلى ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ، وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج ، فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة : دخل إلى العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني ، وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج . فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك إن غضبه حمي ، فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه. وكان هناك في بيت السجن ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفا وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن ، فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن ، وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ، ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه.

« إن ربى » أى الله « بكيدهن عليم » حين قلن : أطع مولاتك . وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى ، وأنه برىء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن ، ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الأمر رجع الرسول إلى الملك فأخبره بما قال عليه السلام ، فكأنه قيل : فما فعل الملك ؟ فقيل « قال » للنسوة بعد أن جمعهن وامرأة العزيز معهن « ما خطبكن » أى ما شأنكن العظيم « إذ راودتن » أى خادعتن « يوسف عن نفسه » دليل على أن براءته كانت محققة عند كل من علم بالقصة ، وإنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب ، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها ، وقيل : إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها ، فلذلك خاطبهن . فكأنه قيل: فماذا أجبن ؟ قيل « قلن حاش لله » أى عياذاً بالملك الأعظم وتنزيهاً له من هذا الأمر « ما علمنا عليه » أى يوسف عليه السلام « من سوء » أى من خيانة فى شىء من الأشياء ، ولما كان يوسف عليه السلام قد راعى جانب امرأة العزيز حيث قال « النسوة اللاتى قطعن أيديهن » فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة ، ولما عرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها وإخفاء للأمر عليها ـ أرادت أن تكافئه على هذا أزالت الغطاء والوطاء فلذلك « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق » أى ظهر وتبين « أنا راودته » أى خادعته « عن نفسه وإنه لمن الصادقين » وشهد النسوة كلهن ببراءته وأنه لم يقع منه ما ينسب به إلى شىء من السوء البتة .

وقد علم من جملة الكلام أن يوسف عليه السلام كان مثل الكمال الإنسانى الأعلى للاقتداء به فى العفة والصيانة ، ولم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة ، وأن امرأة العزيز التى اشتهرت فى نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة فى التاريخ القديم والحديث كان أكبر إثمها على زوجها ، وكانت هى ذات مزايا فى عشقها الذى كان اضطراريا لا دواء له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذى بلغ منتهى الكمال فى الحسن والجمال ، فمن مزاياها أنها لم تتطلع إلى غيره من الرجال إجابة لداعى الشيطان للتسلى عنه بعد اليأس منه ،

وأنها لم تتهمه بالجنوح للفاحشة قط ، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأهما لدى الباب « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا » تعنى به همه بضربها ، وأنها فى خاتمة الأمر أقرت بذنبها فى مجلس الملك الرسمى إيثارا للحق وإثباتا لبراءة يوسف عليه السلام ..

ولما رجع الرسول إلى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهن ببراءته قال « ذلك » أى الخلق العظيم فى تثبيتى فى السجن إلى أن تبين الحق « ليعلم » العزيز بإقرارها « أنى لم أخنه » أى فى أهله ولا فى غيرهم « بالغيب » أى والحال أن كلامنا غائب عن صاحبه ، هذا قول الأكثرين على أنه قول يوسف عليه السلام ، قيل : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام آخر إذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » هذا كلام بلقيس ، ثم قال الله تعالى : « وكذلك يفعلون » ، وقال تعالى : ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، فهذا كلام الداعى ، ثم قال الله تعالى : إن الله لايخلف الميعاد ، ثم ختم الكلام بقوله « وأن الله لايهدى » أى لا يسدد وينجح بوجه من الوجوه « كيد الخائنين » أى ولو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصنى منها ظهر أنى برىء مما نسبونى إليه ؛ وقيل: إنه كلام امرأة العزيز ، والمعنى : إنى وإن كنت أحلت عليه الذنب فى حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه فى غيبته ، أى لم تقل فيه وهو فى السجن خلاف الحق ، ثم إنها بالغت فى تأكيد هذا القول وقالت : وإن الله لا يهدى كيد الخائنين ، يعنى إنى لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وإنه لما كان بريئا من الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه ..

وهذه الآية على القول الأول دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه :

الأول : قولها « أنا راودته عن نفسه » .

الثانى : قولها « وإنه لمن الصادقين » وهو إشارة إلى أنه صادق فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » .

والثالث : قول يوسف عليه السلام ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ،

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة يوسف عليه السلام ، وقد تضمن ذهول نساء النبلاء فى عاصمة فرعون من جمال يوسف ، وقطعهن أيديهن حين شاهدن جماله فى بيت العزيز ؛ كما تضمن سجنه ، وحياته الطويلة فى السجن ، ونبوته فيه ، ودعوته من فى السجن إلى عبادة الله ، وتفسيره للأحلام ، وتفسيره لمنام فرعون ، وإعجاب الملك به ، ودعوته له ، ورفض يوسف أن يخرج من السجن حتى يعاد التحقيق فى التهمة المنسوبة إليه وحتى تظهر براءته ، وإقرار امرأة العزيز بصدق يوسف وبأنها هى التى راودته عن نفسه ، إلى غير ذلك من روائع الحكمة والأدب الإلهى العظيم .

وفى هذا كله ما فيه من تعظيم أمر جريمة الزنا ، وبيان فظاعتها ، ويا ليت ذلك يكون زاجرا للأمم الإسلامية التى تفشت فيها اليوم الجرائم الخلقية ، وصار رؤساؤها وأمراؤها وملوكها اليوم هم الذين يغرون الناس بالفساد ، ويحضونهم عليه . .

الربع الرابع من سورة يوسف

٥٣ — وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٥٤ — وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ .

٥٥ — قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

٥٦ — وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٥٧ — وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

٥٨ — وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ .

٥٩ — وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ .

٥٠ — فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ .

٦١ — قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ .

٦٣ — وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

٦٣ — فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ .

٦٤ — قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

٦٥ — وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ .

٦٦ — قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

٦٧ — وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

٦٨ — وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

٦٩ — وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

٧٠ — فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ .

٧١ — قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ .

٧٢ — قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ .

٧٣ — قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ .

٧٤ — قَالُوا فَمَا جَزَٰؤُهُ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ .

٧٥ — قَالُوا جَزَٰؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَٰؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ .

٧٦ — فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

فى هذه الآيات الأربع والعشرين تصوير لتوبة امرأة العزيز ، ولاعترافها بذنبها ، وذكر لاستدعاء فرعون ليوسف ، حيث سر من كلامه ، فأجله وأكرمه وعظمه ، ورأى فيه بركة السماء ويمن الخير على أمته وعلى الناس أجمعين ، وسأله عمن يسند اليه الإشراف على تلك الأعمال الخطيرة ، فقال له يوسف: اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ، فنزع الملك خاتمه وجعله فى أصبع يوسف وقال لمن حوله: هذا عزيز مصر فاسمعوا له وأطيعوا، فانفرد يوسف بولاية الحكم وأشرف على زراعة الأرض وعمر البيوت والأهرامات، وخزن بها الحبوب بسنابلها حتى لقد ملأ الديار بالخزائن الزاخرة بالأرزاق . وانقضت سنوات الخصب السبع وحلت سنوات القحط والجدب ، فعم البلاء كافة الأقطار والبقاع، ونزل أرض كنعان حيث موطن يعقوب الرسول وأهله ، فقال لبنيه : يابنى إنكم ترون ما نحن فيه من حاجة وضائقة وقد سمعنا أن عزيز مصر ملجأ لكل قاصد يمتار الناس من خيراته فيحسن إليهم لأنه مؤمن بإله إبراهيم،فاحملوا ما لدينا من أرزاقنا واقصدوا حماه . فاستجاب له أبناؤه وتجهزوا

للسفر إلى مصر فدخلوها ليلا ، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيهم يوسف، فأشرف عليهم وقال : من أنتم؟ قالوا : نحن أولاد يعقوب النبي، قدمنا من أرض كنعان لنشترى القوت لأهلنا . . وأصبح يوسف لجلس على السرير وعليه التاج، ثم أمر بإخوته فدخلوا عليه وكانوا عشرة وتخلف عنهم أصغرهم بنيامين أخو يوسف ولزم أباه ، فسلموا عليه بتحية الملوك فأحسن وفادتهم ثم قال: لقد زعمتم أنكم أبناء يعقوب النبي فكيف لى بصدقكم ، فقال له أخوه روبيل: نحن نأتيك بأخينا الذى يقيم مع أبينا فيخبرك بمثل ما أخبرناك به ، فأمر بأن تؤخذ منهم بضاعتهم وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم .

ولما جهزهم بجهازهم قال: ائتونى بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين، فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون، قالوا :سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فوضع الفتيان بضاعتهم فى رحل أخيهم الأكبر يهوذا، ثم ساروا إلى أرض كنعان فدخلوا على أبيهم وقالوا: يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ، قال لهم أبوهم : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين، فقال له ابنه يهوذا ـ وقد أخرج بضاعتهم التى كانت فى رحله ـ: يا أبانا ما نبغى، هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ، فقال له أبوه : لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ، فلما أتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل .

وخرج يعقوب يشيع أبناءه فقال لهم : يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

فلما بلغوا مصر دخلوا على يوسف فسر لرؤية أخيه بنيامين ، ولما جلسوا

بين يديه كان بنيامين بعيدا عن بقية إخوته ، فال يوسف ناحيته وسأله عن علة انفراده عن بقية إخوته ، فقال : إنه كان لى أخ يدعى يوسف نخرج يوماً مع هؤلاء الإخوة ولكنه لم يعد، لأنهم زعموا أن الذئب أكله . وأمر يوسف بأن يمد السماط لإخوته وأوصى أن يجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقى بنيامين وحده فبكى ، فقال له يوسف: ما يبكيك ، قال: لقد جلس كل واحد من إخوتى مع أخيه ، ولو كان أخى يوسف حيا لجلس إلى مائدتى ، فقال له يوسف: أنا لك بمنزلة أخيك ، ثم نزل عن سريره وأكل معه . وأمر يوسف أن يستوفى إخوته الكيل وأسر إلى بعض فتيانه بأن يجعل الصواع فى رحل أخيه بنيامين ، فلما تجهزوا للرحيل أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين . فقال فتيان الملك ما جزاء من نجد صواع الملك فى رحله ؟ قالوا إن جزاء من يوجد الصواع فى رحله أن تمسكوه عندكم . عند ذلك أمر يوسف بعض فتيانه بتفتيش رحالهم، فبدأوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه دفعا الشكهم فيه . فالتفتوا إلى أخيهم بنيامين وقالوا: لقد فضحتنا ، فقال: إنى لم أفعل ذلك ، فقالوا: فمن وضع الصواع فى رحلك ؟ قال : هو الذى وضع بضاعتكم فى رحالكم .

هذه الجوانب كلها قد صورتها الأربع والعشرون آية تصويرا رائعا بليغا جليلا . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » .

هذه الآية تتمة إقرار امرأة العزيز على الراجح المختار، وقيل : من قول يوسف ، ويرده عطفه على إقرارها وعطف أمر الملك بالإتيان به من السجن عليه ، وقد جعلت أول الجزء ، لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء والأحزاب مراعى به مقادير الكلم العددى دون المعانى ، وهذا لا يمنع من يجعل ورده من القرآن جزءاً فى كل يوم ليختمه فى كل شهر أن يزيد أو ينقص فى القراءة

آية أو أكثر ليقف عندما يتم به سياق سابق أو معنى فيه ، ثم يبدأ بعده بسياق آخر أو معنى مستقل منه فى ورد اليوم الذى بعده . وقولها : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » يجوز أن يراد به يوسف لأن كلامها فى جواب الملك عما سألها هى وسائر النسوة عن خطبهن فى مراودته . ويجوز أن تعنى به زوجها للعلم به من قرينة الحال وإن لم يذكر ، والأول أظهر . وهذه الآية فى معنى الاستدراك على ذلك النفى ، فهى تقول : « وما أبرىء نفسى » فى دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب من كل سوء وعيب غير هذه الخيانة وما عرف أمره « إن النفس لأمارة بالسوء » أى إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء بداعى الشهوات البدنية والأهواء الغضبية ، ونزغات الوسوسة الشيطانية ، ومنها التحريض على سجن يوسف وسوء النية فيه ، وكانت مما يسوؤه ويسوء الزوج من ناحيتين مختلفتين ، « إلا مارحم ربى » أى إلا نفسا رحمها ربى رحمة خاصة فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف ، هذا هو المعنى : المتبادر من سياق القصة ، ويجوز فى الجملة نفسها أن يجعل الاستثناء منقطعا بمعنى : لكن رحمة ربى هى التى قد تكفها عن الأمر بالسوء أو تحفظها من إجابة دعوته وطاعة أمره أو تحول دونه ، وأن تكون (ما) زمانية ، والمعنى أن من شأن النفس أن تكون أمارة بالسوء فى عامة الأوقات إلا وقت رحمة ربى الذى يوفقها فيه لمراقبته وللأعمال الصالحة التى ترضيه « إن ربى غفور رحيم » تعليل للاستثناء بأن مقتضى مغفرته ورحمته تعالى أن يصرف بعض الأنفس عن الأمر بالسوء أو عن طاعتها فيه أو يصرف السوء نفسه عنها ويحول بينه وبينها ، وأن يغفر لمن يطيع أمرها فيقترف السوء ثم يتوب إليه منه . . . وقد أخذ علماء النفس من آيات القرآن أن أنفس البشر على ثلاث درجات : أدناها : الإمارة بالسوء ، وأعلاها النفس المطمئنة بذكر الله الراضية عنه المرضية عنده ، وهى التى يخاطبها تعالى فى آخر سورة الفجر بقوله : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية » الخ ، وبينهما النفس التى سماها فى أول سورة القيامة بالنفس اللوامة ، وهى التى تلوم صاحبها على كل

ذنب وتقصير فى طاعة الله ومعرفته ، ومن التقصير فى طاعته التقصير فى حقوق عباده الشرعية ، ولا سيما أولى القربى والجيران والمحتاجين إلى البر ، وكذا الحقوق العامة للملة والأمة . وبعضهم يجعل النفس الراضية والنفس المرضية قسمين من أقسام النفس المطمئنة ، ولفقهاء الصوفية تفصيل لهذه الأنفس وتربيتها فيه علم يزيد المطلع عليه بصيرة فى دينه وتربية نفسه ونفس غيره من ولد وتلميذ ومريد وفى معرفة ربه .. ويصح أن تكون جملة « وما أبرىء نفسى » من كلام يوسف ، فقد كان الفصل الأول من قصة يوسف ، فى نشأته وما وقع بينه وبين إخوته وانتهى ببيعه بثمن بخس ، والفصل الثانى فى حياته الأولى فى مصر وهو قسمان : أحدهما فى بيت العزيز ، وثانيهما فى السجن ، وكانت هذه الأطوار كلها أطوار بؤس وشدائد ، رباه الله بها أكمل تربية ، أهلته لتوليه إدارة ملك مصر .

وجاءت جملة « وما أبرىء نفسى » غاية فى شرف التواضع ، على أنها من كلام يوسف عليه السلام ، لأنه لما قال « ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى « فلا تزكوا أنفسكم » فاستدرك ذلك على نفسه بقوله « وما أبرىء نفسى » والمعنى : وما أزكى نفسى إن النفس لأمارة بالسوء مائلة إلى القبائح راغبة فى المعصية . . وإما على أنها من كلام امرأة العزيز ، فإنها لما قالت « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » قالت « وما أبرىء نفسى » من الخيانة مطلقا فإنى قد خنته حين أحلت الذنب عليه فقلت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن ، وأوعدته الحبس . . كأنها أرادت الاعتذار مما كان .

واختلف فى قوله : « وقال الملك » فمنهم من قال : هو العزيز ، ومنهم من قال : هو فرعون الذى هو الملك الأكبر ، قال الرازى هذا هو الأظهر لوجهين :

الأول : أن قول يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض » يدل عليه .

الثانى : قوله « أستخلصه لنفسى » يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا ، وقد كان يوسف عليه السلام من قبل خالصا للعزيز ، فدل هذا على أن الملك هو الملك

الأكبر، وإنما صرح به ولم يستغن بضميره لما تخلل بينه وبين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام، ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج إلى إبرازه «ائتونى به أستخلصه لنفسى» أى أجعله خالصا لى دون شريك، قال ابن عباس : فأتاه الرسول وقال له : الق ثياب السجن وألبسه ثيابا جددا ، ودعا لأهل السجن فقال : اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ، وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وبيوت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء ، ثم أتى الملك فلما رآه غلاما حدثا قال : أيعلم هذا تأويل رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ؟ وقال له : لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثيابا من حرير مزينة كدابة الملك ، وروى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى الحبس وقال : قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا أحتسب فقبل الله تعالى دعاءه « فلما كلمه » أى كلم الملك يوسف وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الرأى والتدبير، ومن خلال السيادة ومخايل العز ـ أقبل عليه وقال: إنى أحب أن أسمع منك تأويل رؤياى شفاها ، فأجابه بذلك الجواب شفاها ، وشهد قلبه بصحته ؛ فعند ذلك « قال » له « إنك اليوم لدينا مكين أمين » أى ذو مكانة وأمانة على أمرنا فما ترى أيها الصديق « قال » أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام ، فإذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلال فيجتمع بهذا مال عظيم، فقال الملك: ومن لى بهذا الشغل ؟ فقال يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض » جمع خزانة. أراد خزانة الطعام والأموال، والأرض أرض مصر أى خزائن أرضك مصر، وقال الربيع بن أنس : أى خراج مصر ودخله : روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية أنه قال : رحم الله أخى يوسف لو لم يقل: اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة، فأقام فى بيته سنة مع الملك ؛ قال الرازى : وهذا من العجائب لأنه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى ذلك على أحسن الوجوه ، ولما سارع فى ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك

المطلوب منه ، وهذا يدل على أن ترك اللهفة وتفويض الأمور إلى الله تعالى أولى « إنى حفيظ عليم » أى ذو حفظ وعلم بأمرها ، وقيل : كاتب وحاسب ، وقد طلب يوسف عليه السلام الإمارة والنبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة ، خاصة وأنه طلب الإمارة من سلطان كافر ولم يصبر مدة ، ولا سيما أنه طلب الخزائن فى أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع تهمة ، ثم مدح نفسه ، وقد قال تعالى : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » وقد أجيب عن ذلك بأن الأصل أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا على يوسف ، فجاز له أن يتوصل إليه بأى طريق كان ، وإنما كان ذلك واجبا عليه لوجوه :

١ — الأول أنه كان رسولا حقاً من الله تعالى إلى الخلق ، والرسول يجب عليه مراعاة الأمة بقدر الإمكان .

٢ — والثانى أنه علم بالوحى أنه يحصل القحط والضيق الشديد ، فلعله تعالى أمره بأن يدبر أمور الناس فى تلك المحنة .

٣ — والثالث أن السعى فى إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول ، فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإنما مدح نفسه ، لأن الملك وإن علم كماله فى علوم الدين ، لكن ما كان عالما بأنه يقوم بالأمر فى شئون السياسة والقيام بها خير قيام ، وأيضا مدح النفس إنما يكون مذموما إذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل ، وأما هذا الوجه فليس بمذموم ، وقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » المراد تزكية حال من لا يعلم كونها تزكية ، والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية : « هو أعلم بمن اتقى » أما إذا كان الإنسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه ، وإنما ترك الاستثناء لأنه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه أنه إنما ذكره لعلمه أنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى ، فلهذا المعنى ترك الاستثناء « وكذلك » أى كإنعامنا عليه بالخلاص من السجن — مكنا ليوسف فى الأرض أى أرض مصر « يتبوأ » أى ينزل « منها حيث يشاء » بعد الضيق والحبس .

قال ابن عباس وغيره : ولما انقضت السنة من يوم سأل الإمارة ودعاه الملك فتوجه وقلده أمور الملك وقلده سيفه ، ودانت له الأمراء ودخل الملك بيته وفوض إليه أمر مصر وسلم سلطانه كله إليه ، وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته ، فأقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء ، وآمن به كثير من الناس ، ودبر أمور مصر تدبيراً حكيما فى سنوات المجاعة . . وروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من الطعام فى تلك الأيام ، فقيل له : تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال : إن شبعت نسيت الجائع «نصيب» أى نخص برحمتنا من نشاء فى الدنيا والآخرة « ولا نضيع أجر المحسنين » بل نؤتيهم أجورهم إن عاجلا أو آجلا ، لأن إضاعة الأجر إما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل ، وهذا ممتنع فى حق الله تعالى ، فالإضاعة ممتنعة « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » الشرك والفواحش وقوله : ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين ، فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين .

ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل بلاد الشام وأرض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان الميرة فكان يوسف عليه السلام لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وإن كان عظيما تقسيطاً بين الناس . وتزاحم الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة ، فبعث بنيه إلى مصر للميرة ، وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه ، فذلك مغزى قوله تعالى « وجاء إخوة يوسف » وكانوا عشرة وكان منزلهم فى أرض فلسطين ، وكانوا أهل إبل وشياه فدعاهم أبوهم يعقوب عليه السلام وقال : بلغنى أن بمصر ملكا صالحاً يبيع الطعام ، فتجهزوا إليه واقصدوه لتشتروا منه مانحتاج إليه من الطعام ، ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر « فدخلوا عليه فعرفهم » قال ابن عباس : بأول نظرة إليهم عرفهم ، وقال الحسن : لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه « وهم له منكرون » أى لم يعرفوه ، وذلك لوجوه :

الأول أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقعوهم بعيدا ، وما كان يتكلم معهم إلا بواسطة .

الثانى أنه حين ألقوه فى الجب كان صغيرا ، ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجسم ، قال ابن عباس : كان بين أن قذفوه فى البئر وبين أن دخلوا عليه أربعين سنة ، فلذلك أنكروه ، وأمر يوسف عليه السلام بإنزالهم وإكرامهم ، وكانت عادته أن لا يزيد أحدا على حمل بعير وكانوا عشرة ، فأعطاهم عشرة أحمال ، كما قال تعالى « ولما جهزهم بجهازهم » أى وفاهم كيلهم ، والجهاز ما يحمله الرجل معه من بلدة إلى أخرى ، وما تزف به المرأة إلى زوجها ، فقالوا : إن لنا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما أيضا من حملين آخرين من الطعام ، فلما ذكروا ذلك قال يوسف : فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شيء عجيب ، لأنكم أنتم مع عقلكم وجمالكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل ذلك على أنه أعجوبة فى العقل والأدب ، فجيئوا به حتى أراه « قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم » أى الذى خلفتموه عنده ، وقيل : إنه لما نظر إليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : أخبرونى من أنتم وما أمركم؟ فإنى أنكرت شأنكم قالوا : قوم من أرض الشام أصابنا ما أصاب الناس فجئنا نمتار ، فقال : لعلكم جئتم لتكونوا عيونا علينا ، قالوا : لا والله لسنا بجواسيس ، إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى ، قال : وكم كنتم ؟ قالوا : كنا اثنى عشر ، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها ، وكان أحبنا إلى أبينا ، قال : فكم كنتم هاهنا؟ قالوا : عشرة ، قال : وأين الآخر؟ قالوا : عند أبينا لأنه أخو الذى هلك وأبوه مبتلى به ، قال : فمن يعلم أن الذى تقولون حق ؟ قالوا : أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد ، فقال يوسف : فائتونى بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين ، فأنا أرضى بذلك ، فقالوا : إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه ، قال : فدعوا بعضكم رهينة عندى حتى تأتونى بأخيكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت

القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأيا فى يوسف تخلفوه عنده ، ثم إنه قال لهم «ألا ترون أنى أوفى الكيل» أى أتمه ولا أبخس منه شيئاً ، وأنا خير المنزلين ، أى المضيفين ، كأنه قد كان أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده ، قال الرازى : وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين : إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم عيون وجواسيس ، ولو شافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم : ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، وأيضا يبعد من يوسف مع كونه صديقا أن يقول لهم : أنتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة . لأن البهتان لا يليق بالصديق «فإن لم تأتونى به» أى بأخيكم «فلا كيل» أى فلا ميرة «لكم عندى» ولم يمنعهم من غيره «ولا تقربون» نهى أو عطف على محل «فلا كيل» أى تحرموا منى ولا تدخلوا ديارى ، فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب ، فالترغيب فى قوله الأول والترهيب فى قوله الثانى ، لأنهم كانوا فى نهاية الحاجة إلى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف «قالوا سنراود» أى بوعد لا خلف فيه حين نصل إليه «عنه أباه» أى سنكلمه فيه وننازعه فى الكلام ونحتال فيه ونتلطف فى ذلك ولا ندع جهدا «وإنا لفاعلون» أى ما أمرتنا به «و» لما أرغبهم وأرهبهم فى شأن أخيه «قال لفتيانه» أى غلمانه الكيالين جمع فتى : «اجعلوا بضاعتهم» أى التى أتوا بها ثمن الميرة ، وكانت دراهم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إنها كانت من النعال والأدم «فى رحالهم» جمع رحل وهو أوعيتهم التى يحملون فيها الطعام «لعلهم يعرفونها» أى بضاعتهم «إذا انقلبوا» أى رجعوا «إلى أهلهم» وفتحوا أوعيتهم «لعلهم يرجعون» إلينا ، واختلف فى السبب الذى من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم فى رحالهم على أوجه :

الأول : أنه أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطاع الطريق ، فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى بيوتهم ..

الثانى: أن يعرف أباه أنه أكرمهم وطلبهم لمزيد الإكرام ، فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه .

الثالث: مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا يطلب زيادة الثمن .

الرابع : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة .

الخامس ـ كما قال الفراء ـ أنهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو ، وهم أنبياء وأولاد أنبياء ، فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا الملك إلى مالكه .

السادس : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط .

السابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن إخوته على شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم .

الثامن : خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرة أخرى ..

التاسع : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أن ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك إلى العود إليه والحرص على معاملته « فلما رجعوا » أى إخوة يوسف عليه السلام « إلى أبيهم قالوا يا أبانا » إنا قدمنا على وزير عظيم لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا إكرامه ، فقال يعقوب عليه السلام : إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرأوه منى السلام وقولوا له : إن أبانا يدعو لك بما أوليتنا ، قولهم : منع منا الكيل . فيه قولان :

أحدهما : أنهم لما طلبوا الطعام لأخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه .

والثانى : أنهم منعوا الكيل فى المستقبل ، وهو قول يوسف عليه السلام : فلا كيل لكم عندى ولا تقربون « فأرسل معنا أخانا » بنيامين « نكتل » أى نكتل نحن وإياه، وهذا يدل على القول الثانى ، وقرىء «يكتل» ، وهذا يدل على القول الأول «وإنا له لحافظون» عن أن يناله مكروه حتى نرده إليك ، فلما قالوا ليعقوب

عليه السلام هذه المقالة «قال» لهم «هل آمنكم» أى أقبل منكم الآن وفى مستقبل الزمان أمانا منكم لى فيه «عليه» أى بنيامين «إلا كما أمنتكم» أى فى الماضى «على أخيه» يوسف عليه السلام «من قبل» فإنكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه ولم تردوه إلى، والأمن: اطمئنان القلب إلى سلامة النفس فأنا فى هذا لا آمن عليه إلا الله تعالى «فالله» أى المحيط علما وقدرة «خير حافظا» منكم ومن كل أحد «وهو أرحم الراحمين» أى أرحم بى من أن يفجعنى به بعد مصيبتى بأخيه فلا تجتمع على مصيبتين «ولما» أرادوا تفريغ ماقدموا به من الميرة «فتحوا متاعهم» أى أوعيتهم التى حملوها من مصر «وجدوا بضاعتهم» أى ما كان معهم من كنعان لشراء القوت «ردت إليهم» والوجدان ظهور الشىء للنفس بحاسة أو مايغنى عنها؛ فكأنه قيل: ماقالوا؟ فقيل «قالوا» أى لأبيهم عليه السلام «ياأبانا ما» استفهامية أى أى شىء «نبغى» أى نريد، فكأنه قال لهم: ما الخبر؟ فقالوا بيانا لذلك وتأكيدا للسؤال فى استصحاب أخيهم «هذه بضاعتنا ردت إلينا» هل من مزيد على ذلك: أكرمنا وأحسن مثوانا وباع مناورد علينا متاعنا، ولما كان التقدير ونرجع بها إليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا، قال تعالى: «ونمير أهلنا» أى نجلب إليهم الميرة، والميرة: الأطعمة التى تحمل من بلد إلى بلد «ونحفظ أخانا» فلا يصيبه شىء مما نخشى عليه تأكيدا للوعد بحفظه ونزداد كيل بعير لأخينا «ذلك كيل يسير» أى سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل، وقيل: قصير المدة، وقيل: قليل، فابعث أخانا معنا نبدل تلك القلة بالكثرة؛ فكأنه قيل: ماقال لهم؟ فقيل: «قال» يعقوب عليه السلام «لن أرسله» أى بنيامين «معكم» أى فى وقت من الأوقات «حتى تؤتونى موثقا» أى عهدا مؤكدا «من الله لتأتننى» أى كلكم «به»، والمعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به «إلا» فى حال «أن يحاط» أى تحصل الإحاطة بمصيبة من المصائب ولاطاقة لكم بها «بكم» فتهلكوا عن آخركم، كل ذلك زيادة فى التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام، وإن كان الاعتماد فى حفظه إنما هو على الله تعالى، فأجابوه إلى ذلك كما قال تعالى «فلما أتوه موثقهم» بذلك «قال الله

على ما نقول، نحن وأنتم «وكيل» أى شهيد، وأرسله معهم بعد ذلك، وذلك لوجوه:
أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح .
الثانى : أنه كان قد شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام .
الثالث : لعل الله أوحى إليه بأنه ضمن حفظه وإيصاله إليه .

ولما عزموا على الخروج إلى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال «قال» لهم «يابنى لا تدخلوا» إذا قدمتم إلى مصر «من باب واحد» من أبوابها «وادخلوا من أبواب متفرقة» أى تفرقا كثيرا، وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهى من قدر الله تعالى، ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: العين حق، وفى رواية عن أحمد: يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم؛ وفى رواية لمسلم: العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين، وفى رواية لمسلم عن جابر: إن العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر؛ وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة، ويقول: هكذا كان يعوذ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين. وعن عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى، فقال: إن جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال: بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من كل عين وحاسد، الله يشفيك؛ قال: فأفقت؛ وفى رواية أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يارسول الله: إن العين لهم سريعة فأسترق لهم من العين؟ فقال لها نعم، وفى رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يارسول الله: أصابته العين، فقال: أما تسترقون له من العين.

ولما خاف يعقوب عليه السلام أن يسبق من أمره هذا إلى بعض الأوهام

أن الحذر يغنى عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام « وما أغنى » أى أدفع عنكم بقولى ذلك « من الله من شىء » قدره عليكم وإنما ذلك شفقة . ومن مزيدة للتأكيد ، واعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم بأن يجزم بأنه لا يحصل إلا ما قدره الله تعالى ، وأن الحذر لا يدفع القدر ، فالإنسان مأمور بأن يحذر الأشياء المهلكة ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان، ومع ذلك يكون جازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى ولا يحصل فى الوجود إلا ما أراد الله تعالى فقوله عليه السلام « لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ، وقوله « وما أغنى عنكم من الله من شىء » إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب بل التوحيد المحض والبراءة عن كل شىء سوى الله تعالى، ولما قصر الأمر كله إليه تعالى وجب رد كل أمر إليه وقصر النظر عنه فقال منبها على ذلك « إن الحكم إلا لله عليه » أى على الله وحده «توكلت» أى جعلته وكيلى فرضيت بكل ما يفعل « وعليه » وحده « فليتوكل المتوكلون » أى الثابتون فى باب التوكل فإن ذلك من أعظم الواجبات ؛ وقد ثبت بالبرهان أن لا حكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى ، وذلك يوجب أن لا نوكل إلا على الله ، فهذا مقام عظيم .

ولما قال يعقوب : « وما أغنى عنكم من الله من شىء » صدقه الله تعالى فى ذلك فقال : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم » أى متفرقين « ما كان » ذلك التفريق « يغنى عنهم من الله » أى من قضائه « من شىء » أى مما قضاه عليهم « إلا حاجة » استثناء منقطع أى لكن حاجة « فى نفس يعقوب » وهى الوصول إلى ما أمر به شفقة عليهم « قضاها » يعقوب عليه السلام وأبرزها من نفسه إلى أولاده ، فعملوا فيها بمراده ، فأغنى عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط « وإنه » أى يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك « لذو علم » أى معرفة « لما علمناه » بالوحى « ولكن أكثر الناس » أى لأجل ما نالهم من الاضطراب « لا يعلمون » أى ليسوا بذوى علم لما علمناه لإعراضهم عنه

واستفراغ قوام فى الاهتمام بما وقع التكليف لهم به من أحوال الدنيا .

ولما أخبر تعالى عن دخولهم إلى البلد أخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه السلام فقال « ولما دخلوا » أى إخوة يوسف عليه السلام « على يوسف » فى القدمة الثانية بأخيهم بنيامين قالوا : هذا أخونا ، فقال : احسنتم وأصبتم وستجدون خيراً عندى إن شاء الله ، ثم أنزلهم وأكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى ، وقال : لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، فقال يوسف : لقد صار أخوكم هذا وحيدا فأجلسه معه على مائدته وصار يؤاكله ، فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده ، فقال يوسف : هذا ينام معى على فراشى ، كما قال الله تعالى « آوى » أى ضم « إليه أخاه » فبات معه فقال له : ما اسمك ؟ قال: بنيامين، قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوى ، قال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين قال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك؟ فقال: ومن يجد أخامثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و «قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس » أى لا تحزن « بما كانوا يعملون » أى بشىء فعلوه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا فلا تلتفت إلى أعمالهم المنكرة التى قد أقدموا عليها ، وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشىء من ذلك ، ثم إنه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا ، وكان فى المرة الأولى أبطأ فى تجهيزهم ليتعرف أخبارهم فى طول المدة من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء ، وأسرع فى تجهيزهم فى هذه المرة قصدا إلى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التى دبرها ، فلذلك أتت الفاء فى قوله « فلما جهزهم » أى أعجل جهازهم وأحسنه « بجهازهم جعل » بنفسه أو بمن أمره « السقاية » وعاء صغير كان يشرب به « فى رحل أخيه » أى فى وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم فى المرة الأولى ، قال ابن إسحاق : كانت من فضة ، وقيل: من ذهب ، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر ، وجعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها ، وكان يشرب فيها ، قال الرازى : هذا بعيد لأن الإناء الذى يشرب فيه الملك لا يصلح أن يجعل صاعا ، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ، قال :

وهذا أيضاً بعيد لأن الآنية التى تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك ، قال :
والأصوب أن يقال: كان ذلك الإناء شيئاً له قيمة ، والسقاية والصواع واحد ،
ثم ارتحلوا ، وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلا ، وقيل:
حتى خرجوا من العمران ، ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم « ثم أذن »
أى أعلن بالنداء « مؤذن أيتها العير » أى القافلة ، وكل ما سير عليه من الإبل
والحمير والبغال فهو عير ، وقول من قال : العير الإبل خاصة باطل فقوله : أيتها
العير أى أصحاب العير ، كقوله : ياخيل الله اركبى ، قال الفراء : كانوا أصحاب
إبل ، وقال مجاهد : كانت العير حميراً « إنكم لسارقون » فقفوا حتى ننظر
الذى فقد منا ، والسرقة أخذ ماليس له أخذه فى خفاء من حرز مثله ؛ وكان
هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام ، مع علو منصبه أن يبهت أقواماً وينسبهم
إلى السرقة كذبا وبهتانا ، وإن كان بغير أمره فهلا ظهر براءتهم من تلك التهمة ،
وقد يرد على ذلك بما يلى :

الأول : أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال : لست
أفارقك، قال: لاسبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى مالا يليق بك ،
قال : رضيت بذلك ، وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام لأنه قد رضى به
فلا يكون ذلك ذنبا .

الثانى: إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام
فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة من الكذب .

الثالث : أن المنادى إنما ذكر النداء على سبيل الاستفهام ، وعلى هذا يخرج
أن يكون كذباً .

والرابع: ليس فى القرآن مايدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام .

قال الرازى : والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم ،
لأنهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم
الذين أخذوها ، ولما وصل إليهم الرسول قال لهم : ألم نحسن ضيافتكم ونكرم

حشوا كم،وفعلنا بكم مالم نفعل بغيركم ؟ قالوا: بلى وما ذاك ؟قالوا: سقاية فقدناها ولا نتهم بها غيركم ،فذلك قوله تعالى « قالوا و » الحال أنهم قد « أقبلوا عليهم » أى على جماعة الملك المنادى وغيرهم « ماذا » أى ما الذى «تفقدون» مما لا يمكننا أخذه والفقدان ضد الوجدان « قالوا نفقد » صواع الملك » والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة ، سموه تارة صواعا وتارة سقاية ، وإنما اتخذوا هذا الإناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت « ولمن جاء به حمل بعير » أى من الطعام ، والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضاً ، « وأنا به زعيم » أى كفيل .. وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم ، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : الزعيم غارم ، وما ورد من شرعنا ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا ؟ فى ذلك خلاف ، والراجح أنه ليس بشرع لنا « قالوا » أى إخوة يوسف عليه السلام « تالله » التاء حرف قسم وهى عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء «لقد علمتم ماجئنا لنفسد » أى نوقع الفساد «فى الأرض» أى أرض مصر « و » لقد علمتم « ما كنا » أى بوجه من الوجوه « سارقين » أى موصوفين بهذا الوصف « قالوا » أى أصحاب يوسف عليه السلام : المنادى ومن معه « فما جزاؤه » أى السارق، وقيل: الصواع : « إن كنتم كاذبين » فى قولكم « ماكنا سارقين » ووجد فيكم ، والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من شر أو خير « قالوا » وثوقاً منهم بالبراءة وإخبارا بالحكم عندهم « جزاؤه من وجد فى رحله » ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة، ثم أكدوا ذلك بقولهم : « فهو جزاؤه » قال ابن عباس : كانت شريعة ذلك الزمان : كل سارق بسرقته ؛ فلذلك قالوا ذلك ، أى فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته إلى المسروق منه فيسترق سنة ؛ وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق ، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق ، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم « كذلك » أى الجزاء « نجزى الظالمين » بالسرقة ،

قال أصحاب يوسف : فلا بد من تفتيش رحالكم فردوهم إلى يوسف عليه السلام فأمر بتفتيشها بين يديه « فبدأ بأوعيتهم » ففتشها « قبل وعاء أخيه » لئلا يتهم فلم يجد فيها شيئاً « ثم » أى بعد تفتيش أوعيتهم « استخرجها » أى السقاية أو الصاع لأنه يذكر ويؤنث « من وعاء أخيه » ؛ فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له : ما الذى صنعت ؟ فضحتنا وسودت وجوهنا ، يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع : فقال بنيامين : بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه فى البرية ، إن الذى وضع هذا الصاع فى رحلى هو الذى وضع البضاعة فى رحالكم ، فأخذ بنيامين رقيقاً ، وقيل : المنادى وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فأخذوه برقبته وردوه إلى يوسف عليه السلام «كذلك» أى مثل ذلك الكيد «كدنا ليوسف» خاصة بأن علمناه إياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه السلام فى الابتداء ، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام : فيكيدوا لك كيداً ، والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق ، فالمراد من هذا الكيد هو أن الله تعالى ألقى فى قلب إخوته بأن حكموا أن جزاء السارق هو أن يسترق ، لا جرم لما ظهر الصاع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سبباً لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عنده ، وقيل : المراد بالكيد ههنا أن إخوة يوسف سعوا فى إبطال أمره والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره « ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » أى حكمه بيان للكيد ؛ لأن جزاءه عنده الضرب وتغريم مثلى ما أخذ لا أن يستعبد ، « إلا إن يشاء الله » فيه وجهان :

أحدهما : أنه استثناء تقديره : ولكن بمشيئة الله أخذه فى دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام أن الاسترقاق جزاء السارق .

والثانى : أنه مفرغ من الأحوال العامة، والتقدير: ما كان ليأخذه فى كل حال إلا فى حال التباسه بمشيئة الله أى إذنه فى ذلك ؛ ولما كان يوسف عليه السلام

إنما يتمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورفعته بعد ما كان فيه عندهم من الصغار، كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا إلى مقام التكلم : « نرفع درجات من نشاء » أى بالعلم كما رفعنا درجته ، وفى هذه الآية دليل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات « وفوق كل ذى علم عليم » قال ابن عباس : فوق كل عالم ، لأنه هو الغنى بعلمه عن التعلم . وفى الآية دليل على أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم .

وبهذا ينتهى الربع الرابع من سورة يوسف عليه السلام ؛ وقد تضمن ما تضمن من طلب يوسف عليه السلام الإمارة من فرعون مصر ، وتأمير فرعون له ، وتدبيره لأمور الملك فى سنوات المجاعة ، وقدوم إخوته عليه لشراء الحبوب والميرة ، ومعرفته منهم الكثير عن وطنه وأبيه ، وطلبه أن يأتوا له بأخيه بنيامين ، وقدوم بنيامين عليه ، وتدبير يوسف الحيل ليحجز أخاه عنده ، ووضع سقاية يوسف فى رحل أخيه بنيامين ، وتفتيش رحله وأخذه رقيقاً له .

الربع الخامس من سورة يوسف

٧٧ — قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ .

٧٨ — قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

٧٩ — قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ .

٨٠ — فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ .

٨١ — ٱرْجِعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ .

٨٢ — وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ .

٨٣ — قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

٨٤ — وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ .

٨٥ — قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ .

٨٦ — قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٨٧ — يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا مِن

رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ .

٨٨ — فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ .

٨٩ — قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ .

٩٠ — قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ

٩١ — قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ .

٩٢ — قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّـٰحِمِينَ .

٩٣ — ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

٩٤ — وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ .

٩٥ — قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ .

٩٦ — فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ

أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ .

٩٧ — قَالُوا يَـٰأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِئِينَ .

٩٨ — قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

٩٩ - فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ .

١٠٠ — وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

فى هذه الآيات الأربع والعشرين يذكر الله عز وجل استعطاف إخوة يوسف له ليطلق سراح أخيهم بنيامين ، ثم يأسهم من إجابته لطلبهم ، ثم مداولاتهم بعضهم مع بعض ، وتصميم كبيرهم على أن لا يبرح أرض مصر ، حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له ؛ وشدة وقع الأمر على يعقوب ، وكثرة بكائه ، وطلبه من أبنائه أن يبحثوا عن يوسف وأخيه ، ثم دخولهم على يوسف ، وشكواهم إليه ، وتعريف يوسف لهم بنفسه ، واعتذارهم له ، وصفحه عنهم الصفح الجميل ، وعودتهم بالبشرى لأبيهم يعقوب ، وتنبؤ يعقوب بالأمر ، وعودة بصره إليه لما جاءته البشرى ، وطلب أبنائه منه المغفرة ، وعفوه عنهم ، وذهابهم جميعاً إلى مصر ، ودخولهم على يوسف ، وإكرامه لأبويه ، وسجودهم له ، وتذكر يوسف حينئذ قصته ، وشرحه لها فى إيجاز أمام أبويه من بدئها لختامها .. وهى قصة رائعة جليلة فيها عبرة وعظة ، وفيها كثير من المواقف الخالدة ، وفيها تأديب

إلهى للمقربين ، وفيها طاعة مثلى من المصطفين الأخيار المطهرين . . . يقول الله تعالى فى هذه الآيات الأربع والعشرين : « قالوا » تسلية لأنفسهم ، ودفعا للعار عن خاصتهم «إن يسرق » ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بأمانته وظنهم أن الصواع دس فى رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم فى رحالهم . وكان قد قال لهم ذلك « فقد سرق أخ له من قبل » يعنون به يوسف وكان غرضهم من ذلك أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته . وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى ؛ واختلفوا فى التى نسبوها إلى يوسف عليه السلام على أقوال : فقال سفيان بن عيينة : أخذ دجاجة من الطير كانت فى بيت يعقوب فأعطاه سائلا ، وقال مجاهد : جاءه سائل فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل ، وقال وهب : كان يخبىء الطعام من مائدة يعقوب للفقراء ، وقال سعيد بن جبير : كان جده أبو أمه كافرا يعبد الوثن وأمرته أمه أن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة ، وقال محمد بن إسحاق : إن يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة إسحاق وكانت تحبه حبا شديداً ، فأرادت أن تمسكه عند نفسها وكان لديها منطقة لأبيها إسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها : فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ، ثم قالت : إنه سرقها وكان علمهم أن من سرق يسترق ، فقال يعقوب عليه السلام : إن كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها ، قال ابن الأنبارى : وليس فى هذه الأفعال كلها سرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب ، وقيل : إنهم قد كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدة الطويلة « فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها » أى يظهرها «لهم» والضمير للكلمة التى هى قوله : « قال » أى فى نفسه « أنتم شر مكانا » أى من يوسف وأخيه لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له ، وقيل : الضمير يرجع إلى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » ، وعلى هذا يكون

المعنى : فأسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه ، والله أعلم ، منكم ، بما تصفون ، أى تقولون وأنه ليس كما قلتم ، وكان يوسف لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وأدناه إلى أذنه ثم قال : إن صاعى هذا يخبرنى أنكم اثنا عشر رجلا لأب واحد وأنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه ، فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا ، و، قالوا يا أيها العزيز ، فخاطبوه بما يليق بالعظماء ليرق لهم ، إن له ، أى هذا الذى وجد الصاع فى رحله « أبا شيخا كبيرا ، أى فى سنه وقدره ، وهو مغرم به لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه ، فخذ أحدنا مكانه ، وأحسن إلى أبيه بإرساله إليه ، إنا نراك ، أى نعلمك علما هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه ، من المحسنين ، فاجر فى أمرنا على عادة إحسانك فكأنه قيل: فبماذا أجابهم ؟ قيل : ، قال معاذ الله ، أى نعوذ بالذى لا مثل له ، معاذا عظيما من ، أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، ولم يقل «سرق متاعنا» لأنه لم يفعل فى الصاع فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يصح إطلاق الوصف عليه ، ثم علله بقوله : ، إنا إذا ، أى إذا أخذنا أحداً مكانه ، لظالمون ، أى كما هو وفق دينكم ، فلا تطلبون ما هو ظلم عندكم ، فلما ، دل بالفاء على قرب زمن تلك المداولات ، استيأسوا ، أى أيسوا ، منه ، لما رأوا من إحسانه ولطفه ورحمته ، يأسا شديداً بما رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله ، خلصوا ، أى انفردوا عن غيرهم حال كونهم ، نجيا ، وهو مصدر يصلح للواحد وغيره أى ذوى نجوى يناجى بعضهم بعضا ، فكأنه قيل : فما قالوا ؟ قيل : ، قال كبيرهم ، فى السن وهو روبيل وقيل : فى الفضل والعلم وهو يهوذا ، وقيل : شمعون وكان له الرياسة على أخوته ، ألم تعلموا ، يقررهم بما يعرفونه ليتوجهوا إلى بذل الجهد فى الخلاص من غضب أبيهم ، أن أباكم ، أى الشيخ الكبير الذى فجعتموه فى أحب ولده إليه ، قد أخذ عليكم ، أى قبل أن يعطيكم هذا الولد الآخر ، موثقا ، أى عهدا وثيقا ، من الله ، فى أخيكم ، وإنما جعل حلفهم بالله موثقا منه لأنه بإذن منه وتأكيد من جهته ، ومن قبل ما فرطتم ، والتقدير:

ومن قبل هذا فرطتم أى قصرتم فى حق يوسف وشأنه ، فما زائدة وزيادة (ما) كثيرة وبه بدأ الزمخشرى وغيره ، وقيل : إنها مصدرية فى محل رفع بالابتداء والخبر هو قوله : « فى يوسف » أى وتفريطكم كائن أو مستقر فى يوسف ، وإلى هذا ذهب الفارسى « فلن أبرح » أى أفارق « الأرض » أى أرض مصر « حتى يأذن لى أبى » بالعودة إليه « أو يحكم الله لى » بخلاص أخى « وهو خير الحاكمين » أى أعدلهم . . ولكن كيف يجوز ليوسف عليه السلام أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبسه أخاه عنده مع علمه بشدة وجدان أبيه عليه وشدة غمه ، وفيه ما فيه من العقوق وإيذاء الناس من غير ذنب ، لا سيما وهو يعلم أنه إذا حبس أخاه عنده مع علمه بهذه التهمة فإنه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه . فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة فى التزوير إلى هذا الحد ، أجيب عن ذلك بأجوبة كثيرة ، أحسنها كما قال المفسرون : أنه إنما فعل ذلك بأمر الله تعالى له ، وإنما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ، ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه وهو المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب فى هذه المدة مع قرب المسافة ، لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده .. ولكن يصح أن نقول : إنه إنما فعل ذلك لينقذ أخاه بنيامين من جورهم وظلمهم ، ثم قال كبيرهم : « ارجعوا إلى أبيكم » أى دونى « فقولوا » له متلطفين فى خطابكم « يا أبانا إن ابنك سرق » أى كما شاهدنا ذلك بأعيننا ، دون مبالغة . لأنهم لما شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم أنه سرق ، فلذلك نسبوه إلى السرقة فى ظاهر الأمر لا فى حقيقة الحال ، ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم « وما شهدنا » عليه « إلا بما علمنا » ظاهر من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه « وما كنا للغيب » أى ما غاب عنا حين أعطينا الموثق « حافظين » أى ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا ، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا ، وإنما قلنا : ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه سبيل ، أو حقيقة الحال غير معلومة لنا ، فإن الغيب

لا يعلمه إلا الله تعالى ، فلعل الصاع دس فى رحله ، ونحن لا نعلم ذلك «واسأل القرية ، أى أهلها على حذف المضاف وهو مجاز مشهور ، وقيل: إنه مجاز مرسل «التى كنا فيها ، وهى مصر عما أخبرناك يخبروك بصدقنا فإن الأمر قد اشتهر عندهم ، وقيل : هى قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر «و» اسأل «العير ، أى القافلة وهم قوم من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام «التى أقبلنا فيها » والسؤال طلب الإخبار بأداته من الهمزة وهل وغيرهما ؛ والقرية : الأرض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته ، والعير : قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار ، وهذا هو الأصل ثم كثر حتى استعمل فى غير الحمير ، «وإنا ، أى والله «لصادقون ، فى قولنا ، ولما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم فكأنه قيل : فما قال لهم ؟ فقيل «قال » لهم «بل سولت ، أى زينت تزيينا فيه غى «لكم أنفسكم أمراً ، أى حدثتكم بأمر ففعلتموه وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته «فصبر جميل ، أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل صبرى او أجمل .. وقد قال يعقوب ذلك فى واقعة يوسف أيضا إلا أنه قال فيها «والله المستعان على ما تصفون » وقال هنا «عسى الله أن يأتينى بهم ، أى بيوسف وشقيقه بنيامين والأخ الثالث الذى أقام بمصر «جميعا» أى فلا يتخلف منهم أحد ، وإنما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى ، وتفرس أن هذه الأفعال نشأت عن يوسف عليه السلام وأن الأمر يرجع إلى سلامة واجتماع ، ثم علل ذلك بقوله «إنه هو العليم ، أى البليغ العلم بما خفى عنا من ذلك فيعلم أسبابه الموصلة إلى المقاصد «الحكيم » أى البليغ فيما يريده ويقضيه «و» لما ضاق قلب يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين «تولى عنهم ، أى انصرف بوجهه عنهم لما توالى عنده من الحزن «وقال يا أسفا ، أى يا أسفى «على يوسف ، أى يقال : هذا أوانك والأسف : أشد الحزن والحسرة ، والألف بدل من ياء المتكلم وإنما

تأسف على يوسف دون أخويه لأن مصيبته كانت أشد المصائب ، والحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول ، ولأنه كان واثقا بحياتهما دون حياته ، وفى حديث رواه الطبرانى : لم تعط أمة من الأمم « إنا لله وإنا إليه راجعون » عند المصيبة إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا « وابيضت عيناه » أى ذهب سوادهما وبدل بياضا « من الحزن » أى من كثرة البكاء عليه ، وقيل : عند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء ، وقيل : ضعف بصره حتى صار يدرك إدراكا لطيفا ، وقيل : عمى ، قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام ، قيل : إن جبريل دخل على يوسف فى السجن فقال : إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك ، فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمى لم تلدنى « وهو كظيم » أى مغموم مكروب لا يظهر كربه ، ويدل على هذا قوله : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ـ على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر ولم يظهر الشكاية ، فلا جرم استوجب بذلك المدح العظيم الجزيل ، روى أن يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام : هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم ، قال : فكيف حزنه ؟ قال : حزن شديد ، قال : فهل له أجر ؟ قال : نعم أجر مائة شهيد ، ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف وأنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ، وأيضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم ، وقال : القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون « قالوا » له حنقا من ذلك « تالله تفتؤ » أى لا تفتؤ أى لا تزال « تذكر يوسف » تفجعا «حتى» أى إلى أن «تكون حرضا» أى مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوى فيه الواحد وغيره « أو تكون من الهالكين » وقد بنوا الأمر على الظاهر ، قال أكثر المفسرين : قائل هذا الكلام هم إخوة يوسف ، وقال بعضهم : ليس الإخوة بل الجماعة الذين كانوا فى الدار من أولاده

وخدمه ، ولما قالوا ذلك فكأن قائلا يقول : فما قال لهم ؟ فقيل ، قال ، لهم « إنما أشكو بثى ، والبث : أشد الحزن ـ سمى بذلك لأنه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر ، وحزنى ، مطلقا وإن كان سببه خفيفا يقدر الخلق على إزالته « إلى الله ، المحيط بكل شيء علما وقدرة لا إلى غيره فهو الذى تنفع الشكوى إليه ، وأعلم من الله ، أى الملك الأعلى من اللطف بنا أهل البيت ، ما لا تعلمون ، فيأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب ، وفى ذلك إشارة إلى أنه كان يعلم بحياة يوسف ويتوقع رجوعه إليه ، يا بنى اذهبوا فتحسسوا ، والتحسس : طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم ، وقيل : التحسس بالحاء يكون فى الخير وبالجيم يكون فى الشر ، ومنه الجاسوس الذى يطلب الكشف عن عورة الناس ، والمعنى : تحسسوا خبرا ، من » أخبار ، يوسف وأخيه » أى اطلبوا خبرهما ، ولعل يعقوب علم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة ، لأن أمارات الرسالة كانت جد" ظاهرة فى حق يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لا تخطىء ـ وأن الله تعالى أوحى إليه أنه سيجتمع به ، ولكنه تعالى ما عين الوقت فلماذا بقى فى القلق ، قال السدى : لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله وأقواله وافعاله طمع فى أن يكون هو يوسف ، وقال : بعيد أن يظهر فى الكفار مثله ، ثم تلطف ببنيه وقال لهم « ولا تيأسوا » أى تقنطوا « من روح الله » قال ابن عباس : من رحمة الله ، وقال قتادة : من فضل الله ، وقال ابن زيد : من فرج الله « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » أى المعنون فى الكفر ، قال ابن عباس : إن المؤمن من الله على خير يرجوه فى البلاء ويحمده على الرخاء ، والكافر على الضد من ذلك فإن اليأس من رحمة الله لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن العالم غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أوليس بكريم بل هو بخيل ؛ وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، وإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً ، ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه

الوصية وعادوا إلى مصر « فلما دخلوا عليه » أى على يوسف عليه السلام « قالوا يا أيها العزيز » وكان العزيز لقبا لوزير مصر يومئذ « مسنا وأهلنا » أى من خلفنا ووراءنا « الضر » أى لابسنا ملابسة نحسها « وجئنا ببضاعة مزجاة » إما لنقصها أو لرداءتها أو لهما جميعا ؛ وقال الحسن : البضاعة المزجاة القليلة ، واختلفوا فى تلك الرداءة فقال ابن عباس : كانت دراهم رديئة لا تقبل فى ثمن الطعام ، وقيل : كانت من متاع الأعراب من الصوف والسمن ، وقيل : من النعال والأدم ، وقيل : إن دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام والدراهم التى جاءوا بها ما كان فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس « فأوف لنا الكيل » أى شفقة علينا بسبب ضعفنا « وتصدق » أى تفضل « علينا » زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه ، ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله عللوا ذلك بقولهم « إن الله » أى الذى له الكمال كله « يجزى المتصدقين » أى وإن كانت على غنى قوى فكيف إذا كانت على أهل الحاجة والضعف . وكانت الصدقة حلالا لهم ولأبيهم ـ وروى أن الحسن سمع رجلا يقول : اللهم تصدق على ، قال : إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق من يبغى الثواب ، قل : اللهم اعطنى وتفضل على . وصف إخوة يوسف أنفسهم بالعجز ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة ، وذلك مما يرقق القلب فقالوا : نجربه فى هذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا فقدموا هذه المقدمة ، ولما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على إخوته فارفض دمعه فباح بالذى كان يكتم ، فلذا « قال » لهم « هل علمتم ما فعلتم » أى صنعتم « بيوسف » أى أخيكم الذى حلتم بينه وبين أبيه « وأخيه » فى جعلكم إياه فريدا ذليلا بينكم ، ثم فى قولكم له لما وجد الصاع فى رحله : لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يابنى راحيل ، إنما قال لهم ذلك حثاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا ، وقيل : أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام فى تخليص بنيامين وذكروا ماهو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك « إذ أنتم جاهلون » أى

فاعلون فعلهم أو لأنهم كانوا حينئذ صبيانا ، قال يوسف لإخوته « هل علمتم » تمهيداً لتعريفهم بنفسه إذ آن أن يصارحهم به ، وقد بلغت الأقدار من تربيتها له ولهم غايتها ، ولم يبق بعد هذا التمهيد إلا التصريح ، وتأويل رؤياه التي كانت السبب الأول لكل هاتيك الأفاعيل ، وقد كان هذا التمهيد عجبا في بلاغته ، وما يدل عليه شعور يوسف الصديق النبي وخلقه ودينه وأدبه ، إذ فصل بهذا السؤال الوجيز الساذج في قضية يحار في الفصل فيها أوسع القضاة عدلا ورحمة ، ويعيا بالتعبير المرضى عنها أبلغ الأدباء علما وحكمة ، وهي مقابلة طرفين تعمد أحدهما اقتراف جناية على الآخر طال عليها الأمد عشرات السنين ، وكانت غايتها أن يقف الجاني بين يدي المجني عليه وهو يجهله موقف البائس الفقير ، المستجدي الحقير ، على ما نشأ عليه من عزة النفس ، وشرف الحسب والنسب ، واقتضت الحال أن يتعارفا وهما أخوان . . إذ المقام مقام خجل من الجاني ، وتنكيس أبصار ، واعتذار واستغفار ، يذيب الفؤاد ويخرس اللسان ، يقابله حلم وعفو وكرم من المجني عليه ، فكيف كان المخرج ليوسف عليه السلام من هذا المأزق الذي تحار فيه الأفهام ، ويضطرب فيه الوجدان ؟ ، لقد ذكر إخوته بذنوبهم قبل أن يتعرف اليهم، تذكيراً مجملا مقروناً بذكر العذر الطبيعي ، وهو الجهل بقبح الذنب في نفسه وبسوء عاقبته ، وبالآثار التي تترتب عليه ، وبالبواعث التي تزينه لفاعله ، وتمكن لنزغ الشيطان من نفسه الأمارة بالسوء ، بل بهما جميعا . ذكرهم هذا بسؤالهم سؤال العارف المتجاهل، باستفهام التقرير، لا التقريع والتوبيخ كما قيل ، فإنه يرده ما يأتي من نفي التثريب ، واستغفار العفو والصفح ، وأما سهم أخيه من فعلتهم فهو ما اقتضاه إشراكهم إياه في حسدهم له من أول شأنه الدال عليه قولهم أولا « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا » ، وقول أبيهم آخراً « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » ؟ واتهامه إياهم بأنهم ما أفتوا عزيز مصر باسترقاقه بالسرقة إلا بما أضمروه له من حقد ، وماسولته لهم أنفسهم من أمر ، يقول الزمخشري : « قال هل علمتم

تاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب فقال : هل علمتم قبح « ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » لاتعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه ، يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين لامعاتبة وتثريبا ؛ إيثارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها ، وقيل : لم يرد نفى العلم عنهم لأنهم كانوا علماء ولكنهم لما لم يفعلوا مايقتضيه العلم ولايقدم عليه إلاجاهل سماهم جاهلين ، وقيل: معناه إذ أنتم صبيان فى حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة ، روى أنهم لما قالوا « مسنا وأهلنا الضر » وتضرعوا إليه ارفضت عيناه ، ثم قال هذا القول . وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب : « من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد : فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاما ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا : قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته لذلك ، وإنا أهل بيت لانسرق ولا نلد سارقا ، فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام » فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك . وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا « قالوا أئنك لأنت يوسف » استفهام تقرير ، وقيل : عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم ، وقيل: رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة فى رأسه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب وإسحاق مثلها « قال » لهم « أنا يوسف »

وزادهم بقوله «وهذا أخى» بنيامين شقيق، وإنما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتاً فى أمره «قد منّ الله علينا» قال ابن عباس: بكل خير فى الدنيا والآخرة، وقال آخرون: بالجمع بيننا بعد التفرقة «إنه من يتق» أى المعاصى «ويصبر» أى على البلاء وأذى الناس، وقال ابن عباس: يتق الزنا ويصبر على الفرقة. وقال مجاهد: يتق المعصية ويصبر على السجن «فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» والمعنى أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجره، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين.

ولما ذكر يوسف عليه السلام لإخوته أن الله تعالى من عليه وأنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيعه صدقوه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك «قالوا» مقسمين بقولهم «تالله» أى الملك الأعظم «لقد آثرك» أى اختارك «الله علينا» بالعلم والعقل والحسن والملك والتقوى وغير ذلك، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن إخوته ما كانوا أنبياء لأن جميع المناصب التى تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه فلو شاركوه فى منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا «وإن كنا لخاطئين» أى والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك أذلنا الله تعالى لك «قال» لهم قول الكرام اقتداء بإخوانه من الأنبياء والرسل عليهم السلام «لا تثريب» أى لا لوم ولا تعنيف ولا هلاك «عليكم اليوم» وإنما خصه بالذكر لأنه مظنة التثريب «يغفر الله» أى الذى لا إله غيره «لكم» أى ما فرط منكم، وفى هذا الدعاء بالمضارع إرشاد لهم إلى إخلاص التوبة «وهو» تعالى «أرحم الراحمين» لجميع العباد لاسيما التائب فهو جدير بإدراك النعم، وسألهم عن أبيه فقال: ما فعل أبى بعدى؟ قالوا: ابيضت عيناه من الحزن، فأعطاهم قميصه وقال «اذهبوا بقميصى هــــذا» وهو قميص إبراهيم عليه السلام الذى لبسه حين ألقى فى النار عريانا فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه وكان ذلك القميص عند إبراهيم، فلما مات إبراهيم ورثه إسحاق فلما مات إسحاق ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص تميمة وعلقها فى عنقه، إذ كان يخاف عليه من العين، وكان

لا يفارقه ، فلما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ وتلك التميمة فأخرج القميص وألبسه إياه، وعند ما تعارف هو وإخوته جاءه جبريل عليه السلام وقال: أرسل ذلك القميص فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم إلا عوفى ، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال : إذا وصلتم إلى أبى « فألقوه على وجه أبى يأت » أى يصير « بصيراً » ، أى يرد إليه بصره كما كان أو يأت إلى حال كونه بصيرا «وأتونى» أى أبى وأنتم «بأهلكم» أى مصاحبين لكم «أجمعين» لا يتخلف منهم أحد ، فرجعوا بالقميص لهذا القصد ، وروى أن يهوذا هو الذى حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال: لا يحمل هذا غيرى لأفرحه كما أحزنته ، لحمله وهو حاف من مصر إلى كنعان بفلسطين « ولما فصلت العير » من العريش وهى آخر بلاد مصر إلى أول بلاد الشام « قال أبوهم » لولد ولده ومن حوله من أهله مؤكدا لعلمه أنهم ينكرون قوله « إنى لأجد ريح يوسف » قيل : إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجىء وقت الفرج « لولا أن تفندون » أى تنسبونى إلى الخرف ، يقال : أفند الرجل إذا خرف وتغير عقله ، وعن الأصمعى : إذا كثر كلام الرجل ، من خرف فهو مفند ، قال فى الكشاف يقال : شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها ، وقيل : التفنيد الإفساد يقال : فندت فلانا إذا أفسدت رأيه ورددته .. ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك « قالوا » أى الحاضرون عنده « تالله إنك لفى ضلالك » أى حبك « القديم » ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول إخوة يوسف « إن أبانا لفى ضلال مبين » ، وقال مقاتل : معنى الضلال هنا الشقاء أى شقاء الدنيا والمعنى : إنك لفى شقائك القديم بما تكابده من الأحزان على يوسف وقال الحسن: إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ، فكان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم أنهم عجلوا له بشيرا فأسرع قبل وصولهم بالقميص « فلما أن » زيدت أن لتأكيد مجيئه على تلك الحال « جاء البشير » وهو يهوذا بذلك القميص « ألقاه » أى طرحه البشير على

وجهه ، أى وجه يعقوب وقيل: ألقاه يعقوب على وجه نفسه «فارتد» أى رجع «بصيرا» أى صيره بصيرا ، ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك «قال» لبنيه «ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون» من حياة يوسف وأن الله تعالى يجمع بيننا ؟ قيل : لما جاء البشير إلى يعقوب أعطاه فى بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جده عليهما السلام ، وهى: يالطيف فوق كل لطيف الطف بى فى أمورى كلها كما أحب . وروى أن يعقوب عليه السلام قال للبشير : كيف تركت يوسف؟ قال : تركته ملك مصر ، قال : ما أصنع بالملك : وعلى أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة ، فعند ذلك «قالوا يا أبانا» منادين بالأداة التى تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الموقع «استغفر» أى اطلب من الله تعالى أن يغفر «لنا ذنوبنا» التى اقترفناها ، ثم قالوا مؤكدين ذلك تحقيقا للإخلاص فى التوبة «إنا كنا خاطئين» أى متعمدين للإثم بما ارتكبنا فى أمر يوسف عليه السلام ، ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأل له المغفرة ، قال صلى الله عليه وسلم : إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه «قال» لهم «سوف أستغفر» أى أطلب أن يغفر «لكم ربى» الذى أحسن إلى ، وظاهر هذا الكلام أنه لم يستغفر لهم فى الحال بل وعدهم بأن يستغفر لهم بعد ذلك ، واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه :

فقال ابن عباس والأكثرون : أراد أن يستغفر لهم فى وقت السحر لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة ، وفى رواية أخرى له أنه أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة . وقيل: استغفر لهم فى الحال وقوله «سوف أستغفر لكم» معناه أنى أداوم على هذا الاستغفار فى الزمان المستقبل ، وقيل: قام إلى الصلاة فى وقت السحر ، فلما فرغ رفع يديه وقال : اللهم اغفر لى جزعى على يوسف ، فأوحى الله تعالى إليه أنى قد غفرت لك ولهم أجمعين ؛ وعن الشعبى قال : أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفر لكم ربى «إنه هو الغفور الرحيم»

روى أن يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير إلى يعقوب عليه السلام ماتى راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج إلى مصر فخرج بهم، فلما دنا من مصر كلم يوسف فرعون مصر فخرج يوسف عليه السلام والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وركب أهل مصر معهما بأجمعهم يتلقون يعقوب . وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال ليهوذا : هذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ابنك يوسف ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه بدأه يوسف بالسلام فقال له جبريل : لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب : السلام عليك ، وقال الثورى : لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى ، فقال يوسف : يا أبت بكيت حتى ابيضت عيناك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال بلى : ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك « فلما دخلوا على يوسف آوى » أى ضم « إليه أبويه » قال الحسن: أباه وأمه ، وكانت حية إكراما لهما ، وغلب الأب فى التثنية ، وعن ابن عباس أنها خالته وكانت أمه قد ماتت فى نفاس بنيامين ، وقيل : استقبلهم يوسف خارج مصر ، ونزل بهم فى خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضم إليه أبويه « وقال » مكرما « ادخلوا مصر » أى البلد المعروف « إن شاء الله آمنين » من جميع ما ينوب حتى مما فرطتم فى حقى وحق أخى . روى أن يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ « و » لما استقر بهم الدار بدخول مصر « رفع أبويه » أى أجلسهما معه « على العرش » أى السرير الرفيع ، والرفع هو النقل إلى العلو « وخروا له » أى أبواه وإخوته « سجدا » أى سجود انحناء والتواضع قد يسمى سجودا ، وكان السجود تحيتهم فى ذلك الزمان أو أنهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة العبادة ، وكان ذلك جائز فى الأمم السالفة فنسخت فى هذه الشريعة ،

وروى عن ابن عباس أنه قال : معناه خروا لله سجدا بين يدى يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لأجل وجدان يوسف ، ويدل عليه قوله تعالى: ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وذلك يشعر بأنهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل فى التواضع « وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل » والمراد منه قوله « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » قال الرازى : وعندى أنه يبعد أن يرضى يوسف بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة ، أو أنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكراً لنعمة وجدانه فانه يقال : صليت للكعبة كما يقال : صليت إلى الكعبة . ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال « قد جعلها ربى حقا » أى مطابقا للواقع لتأويلها وتأويل ما أخبرتنى به أنت . والتأويل تفسير بما يؤول إليه معنى الكلام، وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل إلى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثة وعشرين سنة ، فكان عمره مائة وعشرين سنة « وقد احسن » أى أوقع إحسانه « بى » تصديقا لما بشرتنى به من إتمام النعمة « إذ أخرجنى من السجن » ولم يذكر إخراجه من الجب لوجوه :

أولها : أنه قال لإخوته « لا تثريب عليكم اليوم » ولو ذكر قصة الجب لكان ذلك تثريبا لهم ، فكان إهماله لها جاريا مجرى الكرم .

وثانيها : أنه لما أخرج من الجب لم يصر ملكا بل صيروه عبدا وإنما صار ملكا بعد إخراجه من السجن ، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملا .

ثالثها: أنه لما خرج من الجب وقع فى المضار الحاصلة من تهمة المرأة ، ولما خرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته فكان هذا أقرب إلى المنفعة مع أن اللفظ محتمل للجب أيضاً لكنه احتمال خفى « وجاء بكم من البدو » أى من

أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم كما جاء فى الحديث : من يرد الله به خيرا ينقله من البادية إلى الحاضرة ، والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور بدا يبدو إذا سكن فى البادية . . وفى الآية دلالة على أن فعل العبد خلقه الله تعالى لأنه أضاف إخراجه من السجن إلى الله تعالى ومجيئهم من البدو إليه « من بعد أن نزغ » أى أفسد « الشيطان » بسبب الحسد « بينى وبين إخوتى » وأصل النزغ دخوله فى أمر لإفساده ، وإضافة يوسف عليه السلام الخير إلى الله تعالى والشر إلى الشيطان تقتضى أن فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لأضافه إليه . والجواب أن إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مجاز لأن الفاعل المطلق هو الله تعالى فى الحقيقة ، قال تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فثبت بذلك أن الكل من عند الله وبقضائه وقدره ، وليس للشيطان فيه مدخل إلا بإلقاء الوسوسة . وذلك بإقدار الله تعالى إياه على ذلك كما حكى الله ذلك عنه بقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » . « إن ربى لطيف لما يشاء » أى بالغ أقصى اللطف بعباده فى التدبير والرفق فى التسخير لتنفيذ ما يشاء فى خلقه من الحكمة البالغة والوصول إلى المقاصد الحسنة والغايات النبيلة ، بحيث لا يشعر من لطف به عند وقوع الأسباب والوسائل بغايتها إلا عند وصوله إليها ، فمن ذا الذى كان يخطر بباله أن الإلقاء فى الجب وما أعقبه من الرق ، وما تلا الرق من فتنة العشق الذى يفضى إلى السجن ، ينتهى بالسيادة والملك ؟ « إنه هو العليم » بما لكل قدر من عمل ، وما لكل عمل من أجل . « الحكيم » فى بلوغ مشيئته ، وفى ذلك كله كمال المصلحة فى جزاء الذين أحسنوا بالحسنى وجعل العاقبة للمتقين ، فحمد ربه على لطفه فى مشيئته ، وعلمه وحكمته ، من أجل الحمد والثناء .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الخامس من سورة يوسف عليه السلام، وقد تضمن ما تضمن من دفاع إخوة يوسف عن أنفسهم حين رموا بالسرقة، ومن أخذ يوسف لأخيه بنيامين عقابا له على السرقة ، ومن فزع إخوة يوسف للأمر ولغضب يعقوب عليهم ،

ومن ذهابهم إلى أبيهم يخبرونه بالقصة ، ومن الأمل الذى ملك قلب يعقوب وروحه ، ومن طلبه من أبنائه أن يذهبوا إلى مصر ليتحسسوا أنباء يوسف وأخيه ، ومن دخولهم على يوسف وشكواهم إليه ، ومن تعريفه لهم بنفسه واعتذارهم أمامه ، وصفحه عنهم ، ومن ذهابهم بالبشرى إلى يعقوب ، وعودة بصر يعقوب إليه ، وعفوه عن أبنائه ، ومن ذهاب يعقوب وآله إلى مصر ، ودخولهم على يوسف ، وخضوعهم له سجدا ، وحمد يوسف لله على نعمه الجزيلة عليه .

الربع السادس من سورة يوسف

١٠١ — رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ .

فى هذه الآية الكريمة مزيد حمد لله عز وجل من يوسف عبد الله ونبيه وابن نبى الله يعقوب عليه السلام .. روى أن يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه ، ولما حضر يعقوب الموت وصى يوسف عليه السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه عند أبيه ثم عاد إلى مصر وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة ، يقول الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة « رب قد آتيتنى » أى أعطيتنى « من الملك » أى بعضه وهو ملك مصر « وعلمتنى من » أى بعض « تأويل الأحاديث » بما بشرنى به أبى وأخبرت به أنت من التمكين والتعليم فى قولك « والله غالب على أمره » ، ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال « فاطر » أى خالق « السموات والأرض » ثم أعلمه بما هو أعلم به منه من أنه لا يعول على غيره فى شىء من الأشياء « أنت ولى » أى الأقرب إلى باطنا وظاهراً « فى الدنيا والآخرة » أى لا ولى لى غيرك ، روى أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا أنه قال : من شغله ذكرى عن مسألتى

أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، فلهذا المعنى من أراد الدعاء لا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله تعالى ، ويوسف عليه السلام لما أراد أن يكثر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض » ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله « توفنى » أى بالموت حال كونى « مسلما » ولما كان المسلم حقيقة من كان غريقا فى الإخلاص أعقبه بقوله «وألحقنى بالصالحين» أى فى نعيمك وجنتك ورضائك ومثوبتك ، ونظيره ما فعله الخليل عليه السلام فى قوله « الذى خلقنى فهو يهدين » فمن هاهنا إلى قوله « رب هب لى حكما » ثناء على الله تعالى ثم من قوله « رب هب لى حكما » إلى آخر الكلام دعاء ، فكذلك ما هنا .

١٠٢ — ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

١٠٣ — وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ .

١٠٤ — وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ .

١٠٥ — وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .

١٠٦ — وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ .

١٠٧ — أَفَأَمِنُوٓا أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

١٠٨ — قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

١٠٩ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ

الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

١١٠ — حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

١١١ — لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

فى هذه الآيات العشر الكريمة خطاب للرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، وحديث إلى المشركين الكافرين برسالته ، وبيان للدعوة التى يدعوا إليها محمد صلوات الله عليه ، وبيان كذلك للعبرة من هذه القصص القرآنية العالية .

يقول الله عز وجل لنبيه الكريم : ذلك القصص هو من الأخبار البعيدة التى كانت تغيب عنك وعن قومك ، فأوحينا إليك نبأها ، وما كنت يامحمد تشهد هذه القصص ، وما كنت ترى إخوة يوسف وهم يمكرون به ويرمونه فى الجب ، فانظر كيف كان عاقبة أمره ؟ نصر مابعده من نصر ، فلئن كان قومك يمكرون بك فلك النصر ، ولهم الخزى ، فلا تبال بهم ولا تحرص على إيمانهم فإن أكثر الناس ليسوا مهما حرصت على ذلك بمؤمنين .. وأنت يامحمد إذ تدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لا تطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورا ، لاتطلب منهم الملك ولا المال ولا الجاه ولا السلطان ، إنما تبلغهم رسالة الله وكتابه الحكيم الذى هو ذكر وشرف للعالمين ، للإنسانية كلها ،

والذى هو كذلك عبرة وعظة للعالم جميعا ، إذ هو كتاب هذه الرسالة الإلهية العامة التى نزل بها جبريل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. إن المشركين كانوا جديرين بأن يؤمنوا ، وأمامهم العبر والعظات ماثلة للعيان . أمامهم الآيات فى الأرض والسماء يمرون عليها وهم عنها معرضون ، هل قد أمنوا عذاب الله ، هل قد أمنوا قيام الساعة بغتة ؛ قل لهم يا محمد هذه رسالتى وتلك دعوتى . وهذه شريعتى ، إنى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى من المؤمنين ، وسبحان الله وما أنا من المشركين . إن رسل الله يا محمد إلى الناس من قبلك هم رجال مثلك من أهل المدن والقرى أوحينا إليهم برسالاتنا ، فليسر المشركون فى الأرض فلينظروا كيف كان عاقبة الأمم قبلهم التى كفرت برسالات الله ، وكيف نجى الله المؤمنين منهم ، ووعدهم الثواب والنعيم فى الآخرة . . أفلا يعقل هؤلاء المشركون ؟ أفلا يتعظون ؟ أفلا يتدبرون ؟ إن الرسل دائما ـ كما بين الله تعالى فى الأعراف ويونس وهود ويوسف وسواها ـ كانوا يدأبون على دعوة أممهم إلى التوحيد وإلى الله ، حتى إذا كلوا وملوا واعتراهم اليأس فرأوا أن لا أمل ولا رجاء جاءهم نصر الله ، فنجى الله من يشاء برحمته من رسله ومن آمن بهم ، وأهلك المشركين والكافرين والجاحدين . إن فى قصص الرسل والأنبياء عبرة وعظة للعاقلين المتعظين المتدبرين ، وما كانت هذه القصص أحاديث مفتراة ، ولكن هى الحق ، وهى تصديق للكتب السماوية المنزلة من قبل ، وهى تفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

ولقد أصاب بعض الكتب الإلهية ما أصابها من التحريف والتبديل ، وحجبت أنوارها ومقاصدها عن العقول البشرية ، فمن رحمة الله بعباده أن لا يدعهم يتخبطون فى ديجور الضلالة ، ويتيهون فى أودية الجهالة ، بل يجدد لهم وحيه ، ويعيد على أسماعهم قوله ، بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل يحفظه الله تعالى بحفظه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقال تعالى : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » ؛ فالقرآن هو المعجزة

العظمى التى تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من قول البشر ، والدليل على ذلك أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتابة ، ولم يطالع الكتب ، ولم يذاكر العلماء ، أليس من البراهين القطعية على صدق نبوة محمد أنه كان أميا نشأ بين قوم أميين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من الشئون الغيبية دون أن يتعلم من بشر ؟ ! بلى . وهو كما قال تعالى فى سورة هود بعد ذكر قصة نوح : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » ، وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم : بل كنا نعلمها .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة الرائعة البليغة : « ذلك » أى الذى ذكرته يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع إخوته ثم صار إلى الملك بعد الرق « من أنباء الغيب » أى من أخبار ما غاب عنك « نوحيه إليك » أى الذى أخبرناك به من أخبار وحى أوحيناه إليك والحال أنك « ما كنت لديهم » أى عند إخوة يوسف عليه السلام « إذ » أى حين « أجمعوا أمرهم » أى عزموا على أمر واحد وهو إلقاء يوسف فى الجب « وهم يمكرون » أى يدبرون الأذى فى الخفية بيوسف ، والمعنى أن هذا النبأ غيب لأنه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تتلمذ لأحد ولا كانت البلدة بلدة العلماء ، وإتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه ليس فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم معجزة جليلة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: « وما كنت لديهم » ذكر على سبيل التهكم بهم لأن كل أحد يعلم أن محمدا ما كان معهم .

ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما نقله أبو حيان عن ابن الأنبارى — عن قصة يوسف عليه السلام ، فنزلت بهذا البيان والإعجاز ، فأمل صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك سبب إسلامهم ، فخالفوا ما أمله - سلاه الله تعالى أعظم سلوى بقوله : « وما أكثر الناس » أى

أهل مكة « ولو حرصت » على إيمانهم بمؤمنين لعنادهم وتصميمهم على الكفر ، وكان ذلك إشارة إلى ما ذكر الله تعالى فى قوله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى يشاء » ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى : « وما تسألهم عليه » أى هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك « من أجر » حتى يكون سؤالك له سبباً لأن يتهموك أو يقولوا : لو لا أنزل عليه كنز ليستغنى به عن سؤالنا « إن هو » أى هذا الكتاب وهو القرآن الكريم « إلا ذكر » أى عظة من الله تعالى « للعالمين » أى للبشر عامة « وكأين » أى وكم « من آية » دالة على وحدانية الله تعالى فى السماء والأرض « فى السموات » كالكواكب والنجوم والشمس والقمر وكالسحاب والمطر وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى « والأرض » من الجبال والشجر والدواب والمعادن وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى « يمرون عليها » أى يشاهدونها « وهم عنها معرضون » أى لا يتفكرون فيها ، ولا عجب فالعالم كله ركن فيه ، بل كل ذرة من ذراته تحتوى على دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، ثم إن المشركين يمرون عليها ولا يلتفتون إليها « وما يؤمن أكثرهم بالله » حيث يقرون بأنه الخالق الرازق « إلا وهم مشركون » بعبادة الأصنام ، قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » لكنهم كانوا يثبتون له شريكا فى العبودية ، وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى تلبية مشركى العرب كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك إلا شريكا لك هو تملكه وما ملك — يعنون الأصنام ؛ وعنه أيضاً أن أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده ؛ وقالت اليهود : ربنا الله وحده وعزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال عبدة الشمس والقمر : الله ربنا وحده وهؤلاء أربابنا ؛ وقال المهاجرون والأنصار : الله وحده لا شريك له ؛ « أفأمنوا » إنكار فيه معنى التوبيخ والتهديد « أن تأتيهم » فى الدنيا « غاشية » أى نقمة تغشاهم وتشملهم « من عذاب الله » أى الذى له الأمر كله كما أصاب من ذكرنا قصصهم من الأمم « أو تأتيهم الساعة بغتة »

أى لجأة وهم عنها فى غاية الغفلة . وقوله تعالى : « وهم لا يشعرون » أى بوقت إتيانها قبل كالتأكيد بقوله « بغتة » ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى أمره أن يأمرهم باتباعه بقوله تعالى : « قل » يا محمد « هذه » أى الدعوة إلى الله تعالى التى أدعو إليها « سبيلى » أى طريقتى التى أدعو إليها الناس وهى توحيد الله تعالى دين الإسلام ، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق المؤدى إلى ثواب الجنة « أدعو إلى الله » أى إلى توحيده والإيمان به « على بصيرة » أى حجة واضحة « أنا » تأكيد للضمير المستتر فى « أدعو » .. « ومن اتبعنى » أى من آمن بى وصدق بما جاءنى ـ عطف عليه ، ويصح أن يكون معنى « على بصيرة » أى على ثقة بما يقول : ويقين منه ؛ فإن لم يكن كذلك وإلا فهو محض الغرور ، وقال صلى الله عليه وسلم : العلماء أمناء الرسل على عباد الله ، من حيث يحفظون ما يدعون إليه « وسبحان » أى وقل سبحان « الله » تنزيها له تعالى عما يشركون به « وما أنا من المشركين » أى الذين اتخذوا مع الله شريكا أو ندا . ولما قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم : هلا بعث الله ملكا قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك » إلى المكلفين « إلا رجالا » أى مثل ما أنك رجل لا ملائكة ولا إناثا كما قاله ابن عباس « نوحى إليهم » بواسطة الملائكة مثل ما يوحى إليك « من أهل القرى » أى من أهل الأمصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من أهل البوادى ، لأن أهل الأمصار أكثر خبرة وثقافة من أهل البوادى ؛ ومكة أم القرى لأنها بجمع لجميع الناس لما أمروا به من حج البيت وكان العرب كلهم يأتونها فكيف يعجبون من أمرك ، قال الحسن : لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم . ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى : « أفلم يسيروا » أى هؤلاء المشركون المكذبون « فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » من المكذبين الرسل والآيات ، فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم وبما حل بهم من عذابنا ، ولما كان من شأن الله تعالى أن ينجى المؤمنين عند نزول العذاب بالأمم الماضية التى كذبت برسلها ، وأن ما فى الآخرة خير لهم ، بين ذلك بقوله تعالى : « ولدار الآخرة »

أى ولدار الحال الآخرة والساعة أو الحياة الآخرة «خير» وهى الجنة «للذين يتقون» الله «أفلا يعقلون» فيستعملون عقولهم فيتبعون الداعى إلى هذه الرسالة «حتى إذا استيأس الرسل» أى لا يغرهم تمادى أممهم، فإن من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم فى الدنيا ومن إيمانهم، لانهماكهم فى الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع «وظنوا» أى الرسل «أنهم قد كذبوا» بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائى ـ تكذيبا لا إيمان بعده، وإما بالتخفيف كما قرأه هؤلاء، فالمعنى أن الأمم ظنوا أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر «جاءهم نصرنا» لهم بخذلان أعدائهم «فننجى من نشاء» أى النبى والمؤمنين، وقرىء «فنجى» بالبناء للمجهول، «ولا يرد بأسنا» أى عذابنا «عن القوم المجرمين» أى المشركين ما نزل بهم..

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله: «أفلم يسيروا» أتبعه بأن فى أحاديثهم عبرة فقال حثاً على تأملها والاستبصار بها: «لقد كان فى قصصهم» أى يوسف وإخوته أو فى قصص الرسل «عبرة» أى عظة عظيمة «لأولى الألباب» أى لذوى العقول المبرأة من شوائب الكدر يعتبرون بها إلى ما يسعدهم؛ لأن من قدر على نجاة يوسف من السجن قادر أن ينجى محمداً صلى الله عليه وسلم ويعلى كلمته وينصره على أعداء رسالته كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره، ولما كان من العبرة فى ذلك القطع بحقيقة القرآن وأنه من عند الله، نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال: «ما كان حديثا يفترى» أى يختلف فى أمره لأن الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء، فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما رواه فى التوراة من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى «ولكن تصديق الذى بين يديه» أى من الكتب الإلهية المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل، ففى ذلك إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من

ذكر قصة يوسف عليه السلام « وتفصيل » أى تبيين « كل شيء » أى ما يحتاج إليه من الدين، إذ ما من أمر دينى أو دنيوى إلا وله سند من القرآن بواسطة أو بغير واسطة ، بل ما من أمر يتعلق ببناء الأمم ونهضتها وقوتها إلا وقد رسم القرآن الكريم منهجه ، وقيل : المراد تفصيل كل شيء من واقعة يوسف وأبيه وإخوته ، قال الواحدى : وعلى التفسيرين جميعا فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شيء » . « وهدى » من الضلال « ورحمة » ينال بها خير الدارين « لقوم يؤمنون » أى يصدقون ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى « هدى للمتقين » .

نظرة عامة فى سورة يوسف

(١)

هذه السورة الكريمة المكية التى اشتملت فى مطلعها وفى آخرها على تمجيد القرآن الكريم والتنويه به ، واشتملت فى نهايتها على تعظيم رسالة محمد والدعوة إلى اتباعه ، وتوبيخ المشركين على عنادهم وكفرهم ، والدعوة إلى الاعتبار بقصص الماضين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

هذه السورة هى مثل رائع بليغ لعظمة القرآن وبلاغته ، وأسلوبه المعجز ، وهى كذلك درة نادرة من الأدب القصصى ، إذ ليس لها نظير ولا شبيه فى بلاغتها وروعتها . . وفن القصة لم تكن العرب تعرفه من قبل ، فوضع القرآن الكريم أصول هذا الفن بمثل هذه السورة الرائعة البليغة من سور القرآن الكريم .

(٢)

وتحتوى قصة يوسف على كثير من العظات والعبر والنصائح الموجهة الحكيمة :

١ - فهى ترشد إلى ما يحدثه تعدد الزوجات فى الأسر من شقاق وخلاف ، ومن تنشئة للأبناء على الحسد والبغضاء .

٢ - وترشد إلى الأضرار التى يحدثها تفضيل الأب لأحد أبنائه على الأبناء الآخرين .

٣ - وهى ترشد إلى الصبر وفضله وأهميته فى بناء الشخصيات والرجال .

٤ - وهى ترشد إلى فضيلتى العفة والأمانة وأهميتها فى حياة الفرد والمجتمع والأمة .

٥ - وهى كذلك ترشد إلى أضرار جريمة الزنا ، وإلى وجوب البعد عنها ، وإلى أن الأصلاب الطاهرة لا يمكن أن تقبل أن يلوث شرفها وطهارتها ؛ وهى كذلك تدل على مدى غضب الله من جرائم الزنا ، وشدة بغضه للزانين .

٦ – والسورة كذلك تدل على مايجب أن يكون عليه الراعى لشئون الأمة من وجوب الحرص عليها وعلى مصلحتها ، ومن بعد النظر فى رسم سياستها ، ومن التفكير فى حاجاتها ومطالبها الحاضرة والمقبلة .

٧ – والسورة كذلك تدل على فضيلة الحكمة التى يجب أن يتحلى بها عظماء الرجال ، بله الأفراد العاديون .

٨ – وترشد السورة كذلك إلى وجوب شكر الله وحمده على كل نعمة ينعم الله بها على الإنسان ، فبالشكر والحمد تدوم النعم ولا تزول .

٩ – وتدل السورة كذلك على وجوب العطف على الأقارب وأولى الرحم ، وخاصة فى المحن والشدائد ، مهما كان بين الإنسان وبينهم من عداوات وخصومات . . كما تدل على وجوب العفو عن سيئاتهم ، والغفران لذنوبهم ، والتغاضى عن هفواتهم .

١٠ – والسورة كذلك تدل على أن الله دائما مع المؤمنين به ، والمدافعين عن شرائعه ، وأنه يذكرهم دائما فى الشدائد ، وينصرهم فى الخطوب ، وعلى أنه ينجيهم من المحن ، ويرفع قدرهم ومنزلتهم ولا يتركهم ولا يتخلى عنهم أبدا .

١١ – وترشد السورة مع ذلك إلى قدرة الله القادرة ، وعظمته فوق عباده ، وأنه العليم بالسر وما أخفى ، وأن بيده مفاتيح الأرزاق ، وأنه المدبر للأمور ، وأن كل من فى السموات والأرض هم عباده وخلقه .

(٣)

وسورة يوسف نغمة واحدة متصلة ، ولحن جميل عذب رائع ، وهى بانسجام قصصها ، ووحدة موضوعها ، وعظمة أسلوبها ، وسحر تعبيرها ؛ ترشد إلى أن هذا القرآن الكريم معجز ، وإلى أنه منزل من الله ، وإلى أنه الدليل وأعظم الدليل على رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .. وعلى آله وصحبه أجمعين . . ؟

خاتمة هذا الجزء

(١)

هذه هى نهاية الجزء الثانى عشر من تفسيرنا للقرآن الكريم ، وقد اشتمل على تفسير سورتى هود ويوسف عليهما السلام ، وعلى وجوه العبر والعظات فى السورتين .

وهذا الجزء كالأجزاء السابقة دليل على أهمية هذا التفسير ، وضرورة ظهوره فى العصر الحاضر ، لأنه يفسر المعجزة الخالدة « القرآن الكريم » تفسيرا جديدا يتفق مع القرن العشرين وعقليته التى تعيش فى عصر الذرة والصواريخ والفضاء الكونى .

إن القرآن الكريم دستور إلهى خالد ، نزل من السماء على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تضمن من نواميس الاجتماع وشرائع الحياة ، وأصول العقائد ، وأركان الحضارة ، مالم يتضمنه كتاب آخر ، وفيه تفسير لكثير مما غمض علينا فهمه من أسرار الكون والوجود ، ومن الدعائم التى تحفظ للأمم قوتها ومجدها إذا حافظت عليها ، وعملت بها ، ومن كل مايعود على الإنسان والإنسانية بالخير العميم ، والتوفيق الشامل . إنه كتاب الإنسانية عامة ، قبل أن يكون كتاب المسلمين وحدهم ، وهو جدير بالتأمل والاعتبار والفهم والتدبر . وأحكامه وآدابه وعظاته ماهى إلا سور منيع يحمى الفرد والمجتمع والشعوب من الانهيار ، ومن الضلال فى مهامه العيش ، وبيداء الحياة ، وتيه الحيرة ، وجحيم الذل والهوان . وإننا نادى بأن لا أمل فى أن يسود السلام العالم ، وأن تطمئن الشعوب إلى مصائرها وحياتها ، إلا بالعمل بالقرآن الكريم ، وبما تضمنه من كل عظيم من التشريع ، وبليغ من القول .

إن عظمة القرآن وإعجازه وجلاله . لتبدو واضحة كل الوضوح فى سبقه

إلى الكثير من المعارف الإنسانية التى لم يصل العلم إليها إلا بعد قرون وأجيال من نزول القرآن الكريم ، وفى أنه وضع أصول التفكير الصحيح ، ونشر الوعى العلمى ، وبث روح الحضارة فى عقول المؤمنين به والموقنين برسالة نبى الإسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام ، وتظهر كذلك فى أنه مهد لعصر المدنية تمهيداً قويا جبارا ، بما اشتمل عليه من تشريعات تعد قمة سامقة فى التشريع المساير لروح التقدم والحضارة والمدنية المهذبة الخالية من بذور الحقد والكراهية والتعصب والجمود والرجعية . وإن القرآن الكريم ليروعنا بإعجازه العقلى أكثر مما يروعنا بإعجازه البيانى ، ونحن عندما نتأمل فى آيات كتاب الله تأملا عميقا نعجب أشد العجب لهذه العظمة الكاملة التى وصل إليها القرآن ، بما اشتمل عليه من تصوير دقيق لخطرات النفوس ، ونوازع الأفئدة ولنفسيات الطبقات والطوائف والجماعات والأفراد ، وبما تضمنه من روائع الأصول لبناء حضارة إنسانية مثالية كريمة على نفسها وعلى الناس ، وبما احتواه من تفصيل لماضى الحياة وحاضرها ومستقبلها . فالإنسان ليس وحده على ظهر الأرض ، بل معه عون الله ورعايته ، ومعه ماض طويل من الكفاح والجهاد من أجل مستقبل البشر وخيرهم وسعادتهم ، ومعه الطموح الإنسانى لبلوغ مستقبل عظيم ، ترنو إليه نفوس الأخيار الأبرار الأحرار فى هذه الحياة وبعد هذه الحياة .

ونحن هنا فى ختام هذا الجزء ننادى بأعلى صوتنا أن المسلمين يجب عليهم أن يتدبروا فى حاضرهم ومستقبلهم كتاب الله حق التدبر ، وأن يفهموه حق الفهم ، وأن يجعلوه قاموسهم ودستورهم الذى به يعيشون ، وإلى أصوله يرجعون ، وعلى آرائه فى جميع مشكلاتهم يعتمدون .

(٢)

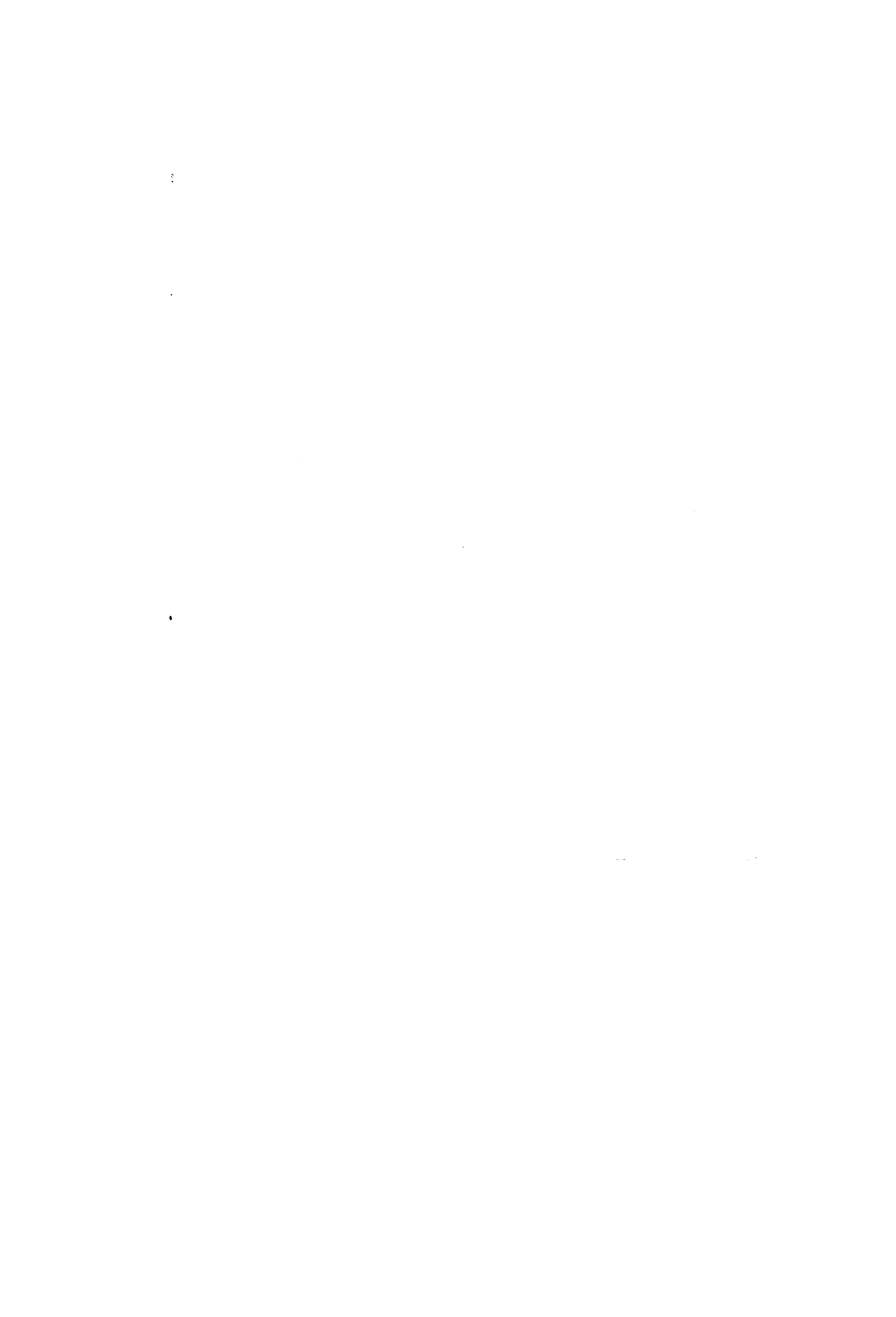
وهذا التفسير الجديد للقرآن الكريم ، يحتوى على جميع العناصر التى اشتمل عليها هذا الكتاب المعجز العظيم ، وشتى الأصول الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التى يقوم عليها بناء الدول ، وهو تفسير جديد النزعة والاتجاه ، وقد جرى المفسرون المعاصرون على التفاهة فيما

يقدمون من شرح وتحليل ، وعلى تنقص جهود علمائنا الأقدمين فى تفسير كتاب الله ، هذه الجهود الرائعة التى هى ثمرة كفاح طويل وتعب متصل ، ونصب ما بعده من نصب . ونحن هنا وإن كنا نقتبس من شعاعهم ونستنير بضوئهم ، لكننا نتجه بعد ذلك اتجاها جديداً هو تحليل القرآن الكريم معجزة الله الخالدة تحليلا كاملا يتضمن شرح توجيهه الرفيع للكون والحياة وللإنسانية عامة ، وللمسلمين خاصة ، إنه نهج مستقل فى تفسير كتاب الله لم نسبق إلى مثله . إذ توخينا فيه عرض أصول القرآن العامة وشرحها ، وخاصة مايتصل بحياة الأمم ونهضتها وأسباب قوتها وازدهارها ، وتوخينا فيه كذلك عرض نظريات القرآن الكريم بأسلوب البحث العلمى فى القرن العشرين .

(٣)

وإن ظهور هذا التفسير لهو معجزة كبيرة ، ورعاية جليلة من الله ؛ وكان البدء فى تأليفه استجابة لنداء خفى ، وتلبية لباعث إلهى . . وسرت فى طبعه بمدد من الله ، وفيض كريم من جنابه . وعلى الرغم من العوائق والحوائل والصوارف والموانع ، كان الله معى فى كل لحظة ، وكان تأييده الكريم يتخطى بى الحواجز والعقبات ، وكان عونه العظيم يؤيد خطاى ، ويوفق مسعاى ، ويثبت قدماى ، والمأمول بعون الله أن تتم هذه الموسوعة الإسلامية بعنايته كما أتمنى وأرجو من الله .. وليس صدور مثل هذا التفسير بالأمر الهين اليسير ، فكتابته تأخذ جهدا كبيراً ، وتقتضى عملا كثيرا ، ونشره كذلك يتطلب مالا وفيرا ، وليست كل هذه الأعباء مما يسهل تذليلها ، إلا بعون الله ورعايته . .

ولا غنى لنا فى نهاية هذا الجزء من أن نقول : إن المتاعب المادية الضخمة التى تحيط بنشر هذا التفسير وطبعه لاأمل لإنسان مثلى فى التغلب عليها إلا بفضل الله وعونه ، فهو وحده القادر على كل شىء ، والقادر على أن يمكن لنا من نشر هذا التفسير إلى نهاية جزئه الثلاثين . . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟



فهرست

الجزء الثانى عشر من تفسير القرآن الكريم

للمؤلف

قصـــة الأدب في مصر - ٥ أجزاء

« « المعاصر - ٤ «

ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحيـاة الأدبيـة في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥١٠ «

الشـعر والتجـديد

مواكب الحرية في مصر الإسلامية

في ظلال الإسلام - بالاشتراك

التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر

تفسير القرآن الحكيم - ٣٠ جزءاً

بين الشيوعية والإسلام

تطلب هـــذه الكـتب من

مؤسسـة المطبوعات الحديثة وفروعها